



إريك إيمانويل شميت

10.4.2017

# أوليس البغدادي

رواية



إريك إيمانويل شميت

## أوليس البغدادي

رواية

ترجمة: الدكتورة كيتي سالم

دار الفارابي

أوليس البغدادي

العنوان بلغة الأصل الفرنسية

Ulysse

from Bagdad

DE

ÉRIC-EMMANUELSCHMITT

© 2008 ÉDITIONS AlbinMichel

ISBN : 13: 978-2226188618

Traduit par Ketty Salem

[متابعة ترجمة الكتاب وإنتاجه: محترف القول الجريء ينشطه غازي برّو]

Réalisation et traduction de l'ouvrage : Atelier oser dire animé par

Ghazi BERRO

بيروت موبايل: 70216140

[Atelier.oser.dire1@gmail.com](mailto:Atelier.oser.dire1@gmail.com)

Atelier Oser Dire  
AOD

Cet ouvrage a bénéficié du soutien des Programmes d'aide à la publication de l'Institut français/ministère français des affaires étrangères et du développement international.

حظي هذا الكتاب بدعم برامج مساعدة النشر من قبل المعهد الفرنسي / وزارة الشؤون الخارجية والتنمية الدولية الفرنسية.



الكتاب: أوليس البغدادي  
المؤلف: إريك إيمانويل شميت  
ترجمة: د. كيتي سالم  
الغلاف: فارس غصوب

الناشر: دار الفارابي - بيروت - لبنان  
ت: ٣٠١٤٦١ (٠١) - فاكس: ٣٠٧٧٧٥ (٠١)  
ص.ب: ٣١٨١/١١ - الرمز البريدي: ١١٠٧٢١٣٠  
[www.dar-alfarabi.com](http://www.dar-alfarabi.com)  
e-mail: [info@dar-alfarabi.com](mailto:info@dar-alfarabi.com)

الطبعة الأولى: آب ٢٠١٥  
ISBN:978-614-432-458-5

© جميع الحقوق محفوظة  
تباع النسخة الكترونياً عبر موقع الدار.

إن الآراء الواردة في هذا الكتاب لا تمبّر بالضرورة عن رأي الدار.

«ما من غريب إلا ما هو غير إنساني.»

جان جيروودو، من رواية البينور





أدعى سعد (\*) سعد، وهذا يعني بالعربية: أمل أمل، وبالإنكليزية حزين حزين؛ تنزلق حقيقتي، في مجرى الأسابيع وأحياناً من ساعة إلى أخرى، وقد يحدث ذلك في انفجار ثانية من الزمن؛ وذلك وفق تفاؤلي أو بؤسي، حينئذ أصبح سعد الأمل أو سعد الحزين.

حين يولد الإنسان، تُسحبُ له ورقة يانصيب، بأرقام رابحة، أو خاسرة. ففي أميركا وأوربا، وكذلك في اليابان اليابان، يحط المرء رحاله وينتهي الأمر: يولد الإنسان مرة واحدة وهذا كافٍ، فلا يحتاج إلى أن يُعيد الكرة. أما حين يرى النور في أفريقيا، أو في الشرق الأوسط... قد أحلم غالباً بوجودي قبل أن أوجد، فأحلم بأنني أحضر الدقائق التي سبقت الحبل بي: حينئذ أصبح واقعي، وأسير العجلة التي تدير الخلايا والذرات والجينات، وأبعدها عن مسراها كي تُعدّل نتيجة واقعي، ليس من أجل أن تجعلني مختلفاً، كلاً، بل أريد أن أتفتح

---

(\*) إن ترجمة كلمة سعد بالفرنسية تعني الحظ، ولكن المؤلف ترجمها تجاوزاً بكلمة أمل (الترجمة).

بالضبط في مكان آخر. في مدينة أخرى وفي بلد متميز. أريد أن أولد من البطن ذاته طبعاً ومن أحشاء تلك الأم التي أعبدها، لكنني أريد بطناً يلدني على أرض أستطيع أن أنمو فيها وأترعرع، وليس في قعر حفرة وجب عليّ، بعد عشرين عاماً، أن أقتلَع منها.

أدعى سعد سعد، وهذا يعني بالعربية أهل أهل، وبالإنكليزية حزين حزين؛ كان بودي أن أكتفي بصيغتي العربية، وبالوعود المزهرة التي يرسمها هذا الاسم في السماء؛ كنتُ أتمنى، والكبرياء نسغي الوحيد، أن أنبت وأترعرع وألفظ أنفاسي الأخيرة، حيث ظهرت، شأن شجرة، ازدهرت وسط أهلها، ثم، بدورها، أغدقت بتلات، وقد قامت برحلة في الزمن، وهي ثابتة في مكانها؛ ولكنك في غاية السعادة في أن أشارك الناس السعداء في وهمهم، وأن أعتقد معهم أنهم يشغلون أجمل موقع في العالم، دون أن تخولهم أية رحلة القيام بمقارنة ما؛ إلا أن الحرب، والدكتاتورية، والفوضى، وآلاف الآلام، وكثيراً جداً من الموتى قد انتزعت كلها مني هذه الغبطة.

كلما تأملتُ في التلفاز، جورج بوش، رئيس الولايات المتحدة، اكتشفتُ الشكوك الغائبة التي تنقصني؛ فبوش فخور لأنه أميركي، كأن له دوراً في ذلك... إنه لم يولد في أميركا، لكنه ابتكرها، أجل، لقد صنعها منذ أول براز له في مستشفى التوليد وأحسن صنعها في حفاظاته وهو طفل، حين كان يزقزق في دار الحضانة وأتمها آخر الأمر، بأقلامه الملونة على مقاعد المدرسة الابتدائية. فمن الطبيعي، إذ، أن يقودها،

وهو راشد! يجب ألا يُحدثه أحد عن كريستوف كولومب، فهذا الحديث يثير غيظه، كما يجب ألا يُقال له إن أميركا ستستمر بعد موته، لأن ذلك يجرح شعوره. إنه في غاية الابتهاج من مولده الذي تخاله قد صنعه بنفسه. إنه ابن ذاته، وليس ابن والديه، ما أجمل العجرفة! وما أروع الاكتفاء الذاتي البليد! وما أبهى هذا الغرور الذي يدّعي مسؤولية كل ما تلقاه! إنني أحسده، كما أحسد كل إنسان ساعده الحظ في أن يتمتع بسكن في مكان لائق.

إنني أدعى سعد سعد، وهذا يعني بالعربية أمل، وأمل، وبالإنكليزية حزين حزين. قد أكون أحياناً سعد الأمل، وأحياناً أخرى سعد الحزين، وإن كنتُ، في نظر العدد الأكبر، لا أساوي شيئاً.

في نهاية هذا السفر، وفي بداية رحلة جديدة، أكتب هذه الصفحات كي أبرئ نفسي. فلقد ولدت في مكان لم يكن عليّ أن أولد فيه، أردتُ الرحيل عنه؛ وأنا أطلبُ صفة اللاجئ، حينئذٍ تدرجتُ من هوية إلى أخرى، مهاجراً ومستجدياً وغير قانوني وبلا أوراق ثبوتية وبلا حقوق مدنية وبلا عمل؛ فاللفظة الوحيدة التي تحددني من الآن فصاعداً هي مهاجر غير نظامي أو سري. فأنا لستُ طفيلياً، ولا نفعياً، وبعيداً كل البعد عن المحتال. كلاً، إنني مهاجر غير نظامي، ولا أنتمي إلى أية أمة ولا إلى البلد الذي هربتُ منه، أو ذلك الذي أود الوصول إليه، كما أنني لا أنتمي مطلقاً إلى البلاد التي أقطعها. فأنا مهاجر غير نظامي، هذا بالضبط وضعي، لا يُرحب بي أينما حللت، وأنا غريب في كل مكان.

أشعر، في بعض الأيام، بأنني قد أصبحت غريباً عن الجنس

البشري...

أدعى سعد سعد، لكنني لن أنقل اسم عائلتي، على ما يبدو،  
إلى أجيال قادمة. إنني محصور في مترين مربعين تحول إليه سكني  
الموقت، وأنا خجل من التناسل، وبالتالي، من أن أكرر الكارثة. وبئس  
الأمر بالنسبة إلى أمي، وإلى أبي اللذين احتفلا بمجيئي إلى هذا العالم،  
احتفالاً بالغأ، فسأكون آخر آل سعد، أي آخر الحزاني أو آخر من كانوا  
يأملون، لا يهم. إنني الأخير.

ولدت في بغداد يوم لاحظ صدام حسين، بغضب، أولى شعراته البيضاء، فراح يصرخ في القصر حتى كادت عروق رقبتة تنفجر، واستدعى حلاقه وطلب منه أن يُغطي تلك الشعرات فوراً بصبغة دهنية سوداء، فاحمة؛ ثم أعلن للرجل ذي الأصابع المرتجفة أنه يعتبره من الآن فصاعداً مسؤولاً عن أبسط بادرة تظهر عن شيخوخته: أي إن عليه أن يفتح عينيه! وبمجمال القول إنني ولدت يوم تجنب العراق مصيبة ما. فهل هذا نذير شؤم أم دليل سعد؟

إن كنتُ أنقلُ هذا التفصيل، فلأن الحلاق قريب بالمصاهرة من عمّة تزوّج بابنة أختها، والتي هي، بدورها، ابنة عم والدتي من أمها فقط، أي من الأسرة... وحين أتى إلى بيتنا، ذاك المساء، للاحتفال بقدمي، لم يستطع الحلاق إلا أن يبوح لوالدي بهذه الطريقة، وقد اختبأ خلف ستارة، وهو يتلذذ بها بصوت خفيض؛ وبالمقابل، لم يعترف مطلقاً، في تلك الليلة، ولا في أية ليلة تلتها، أين تقع تلك الشعرات المنحطة؟ وهل ظهرت على الرأس أو في جزء آخر من الجسم الرئاسي؟ لكن

هذا الإغفال يوجه التحقيق. فالكل يعرف أن الرجال في بلدنا يريدون أن يظهروا طويلاً في منتهى الرجولة، فيعمدون إلى صبغ الشعر حول أعضائهم التناسلية.

على كل حال، كان لوالديّ سببان ليفرحا: صبي جاء إلى العالم، والطاغية يشيخ.

استقبلني أهلي شأن معجزة، وهذا طبيعي: فبعد أربع بنات، فقد الجميع الأمل بقدمي، والكتلة الوردية الصغيرة التي كانت ترتعش بين فخذيّ انتزعت صرخات نشوة، وجهازي التناسلي الصغير جداً أطلق الآمال بالسلالات الملكية. وقبل أن أقوم بأبسط شيء ذكي، كنتُ محترماً ومُقدراً؛ ولم أكد أتجاوز عدة ساعات من العمر، حتى أطلقتُ وليمة مأثورة، وفي اليوم التالي، كان هناك تخمات، وذهب الأمر ببعضهم أن كانت أفواههم جافة ومنتنة بشكل لا مثيل له لإسرافهم في الشراب.

كنتُ مدلاً كثيراً طوال سنوات طفولتي، فكنتُ أبطاً من الأطفال الذين هم في مثل سني لأفهم كيف كان مواطني يعيشون - أو لا يعيشون. كنا نقطن شقة تقع في بناية قليلة الارتفاع، رمادية اللون، وعلى مرمى حجر من المدرسة الثانوية حيث كان أبي أميناً لمكتبها. كانت المدرسة، بالطبع، مدرسة حزب البعث، والمكتبة أيضاً للبعث، بقدر ما كان للبعث - الناطق باسم الحزب الرئاسي - الإذاعة، والتلفزيون، والمسبح، وصالة الرياضة، والسينما، والمقاهي... وحتى الماخور، كما يُضيف والدي.

بمجمّل القول، بدا لي أن ثمة ثلاثة كيانات رئيسية في الحياة ألا وهي: أسرتي والله والرئيس. ألاحظ، وأنا أكتب هذه الجملة، أن الابتعاد وحده يسمح، بكل جسارة، بترتيب العناصر على هذا الشكل، لأن هذا الترتيب، في تلك الحقبة، يرسل عراقياً إلى السجن؛ من الأفضل الترتيب هكذا: الرئيس، الله، وأسرتي.

كانت صور الرئيس، المعلقة في كل مكان، تراقب حياتنا اليومية؛ وتظهر كتبنا المدرسية صورته وجملته وتعلق الدوائر الرسمية صورة وجهه ويفعل ذلك أيضاً أصحاب الدكاكين والمحلات، بدءاً بالمقاهي الصغيرة ووصولاً إلى المطاعم، مروراً بمخازن الأقمشة وأواني الطعام والمواد الغذائية. فسواء عن قناعة، أو عن حذر، أو عن جبن، يرفع كل واحد صورة القائد العربي؛ وتلك الصورة أكثر فعالية من أية تعويذة؛ إنها نسخة لصدّام حسين يظهر فيها جزئياً من إطار، وتحمي من سوء المصير. أي حد أدنى ضروري وإن لم يكن كافياً؛ فالتوقيفات التعسفية، والاعتقالات غير المبررة كانت تتساقط أكثر من المطر. أما أنا، فكنت أفكر أن الرئيس يراقبنا، من خلال صورته؛ لم يكن مجرد صورة محفورة على الكرتون، لا، فهو واقف هنا، حاضر بيننا؛ وعينه المطبوعتان تخفيان آلة كاميرا وأذناه تموهان أجهزة تنصّت، يتجسس صدّام على ما نفعل ونقول حول صورته، وهو يعرف كل شيء. وشأنني شأن كثير من التلامذة العراقيين، رحّتْ أنسب إلى صدّام حسين كل أشكال السلطة. إن ذلك لمنطقي؛ فلديه كل السلطات.

كان هناك رجال يختفون، من حين إلى آخر، وإن كان لهم أسرة، وزوجة وأطفال ووالدان. فجأة، يتوقفون عن إعطاء أية بادرة حياة: ثمة حلان بيرزان حينذاك: فيما أن يكون هؤلاء الرجال قد انخرطوا في المقاومة ضد صدام حسين، وإما سُجنوا وعُذبوا، ثم قُتلوا بسبب مقاومتهم له. لم يكن أحد يدرس الفرضيتين لأن هناك خطراً عظيماً في تقصي الحقيقة. إذًا، يُترك المختفون يختفون، ولا أحد يعرف إن كانوا قد اختبؤوا في جبال ما كان يُعرف قديماً بكرديستان، أو كانوا قد ذُوبوا بالحمض.

كنتُ أعتبر، وأنا طفل، أن ذلك التصرف وحشي، ومرعب، وطبيعي؛ وفق منطق ذهن فتي، فأرى طبيعياً كل ظاهرة أكتشفها، كما كنت متعلقاً بالوحوش التي ترعيني، ومستسلماً إلى القصص المخيفة، وقد غدّاني والذي بأساطير قديمة شأن حكاية جلجامش، فرحت أرى القدر على أنه تعسفيّ وأسود ومرعبٌ ولم أكن أتخيل الكون بدون صدام حسين وحكمه المطلق ونزواته وحقده وضغينته ومزاجه وعدم تسامحه وتقلباته المفاجئة؛ كان يشير شغفي؛ كنتُ أقدره بقدر ما كنتُ أخشاه. فالفارق الوحيد بين عالم الأساطير والواقع، يكمن في أن الغول كان يُدعى صدام حسين في هذه الدنيا وخارج الصفحات وبعيداً عن الممالك السحرية.

كان الله، بالنسبة إليّ، منافساً لصدام حسين، كونه منافسه المباشر، ولأنّ هناك الكثير من النقاط المشتركة بينهما، ولا فروق مطلقاً.



إننا مدينون له بالخشية، وبالاحترام أيضاً؛ الكبار يوجهون له بدورهم الشكاوى الخفية والشكر الرنان؛ ويجب تجنب معارضته باستمرار. وبالمناسبة، كنت أتردد، متسائلاً في حال اضطرت أن أختار، من أتبع: أتبع الله أم صدّام حسين؟ إلا أنه في مباراة النفوذ، ليست معطيات الله متعادلة مع نفوذ صدّام. ذلك، لأن الله نادراً ما يتدخل في حياتنا اليومية، لا سيما في بغداد... ثم لأنه يستغرق وقتاً أطول بكثير ليثار، عن الوقت الذي يستغرقه صدّام... ودون أن يُحرك ساكناً، يتحمل الشتائم، في حين يعاقب عليها صدّام قبل أن تُطلق. كانت تلك، بالنسبة إليّ، ميزة الله: فهو أقل حباً للدماء، وبارد الطبع، وليس حقوداً على الإطلاق. إنه يمتاز بالشroud، وربما بالنسيان... وقد أجازفُ بفرضية وهي: إذا كان الله يتأخر هكذا في أعماله الانتقامية، فهل يعني ذلك أنه صالح؟ لم أكن على يقين من ذلك، وإن كان شعور مستمر بالارتياح يرجح كفته. كنتُ أعتبر الله محباً، أكثر من صدّام، فهو يمتاز بالقدم، وإن كان صدّام، في مجال وجودي القصير، قد شغل الحيز كله. أخيراً، إنني أفضل رجال الله على رجال صدّام: فالأئمة الملتحون، ذوو الأجناف البنفسجية الذين كانوا يعلموننا القراءة في القرآن، ثم قراءة القرآن، يثيرون اهتماماً وعذوبة، وإنسانية لا يمكن مقارنتها بموقف البعثيين الأفظاظ، والموظفين المشتبه بهم والعمداء القساة والقضاة الشرسين ورجال الشرطة المتحيزين والجنود المتهورين، سرّيعي إطلاق الرصاص. أجل، إن الله، بلا شك، يحسن

اختيار جماعته بشكل أفضل من صدام. على كل حال، يبدو أن صدام ذاته يحترم الله. فأمام من ينحني؟

وبعيداً عن صدام الذي كان يرعيني، وعن الله الذي يربكني ويحيرني، كانت أسرتي تمُدني بالأمان وبالمغامرة؛ فمن جهة، كنت متيقناً بأنني محبوب؛ ومن جهة أخرى، كانت أربع أخوات، وأم تجاوزتها أحداث العصر، وأب غريب الأطوار يثيرون فضولي بشكل دائم. كان بيتنا يصخب بالهيجان وبالضحكات وبالآغاني وبالمكايد الزائفة وبالتعاقب الصادق وبصرخات تكتمها الممازحات؛ كان المال ينقصنا بشكل كبير، كما كان ينقصنا حسن التخطيط، حتى إن كل شيء يصبح مشكلة، كالأطعمة والنزهات والألعاب والدعوات؛ لكننا كنا نستمتع في مجابهة هذه الإحراجات، وقد يذهب بنا الأمر إلى أن نشدد على تلك العوائق، لأننا كنا نعشق، بحسب الطريقة الشرقية جداً، تعقيد ما هو بسيط، لأنه يضجرنا. وقد لا يخطئ مراقب خارجي إذا وصف آلية سير بيت سعد «بالهستيرية»، شرط أن يُدرج السعادة العظيمة التي تؤمنها الهستيريا.

كان والدي يساهم في تشويش تنظيمنا بطريقته في الكلام؛ فباعباره أميناً للمكتبة، وقارئاً ثاقب الذكاء، وعلامة، وحالماً، فقد استمد من الكتب هوس انتقاء اللغة الرفيعة؛ وعلى غرار الأدباء العرب الذين يعشقون الشعر، كان والدي يُفضل محاذاة اللغة من

علي، حيث يُسمّى الليل «برداء الظلام الذي ينهال على الكون»، أما الخبز فيُدعى «الزواج المحمص للطحين بالماء»، والحليب «بعسل الحيوانات المجترّة»، وروث البقرة «بكعكة البراري». وبالتالي، كان يسمي أباه «بصانع أيامي»، كما يسمي زوجته، والدتنا «بنبع الخصوبة» وأولاده «بلحم من لحمي، ودم من دمي، وعرق النجوم». وحالما ترعرعنا قليلاً، أنا وأخواتي، رحنا نتصرف كصبية سوقيين، في حين كان والدنا يصف أفعالنا بكلمات نادرة. كان يقول «إننا نتغذى» بدل القول: «إننا نأكل؛ و»إننا نسقي غبار الدروب» بدل القول: «إننا نبوّل؛ فإذا ما اختفينا في المراحيض، قال «إننا نلبي دعوة الطبيعة». إلا أن تلك الكنايات المزهرة لم تكن لتشكل رسائل واضحة؛ ولأن أبسط صيغه الإنشائية المعقدة لم تكن تصادف عند مستمعيه، إلا أفواهاً فاغرة من الدهشة، لاسيما عندنا، نحن ذريته، فكان رب أسرتنا الوقور سعد، يستاء، وهو يفور غضباً أمام كل هذا الجهل، يفقد صبره ويترجم فوراً فكرته بالتعبير الأكثر بذاءً وفضاظة، وهو يعتبر أنه إذا وجه حديثه إلى حمير، كلمهم على هذا الشكل. وهكذا كان يمر من تعبير «لا يهمني» إلى «إنني أستخف من كل ذلك»، ومن «كفى مراوغة لي، أيها العفريت المضحك» إلى «لا تهزأ مني، أيها النذل!». وبالفعل، كان والذي يجهل الكلمات المتداولة، فلا يعتمد إلا إلى المبالغات، وهو يعيش في مستوين للغة متباعدين إلى أقصى حد: اللغة الرفيعة، واللغة السوقية، وهو يقفز من الواحدة إلى الأخرى.

أذكر أنه حدث في يوم سبت من شهر كانون الثاني، وقد استيقظنا باكراً، لنذهب عند خال لنا يسكن بعيداً، حين سألني والدي وهو يحلق لحيته:

- إذاً، يا ولدي، شأن أوليس الإلهي، ترتعش أمام الفجر ذي أصابع الورد، أليس كذلك؟  
- عفواً، يا أبي؟

- ألن تتجمد مؤخرتك في الخامسة صباحاً؟  
النتيجة: كنت أعشق رفقة والدنا لأنه كان يعبر دائماً بطريقة مجازية.

لم أكن أشعر، بالنسبة إلى أمي، بأنني أطيعها؛ كنت أحبها حتى إنني أوافق على كل قرار تتخذه، وافقتُ عليه. كنا نشكل شخصاً بجسدين: كانت أمانيتها تصبح رغباتي وتنهدياتها تسيل دموعاً من عيني وفرحها يمدني بالنشوة.

كانت أخواتي يحترمن هذا التفاهم الفريد، بالرغم من دهشتهم منه. وبما أنني كنتُ الصبي الوحيد وبما أنهن كنَّ يُفكِّرن، هن أيضاً، بحياتهن المستقبلية بالقرب من ذكر وحيد، فإنهن يبررن مكانتي المميزة بالفارق الجنسي، ولا يغرن مني أو يحسدنني؛ بل، على العكس، كنَّ يتنافسن لنيل رضاي.

يُستنتج من ذلك أنني ترعرعت في الجنة، تلك الأرض الرائعة والمغلقة التي تسكنها نساء وفيات وأب غريب الأطوار ومضحك وإله

مسافر وطاغية توقفه مسافة محترمة من جدران منزلنا، أجل! كان هذا السكن يأوي سعادتي حتى الحادية عشرة من عمري.

وإذا كانت الطفولة تقبل معلمين مطلقي السلطة، فإن المراهقة تطردهم وتكرههم. وهكذا فإن وعيي السياسي قد نبت مع شعري.

ذات صباح، أوقف رجال الرئيس خالي نجيب، أخا أمي، فسُجن وعُذِّب مرة، ثم أعيد إلى السجن، وعُذِّب مرة ثانية ونُقل ثانية إلى قعر زنزانه، وهو يعاني الجوع وانتهى إلى رميه في الشارع بعد خمسة أسابيع من اعتقاله، وهو ضعيف ومعوق ومضرج بالدماء. كان هيكلًا من اللحم للكلاب الجائعة. ولحسن الحظ، تعرفت عليه جارة، فطردت الحيوانات وأعلمتنا بالأمر قبل فوات الأوان.

أغدقت والدتي وأخواتي، في البيت، عنايتهن المحبة على نجيب كي يشفى، لاسيما أنه فقد عيناً وأذناً. كان مصاباً بالحمى ويهذي، مع وابل من الكوابيس. راح نجيب يئن طوال أيام كثيرة قبل أن يسترجع مقدرته على الكلام. روى لنا ما حدث له. بدت قصته مقتضبة: شتمه الجبابرة، وبقي عطشان، محروماً من الطعام وضرب طوال ساعات، كما لم يكلفوا أنفسهم أن يشرحوا له ما هي تهمهم: «خائن!»، «جاسوس»، «خنزير لحساب أميركا»، «نذل تدفع له إسرائيل»، تلك هي الكلمات النادرة التي فهمها بين جلادات الحزام وركلات الأرجل وضربات المطرقة ذات المسامير. كانت الشتائم مألوفة عندنا. استشف نجيب أنهم يعتقدونه مذنباً، ولكن أي ذنب ارتكب؟ كان يتألم ألماً

عظيماً دفعه إلى أن يتوسل معذبيه كي يرشده. ويعدّهم بالتالي أن يعترف بكل ما يريدون، أجل، بكل شيء، لمجرد وقف الألم. عبثاً! كان نجيب يُخيب آمالهم، وكانت تلك الفكرة الوحيدة التي شعر بها وسط آلامه: كان تعذّبه مخيباً لآمال جلاديه.

رُمي من سجنه دون أية تفسيرات ترافق إطلاق سراحه شأن ما حدث حين اعتقاله.

كنا نعرف خالنا نجيب حق المعرفة، وهو الذي يطرز الأخفاف، ونعلم أنه لا يوجد أي خط من شخصه عرضة للشبهات، بما أنه ليس كردياً، ولا يهودياً، ولا شيعياً، وليس له أي ارتباط بإسرائيل، وليس بعاشق لأميركا، ومتجرداً من أية علاقة بإيران، لم يكن له أي ذنب؛ كان مذنباً فقط لأنه كان مشتبهاً به.

حينذاك، أصبحنا جميعاً مشتبهاً بنا...

على كل حال، ألم يكن عذاب الخال نجيب الأليم يُشكل مسعىً متعمداً ومنظماً ومنهجياً لجعل الهلع يسيطر؟ ففي نظر الرئيس المرتاب، بدا كل العراقيين مشبوهين، أجل، كلهم مشتبه بهم!

«إذا تأمرتم على صدام، نحن، رجال صدام، سنعلم بالأمر دائماً. ما أهمية أن نخطئ أحياناً، فمن الأفضل قتل بريء من ترك مذنب يزدهر. ومن له أذنان سامعتان، فليسمع. لم يبقَ أمامكم إلا أن تنبطحوا خاضعين وصامتين.»

قدّرتُ، وأنا في الحادية عشرة، مدى الظلم الذي يعيشه بلدي،

شحذَ ذلك إحساسي، وحفر التمرد في صدري مكاناً راح يتسع.  
حينذاك، قررتُ أنني، خلافاً للخال نجيب، سأمد رجال الرئيس،  
بأسباب شرعية ليشكوا بي، فإذا ما ضبطوني يوماً، وإذا ما أحرقوني  
بالأسلاك الكهربائية، وإذا ما طمروا رأسي في حوض الحمام حتى  
الغرق، فلن يُعذبوني عبثاً لأنني أكون فعلياً قد ناضلت ضدهم.

ذات يوم خميس، مرَّ والدي أمام غرفتي ولمحني، وقد انهمكت  
بتسديد ضربات من قبضتيّ على الجدران؛ كنتُ أؤدي مفاصلي أكثر  
مما أتلف الجدران، وقتالي لا يُفرق بين أعدائي، لكنني لم أكن أستطيع  
التوقف عن الضرب.

- يا لحمًا من لحمي، ودمًا من دمي، وعرق النجوم، ماذا تفعل

إذا؟

- إنني غاضب.

- على من أنت حانق؟

- صدام حسين.

- اغلق فمك. اتبعني.

أخذني من يدي وصحبني إلى خلوة رُتبت تحت المنزل. هناك،  
اكتشفتُ كنز والدي، وهي الكتب التي طُلبَ منه، منذ عدة سنوات،  
سحبها من المكتبة، فاحتفظ بها، بدل إرسالها إلى الوزارة لإتلافها  
وأودعها على رفوف كثيرة في قبونا، مخفية خلف بسط عتيقة.

كان هناك كثير من أنواع الكتب الممنوعة، فبعضها لأنها كردية

وبعض آخر لإباحيتها الأخلاقية وبعض الكتب لأنها مسيحية؛ فبطريقة مضحكة، كانت المؤلفات منضدة على طرفي نقيض - فمنها مواعظ دينية أو حكاية ماجنة - وكلها تخترق الخط الأحمر ذاته، في نظر الرقابة البعثية، ألا وهو التحريض، حتى إن المطران بوسويه والماركيز دو ساد قد تجاوزا، شقيقين في الخزي، وحُكم عليهما، متجاورين، بالشواء بالأسياخ، في جهنم. إلا أن ميزة تلك المطاردة للمؤلفات التي قادها الحزب، جعلت أبسط كتاب منشور يُمنع. وهذا ما أتاح لوالدي أن يحصل على مجموعة رائعة تنصدر فيها أفضل مؤلفات الأدب الأوروبي وكذلك كُتاب المقالات الفرنسيين والشعراء الإسبان والروائيين الروس والفلاسفة الألمان، كما استأثر رفان بقصص بوليسية لأغاتا كريستي بحجة أن العراق كان فيما مضى تحت السيطرة البريطانية، لذا وجب التخلص من أشهر روائية إنكليزية.

إن والدي، وقد أتاح لي الوصول إلى سره، أتم بذلك تعليمي، لا بل بداه. كان فخوراً ببلده وعاشقاً لتاريخه الغني الذي تجاوز آلاف السنين، يذكر نبوخذ نصر كأنه التقاه البارحة ويكره النظام الحالي وكان يشعر بحفاظه على تلك الكتب، بأنه يخلد، بالرغم من صدّام حسين الذي يعتبره غاصباً، التقليد العراقي والحضارة العلامية التي اخترعت الكتابة وأظهرت نهماً للثقافات الأجنبية. أطلق على مكتبته السرية «برج بابل الجيب»، مادامت تبدو له، وبشكل أبسط، أنها تكرر برج بابل



حيث كان يقصده فضوليو العالم قاطبة، من حجاج يتحدثون بلغات مختلفة.

منذ ذاك اليوم، أصبْتُ بحب القراءة، أو بتذوق الحرية - وهما سيان - وسخرتُ مراهقتي للتعرف إلى حشو الدماغ الإيديولوجي الذي كنا نكابده في المدرسة الثانوية، فساعدتني القراءة على حماية نفسي منه، ساعياً إلى أن أحسن التفكير بطريقة متميزة، ومن تلقاء ذاتي.

بعد زواج أخواتي، اكتشفتُ، في تلك الفترة، أنني لست بفتاة، وإن كنتُ قد نشأتُ بين نساء لأنَّ البنات لا يشغل تفكيرهنَّ سوى الزواج، فهو يشكل هوسهن: ألا وهو تخيلُ طالب الزواج المثالي، الذي عندما يحضر تبدأ الاستعدادات لإقامة العرس، بعدها يذهب بهن الأمر إلى مغادرة بيت الأسرة -، أجل، إلى هذه الدرجة - ليكرسن أنفسهن للزواج؛ وليس للزوج، لأن الرجل - على غرار الذكور - لا دور له إلا هذا الدور، فهو يعمل ويناقش وحول كأس من الشاي بالنعنع، يلتقي أصدقاءه الذين يلعبون بالنرد والدومينو، وكذلك الشطرنج. أجل، تلك حال الفتيات، ومن بينهن أخواتي اللواتي لم تفلتن من هذا العرف.

كانت والدتي تصرخ، والدموع تنساب على خديها قائلة: «الأسرة تتوسع»، وهذا يعني «فراغ المنزل». كانت تجهل، مع ذلك، إلى أي مدى كانت محقة، كما كانت أبعد من أن تشبه في أن مكتبتنا، «برج بابل الجيب»، بدأت تفرغ هي أيضاً، لأن والدي، وهو موظف بسيط،

راح يخاطر ببيع مجلدات ممنوعة كي يَمُول كل حفلة من حفلات الزواج.

وهكذا كسبْتُ صهرين - عزيز ورشيد - اللذين رزقا من أختي بثلاث بنات وصبي، حين أعلن صَدَّام حسين، في عام ١٩٩٠، الحرب على الكويت.

لم تخفق الحملة فقط، لكن أختيَّ الكبيرين قد اتسحتا بالسواد، فقد قُتِلَ زوجها في المعركة، فعادتا لتعيشا في البيت، بعد ترملهما، مع أطفالهما، وباع أبي بعض أثاث البيت مدعيًا أنه يعيد ترتيب المكان. حينذاك، ابتدأ الحصار الاقتصادي، كردع وانتقام من سياسة صَدَّام حسين العدوانية - وكم أيدتُ هذا الاتهام - وبالتالي قررت الأمم المتحدة وضع العراق تحت الحظر.

لست أدري إذا كان السياسيون الأثرياء، وذوو الكروش، والناقمون، هم الذين قد تصوروا، للحظة مثلنا، نحن العراقيين، كيف سنعاني تلك العقوبات؛ أشك في ذلك، وهذا هو العذر الوحيد الذي أراه لهم. كان هدف الحصار سحقَ صَدَّام حسين، لكنه لم يُثقل إلا علينا، نحن الشعب، ففقد الدينار قيمته أكثر من ألف مرة، وكنا نذهب لشراء حاجاتنا حاملين أكداً من العملة الورقية مخبأة في أكياس القمامة أو في حقائب من الكرتون؛ وماذا نشترى في الواقع؟ لم يكن ثمة شيء يُباع. عاد كثير من الساكنين في المدن ليعيشوا في الريف. فلولا الحزمة التي توزعها الحكومة شهرياً - من طحين وزيت للطبخ

وشاي وسكر- لمتنا جوعاً؛ فبفضل التقنين، اكتفينا بتحمل الوضع. في بغداد، كان الخوف يسيطر، ويتوسع. فبالإضافة إلى الخوف الوحيد من صدام، كان هناك الخوف من السرقة ليلاً، إن كان أحد يملك شيئاً ما، ولم يبادل بعد: كان سائق التاكسي ينام في سيارته، ومسدس تحت جنبه، خلف باب المرآب المغلق بالقفل، وكانت الأسر تقوم بجولات حراسة كي تتجنب سرقة كيس من الأرز، أو صندوق من البطاطا. أما الخوف الأشد حدة، فهو الذي يجول في أعماق كل نفس من أن تصاب بالمرض.

هذا ما حدث لأطفال أخواتي، وقد صدمن من موت أزواجهن، وربما بالتالي فسد حليبهن! أكان ينبعث منهن حزن وقلق يصيب أطفالهن بالعدوى؟ كان صغارهن يصابون بإنتان، ثم بإسهال متواصل. كنتُ أرافق، في كل مرة، الأم والرُضع إلى المستوصف حيث أعطانا الطبيب، في المرة الأولى، وصفة طبية تبين أنها غير كافية، وذلك بسبب عدم توافر الدواء الضروري. أما في المرة الثانية، فبالرغم من أن الطفلة كانت تبصق قطعاً من رثيتها أمامه، لكنه رفض معالجتها إذا لم ندفع له مالاً في الخفاء، حينذاك رهننت والدتي حلياً من زواجها، وبفضل ذلك، أنقذنا الطفلة. أما في المرة الثالثة، فلقد أعلن لنا أننا إذا أتينا له بذهب الأمراء على عربة، فإنه عاجز عن تأمين الأدوية الضرورية لأنها لا توجد في البلد، وبالتالي ماتت تلك البريئة. ذهبنا إليه، في المرة الرابعة، فكان يستند وحيداً، بمرفقيه إلى النافذة، في غرفة خالية، فقد

هجر المستوصف ورحل زملاؤه إلى الخارج، تاركين الممرضات اللواتي لم يعد في استطاعتهم دفع أجور مواصلاتهن للمجيء إلى عملهن؛ كان ينتظر مريضاً قد يرغب في شراء سماعته الطبية كي يطعم أسرته. مات الطفل أيضاً.

في عدة سنوات، فقدت بكر أخواتي زوجها في الحرب، ثم ابنتها، وابنها إثر الحصار الاقتصادي. كانت تعباً، بوجهها المحفور وبشرتها الكابية وبديها اليابستين ونظرتها المطفأة؛ فكانت تبدو، وهي في الخامسة والعشرين، امرأة عجوزاً.

إن كل عراقي عاش وصمد في تلك الفترة - مات الأطفال، في الواقع، قبل الآخرين - سيؤكد لهؤلاء السادة في الأمم المتحدة أن الحصار الاقتصادي هو أفضل طريقة لعقاب شعب هذه البؤس، وذلك بدعم قادته وتعزيزهم. إنه ملاط الألم! وإسمنت يُثبَّت الدكتاتوريات! فقبل الحصار الاقتصادي، لم تكن حقوق الإنسان محترمة في العراق؛ وخلال سنوات الحصار العشر، لم تُراعَ حقوق الإنسان أكثر مما كانت عليه من قبل، ولكن أضيف إليها استحالة التغذية وصعوبة العناية الطبية وازدياد شلل الأطفال وكثرة السرقات وتطور الفساد والرشوة. فحين أزال الحصار قدرة الطاغية المطلقة، وبالتالي مسؤوليته الكاملة، برأ صدّام بذلك؛ فإذا ما نقصت سلعة غذائية، كان ذلك بسبب الحصار؛ وإذا تأخر إصلاح شيء ما، فبسبب الحصار؛ وإذا توقفت أشغال عامة ضخمة، فبسبب الحصار. وبدلاً من أن يُضعف الحصار المستبد، كانت

نتيجته عكس ذلك: أصبح صدام حسين من جديد الرجل الذي أرسلته العناية الإلهية والملاذ العراقي الوحيد ضد البرابرة العدائين.

إلا أن السياسيين المتصلعين الذين حكموا على شعبنا بعذاب أكبر سيهرمون آمنين في بلدهم، وكلي ثقة بذلك، وقد كُلموا بالأمجاد، ونالوا الأوسمة عن عملهم الإنساني، متمتعين بنوم لا تورقه ذكرى الفظائع التي أحدثوها، والتي يجهلون بها.

خلال تلك الفترة، كانت تحضرني أحياناً فكرة الرحيل إلى أوروبا أو إلى الولايات المتحدة؛ لم أفكر في ذلك بشكل جدي، ولم تحفزني الرغبة، وأكاد أفكر بكسل، شأن من يتصور بشكل مجرد حلاً رياضياً، لأنني لاحظت أن الأسر التي رحل أحد أفرادها خارج الحدود تمتاز بوضع أفضل في مجابهة الحاجة: وإذا دُس دولاران في رسالة، فربما يُصححان مصيراً ما. فاتحتُ والدي بالأمر قائلاً له:

- ألا تعتقد أنني أنجح في الخارج بشكل أفضل؟ فكان ردّه:

- أن تنجح في أي شيء، يا ابني، يا لحمًا من لحمي، ودمًا من

دمي، ويا عرق النجوم؟

- أنجح في حياتي المهنية. فليس من المهم أن أصبح محامياً أو

طبيباً. ما رأيك في أن أهاجر؟

- يا ابني، هناك فئتان من المهاجرين: هؤلاء الذين يحملون متاعاً

كثيراً، والذين يرحلون بلا متاع. فإلى أية طبقة تنتمي؟

- م...م...

- يفكر الذين يحملون متاعاً كثيراً أنهم، حين يُغيرون مكانهم، يرتبون الأمور؛ في الواقع، لا تنتظم الأمور، بالنسبة إليهم على الإطلاق. لماذا؟ لأنَّ المشكلة تقبَعُ فيهم! فيحملون المشكلة ويطوفون بها في بلاد كثيرة ويجعلونها تستنشق الهواء النقي، دون أن يحلوا المشكلة أو يجابها. فهؤلاء المهاجرون يتحركون، لكنهم لا يتغيرون. وابتعادهم لا يُجدي نفعاً، لأنهم لا يفترقون؛ وهم يخفقون في حياتهم في الخارج كما أخفقوا بامتياز هنا. إنهم المهاجرون المخفقون، هؤلاء الذين يطوفون محملين بماضٍ يزن أطناناً كثيرة، صُنِعَ من اختياراتهم التي لمسوها عن بعد، ومن نقائصهم التي ينكرونها، ومن تقصيرهم المقنع.

- وماذا عن الآخرين؟

- إنهم يسافرون خفافاً لأنهم جاهزون ومرنون وسريعو التلاؤم، فيمكنهم بلوغ الكمال. هؤلاء يعرفون كيف يستفيدون من تعديل في المشهد. إنهم المهاجرون الجيدون.

- كيف نعرف إن كنا من المهاجرين الصالحين أم الرديئين؟  
- في عمرك، خمسة عشر عاماً، فذلك مبكر جداً.

كففت عن التحدث في هذا الموضوع، كما لم أعد أفكر فيه. فبين حصص دراسية راحت تقل وتندر - وحين لم يهرب أساتذتنا إلى الأردن، كنا ندرس، وقد حُرِّمنا من الدفاتر والأقلام، وجلسنا القرفصاء على الأرض، لنشترك، ونحن ثلاثون طالباً، بكتاب مدرسي وحيد -

رحتُ أبيع أوراق البخور على أبواب الوزارات كي آتي ببضعة دنائير،  
كما كنتُ شغوفاً بهموم بلدي ومشاكله.

كانت الشائعات تجري عن صحة صدام حسين. ذات يوم،  
شخّصوا أنه مصاب بالسرطان؛ بعد ستة أشهر، ادعوا أن جلطة قد  
صعقتة؛ ثم قيل إنه قد أصيب بجرثومة نادرة جداً أفقدته البصر؛ أخيراً،  
سمّره نرف دماغي في فراشه وجعله أخرس ومشلولاً، لكن صوراً  
حديثة، أو إطلاقات تلفزيونية جديدة كذّبت تلك الأخبار: كان قائد  
الشعب يزدهر، بشعره الفاحم، وبيطنه المشدود بحزام، وهو متنفخ  
ورائح، يجهل المجاعة. كان المقتنعون بسوء صحته يكابرون قائلين:  
«لا تكونوا ساذجين، فحزب البعث يقدم لنا قريناً له، إنه واحد من  
أقران الرئيس الكثيرين.» لم يكن الطغيان خدعة... فبالرغم من  
التكذيب، راحت الشائعات تعود، تتناقلها سرعة الكلام العربية،  
وتكوّن أوكسيجننا، شأن أشكال هاربة لكنها مشحونة بالأمل، أمل  
الخلاص منه. فكان مخترعوها ينخرطون في المقاومة، لكنها ليست  
مقاومة فعالة - لأنها في منتهى الخطر - وإنما مقاومة مُتخيلة؛ فكانوا  
يمركزون السرطانات بكثير من البداهة، وهم يسقطون الورم دائماً في  
منطقة استراتيجية لصدام حسين، أي واحدة من المناطق التي نتمنى  
اختفائها أولاً، وهي بلعومه، ثم دماغه، لكن سرطان الأمعاء الغليظة  
امتاز بتكرار الحديث عنه.

راح بعضهم يردد، أنه إذا لم ينجح أي مرض في القضاء على  
الدكتاتور، فربما ينجح الأمريكيون في ذلك، وهم الذين كانوا يتسلحون  
للهجوم عليه.

وإن لم يكن الأمريكيون مرضاً.

مهما يكن الأمر...

ولكن، لن نستبق الأحداث.



كان صدام حسين يُشيد قصوراً جديدة، بينما شعبه يموت جوعاً.  
كان يحب كذلك أن يبكي ويدخن السيجار، دون أن يعرف أحد  
إذا كان الدخان هو الذي يثير دموعه، أو تدخل عاطفة إنسانية.  
- يا لحمأ من لحمي، ودماً من دمي، ويا عرق النجوم، سعد ابني،  
ألاحظ أنه منذ نبوكد نصر، أنتج بلدنا كثيراً من الملوك المتسلطين،  
ومن الغزاة محبي الحروب الذين لا يباليون بحاجات المواطنين؛  
فصلاح الدين، وصدّام حسين أتيا ليضخما القائمة. حسناً، أظنُّ أنني  
وجدت سبب ذلك...

- ماذا؟

- بسبب أشجار النخيل.

- أشجار النخيل؟

- أشجار النخيل. فكل مشاكل العراق تأتي من أشجار النخيل.

- آه...

- لا بل أذهب أبعد من ذلك: إن أشجار النخيل هي أصل المشاكل

التي تُصيب العالم العربي.

- هل تسخر؟

- إننا نؤمن بالمعضلة السياسية، إلا أن المشكلة نباتية. فنحن نكد للوصول إلى الديموقراطية، وذلك بسبب أشجار النخيل.  
انتظرت أن يقرر والدي شرح فكرته؛ فأبسط حديث معه، يسلك اللف والدوران، وجب عليّ أن أقدر انتظار المفاجأة.  
- ليس من المستغرب أن يتشكل أول برلمان في التاريخ البشري

في

إزلندة، بالقرب من القطب الشمالي، في وادٍ صخري يغمره الثلج والجليد: لم يكن هناك أشجار نخيل! أتذكر ذلك؟ حدث ذلك في القرن التاسع عشر.

- أذكر ذلك كما لو حدث البارحة، يا أبي.

- كان بديهيّاً ألا يحدث ذلك، في أقاليمنا، وسط مناخاتنا.

- بسبب أشجار النخيل!

- بسبب أشجار النخيل، يا ولدي، يا لحمًا من لحمي، ويا ذا القائمتين العجيب الذي يُحسن قراءتي بشكل رائع. فعندنا، تُعطي أشجار النخيل المثال السيئ، كيف تنبت شجرة النخيل، في الواقع؟ فهي لا ترتفع نحو السماء إلا إذا قُطعت أجزاءها السفلية؛ وبهذا الثمن، تتسلق وتهيمن بعظمة، في السماء الزرقاء. فكل حاكم عربي يحسب نفسه شجرة نخيل؛ فلكي ينتصب وينمو، يقطع ذاته عن الشعب ويتجرد منه وبيتعد عنه. إن شجرة النخيل تشجع الاستبداد.

- حسناً. ولكن ما العمل؟ أنشتري مبيداً للأعشاب؟

ضحك وصب الشاي ثانية لكلينا.

في الغرفة المجاورة، كانت أخواتي، ووالدتي، بصخبهن وحماستهن لا يفقهن شيئاً من مناقشات الرجال، وهن يُحصرن زوجين جديدين.

- من نبوكد نصر، وصلاح الدين، وحسين... ينقصنا الوضعاء.

فمن فجر العراق، يمارس قادتنا عبادة العظمة.

- يا أبي، لا أرى أية عظمة عند صدام حسين!

- إنه الهذيان بجنون العظمة وبالشعور بالاضطهاد. في هذا

المجال، يتفوق علينا جميعاً.

فجأة، كأن والدي قد أصابته عدوى الشعور بالاضطهاد، فبدأ

قلقاً، وخفض صوته. وبعد نظرة شمولية سريعة في الغرفة المعتمة

حيث كان يتحدث، وحده معي، تابع قائلاً:

- لم يعد أحد يعرف أين يعيش ولا أين ينام؟ لشدة خوفه من

الاجتياالات.

تظهر أقران له أمام الناس. من قبل، كان يُثني المتمردين بالرعب،

أما الآن، فهو يشبّهم بأن يذوب في المشهد، فلا يتعرفون عليه.

قلت متتهداً: - أعرف ذلك، وقد أخفيت عنه أنني قد انضممت

في الجامعة إلى مجموعة من المقاومين في السر نطمح في كنفهم إلى

قتل صدام حسين.

- فبعد أن قتل أعداءه، قتل معارضيه، ثم أصدقاءه، ثم مساعديه؛ اقتصر محيطه، اليوم، على أسرته القريبة؛ أنتظر اللحظة التي بها سيصفيهم أيضاً.

- هذا هو التعليم الأساسي الذي ستركه لنا صدام: في أسوأ الظروف، يمكن دائماً القيام بأفضل ما يمكن! انفجرنا بالضحك، لأننا نضحك كثيراً في حكم الدكتاتورية، فالضحك يشكل العتاد للاستمرار في الحياة.

تابع والذي قائلاً وقد اكتسحت التجاعيد جبينه:

- هذا ما خرّب في هذا البلد: ألا وهو الثقة. ولأنه لا يثق بأحد، فقد أقام مجتمعاً على شاكلته، أي جماعة يخاف فيها كل فرد وكذلك يخشى كل إنسان الخيانة وحيث يُراقب المواطن وهو يُراقب جيرانه ويبقى قريبك شخصاً بعيداً عنك وخائناً وواشياً وعدواً مقتدرًا. هذا المريض بعقدة الاضطهاد قد أصابنا بالعدوى، فأصبح العراق أشد مرضاً منه. وإذا ما توقف ذلك، فهل سيكون في استطاعتنا أن نشفى؟

بدأ شبح الحرب يمتد على البلد.

منذ هجوم إرهابيين إسلاميين على الولايات المتحدة وقد دمروا برجين قُتل فيهما ثلاثة آلاف نسمة، رحنا، وأعيننا مرفوعة إلى السماء، نعد الأيام التي سبقت هجوم الجيش الأميركي. لم يكن هناك بالتأكيد، أية علاقة مباشرة للعراقيين في انهيار بنايتي نيويورك في أيلول من عام

٢٠٠١ لكننا أحسنا أن هذه الفضيحة قد سلّحت ذراع الرئيس بوش،  
فبعد أفغانستان، سيحول ذراعه نحونا.

كنتُ أتمنى ذلك، على العكس من رفاقي.

كنت أرى في الجيش الأميركي، خلافاً لرفاقي، محررين  
محتملين يحطون رحالهم عندنا.

وخلافاً لما يحسه رفاقي، فإنني لم أغذِ أية كراهية ضد الولايات  
المتحدة؛ فالمكتبة الأبوية، «برج بابل الجيب»، قد منعتني من أن أنمي  
هذه النقيصة.

خلال اجتماعاتنا السرية، في الصالة الخلفية لمقهى «ديليس»،  
كنتُ أُلزِمُ الصمت؛ لأنني أعرف أنه لا أحد من الطلاب يستطيع أن  
يفهمني. لم يساعدهم الحظ في الاستفادة من قراءات مختلفة. وبالرغم  
من إرادتهم في قتل صدّام حسين، فإن كراهيتهم للولايات المتحدة  
شكلت عنصرًا رئيسياً من ثقافتهم السياسية، ألا وهو عنصر الاحتجاج.  
ذلك أن الطاغية قد بسط حيلة رابحة: فبعد وصوله إلى القمة، لم  
يترك إلا إيديولوجية واحدة تنمو بحرية، وهي كراهية كل فكر أميركي؛  
لم يقمعها كما لم يشجعها. كان قد تخلى عن السيطرة عليها؛ فهي عبارة  
عن عظم يُرمى للشعب، الذي يستطيع أن يقضمه وفق هواه. ومن حين  
إلى حين، إذا كان ذلك يدعم غاياته، فإن الدكتاتور يُقنع العراقيين بأنه  
يشاركهم ضغينتهم: ففي الماضي، استغل كره الأميركيين ضد إيران

و ضد الإمارات العربية حين سنحت له الفرصة و ضد إسرائيل على الدوام. أما الآن، فإن بوش يهدده كما يهدد برنامج النوي، لذا سخر صدام هذه الكراهية لتضليل التحالفات ولإعطائه صبغة شرعية جديدة بالنسبة إلينا؛ وهكذا، كان له عدو مشترك مع أسوأ خصومه.

في الجامعة، شخص واحد قد لمحني، لا بل استشف موقفي خلف صمتي. إنها ليلي. كنت مستعداً أن أراهن على أنها تتبنى وجهة نظري.

كانت ليلي تفتنني. فهي تنحدر من أسرة مؤلفة من أربعة إخوة أكبر منها، فتقدم بذلك قريباً لي، أنا الذي أتيت بعد أربع بنات. كانت ليلي، وقد تدربت على رفقة الصبيان، انسلت إلى مجموعتنا بيسر ورشاقة، وحين لم تكن تحضر دروسها في القانون، تنضم إلينا في المقهى حيث كنا نكرس ساعات لنعيد بناء الحضارات.

كانت امرأة تدخن بمتعة.

وإن من رأى ليلي بسيجارة تنساب بين أصابعها، فتشمها بحركة سريعة تحت منخاريها المرتعشين، وتُقرب قداحة التبغ، بحدقتها اللتين تلمعان، وقد مدت رقبتها والانتظار يفترس وجهها، فتنتفخ شفتاها، وهي تهمس قائلة: «سترين، يا حسناي، كم ستعطين بمجرد اشتعالك»، أجل إن من رآها يدرك أنها تعرف ماذا يعني الموعد مع اللذة. هناك شرر وطققة. حتى الورق يتأوه فرحاً. بعد ذلك، تحمل ليلي السيجارة إلى فمها وتمتصها بقوة عازفة موسيقى، ثم تغمض جفניה وتحنى رقبتها إلى

الخلف، كأن السيجارة تخترقها؛ فبسبب تقلص ما، وبعض التشنجات - كان صدرها يرتفع، أما كتفاها فتستندان إلى الأريكة وتتباعداً ركبتهما، فيشعر المرء بأن جسدها كله ينادي الدخان، فتلقاه وتغبه، وهي راضية باجتياحه لها. فإذا ما فتحت عينيها ثانية، راحت رموشها ترف، بقزحية غير محدّدة النظر، فتوحي بمحظية، مرتعشة ومذهولة، بخديها اللذين اصطبغا باللون الأرجواني، فبرزت بعد ليلة غرام مع السلطان؛ وقد يُخيل لثانية، أنها خشيت ألا تكون قد لبست ثيابها من جديد. ثم تمر اليد التي بها السيجارة أمام الفم وتجذب شفاتها الشيء وتمسكه، فينبعث الدخان من حنجرتها ومن منخاريها، مرناً ومترخياً وهائماً، بلون أبيض رائع يتناقض مع اللحم الأسمر الذي يخرج منه.

طوال ساعات، كانت ليلي تشهق الدخان وتزفره، بانتظام، شأن أمواج المحيط على الشاطئ؛ وفي كل مناسبة، كان ذلك يبدو طيباً كأنه يحدث لأول مرة.

ففي فترات متقطعة، تبدو أنها تكتشف ثانية أنها هنا؛ فتركز حينئذٍ حدقة عينها المتوسعة علينا كي نلاحظ، بالرغم من المغامرة التي تعيشها مع تلك السيجارة، أنها تتابع حديثنا وتدعمنا وتطيب لها رفقنا. فإذا لم تكن تتحدث على الإطلاق، فإنها تستمع بعظمة. كان كل واحد منا يترقب الموافقة من عينها السمراء الدكناء. ما من شاب ينطلق في فكرة دون أن يبحث عن موافقتها؛ فإذا ما ارتجلنا أحياناً خطابات مؤثرة، فلكي ندهشها: فكان صمتها يشع ذكاءً أكثر من رنين كلماتنا.

كنا نحتاج إليها، نحتاج أن تكون هنا، بيننا، تحتل مركزاً أساسياً  
وبسيطاً شأن نواة ثمرة.

كنا كلنا نعشقها قليلاً، وهذا ما يستشفه الجميع. أما أنا فكنتُ  
واقِعاً في حبها.

كنتُ لا أبوح بولهي بها، خوفاً من الصد؛ فرحتُ أكتفي بنظرات  
ملتهبة، وبلمسات أيدينا المطولة. غالباً ما كنتُ أطلق تنهداً عظيماً  
وأنا أثبت نظري عليها؛ فكنتُ أشعر، من بريق حدقتها، أنها استلمت  
رسالتي.

ثمة رفيق لم يشاطرنني تكتمي، وهي التي أعلمتني بذلك، ذات  
مساء حيث كنتُ أرافقها حتى مدخل شارعها؛ ألقُت في وجهي الخبر  
متحفظة، من طرف شفيتها، شأن نبأ عادي.

- عرض بشير عليّ الزواج.

بقيتُ مُتسمراً في قارعة الطريق ثم صرختُ:

- متى؟

رفعت كفتيها، وقد فوجئت من رد فعلي، وفكرتُ قائلة:

- يوم الجمعة الماضي، في الساعة الحادية عشرة والدقيقة  
الثلاثين، صباحاً. أو ربما في الساعة الحادية عشرة والدقيقة الواحدة  
والثلاثين، وحتى الثلاثين والدقيقة الثانية والثلاثين... ربما الحادية  
عشرة والدقيقة الثالثة والثلاثين... أتريد أن يحدد لي الوقت بالضبط؟  
طأطأت رأسي، خجلاً.



- لماذا تقولين لي ذلك؟

ردت قائلة:

- معك حق، لماذا أقوله لك؟

ابتسمت لي، فأشحتُ بوجهي وأضفت، وذقني يرتجف:

- وماذا أنت فاعلة؟

- في رأيك؟

كنت أغلي غضباً. كانت تعارضني بسؤال جديد، أمام كل سؤال

أطرحه عليها، متمنية أن أكشف عن خوالج نفسي. كان الموقف حرجاً

جداً بالنسبة إلى شاب عاشق، بل يكاد يكون قاسياً.

- ليلي، هل أنت متلهفة للزواج؟

- لماذا؟ هل عندك حل ما؟

بدأت أدرك خطتها، لكنني لم أستطع أن أقتنع بأنها كانت تمد

يدها هكذا؛ رحّت أنهم ذاتي بأنني أغذي أوهاماً.

- متى ستعطيني جوابك؟

- يوم الجمعة صباحاً بلا شك، الساعة الحادية عشرة. إنه توقيت

ممتاز لهذا النوع من الأحداث، ليس كذلك؟

تظاهرت بأنني غارق في تأمل غيمة، فوق صورة عالية لصدام

حسين وقف فوقها ثلاثة طيور سود.

- وماذا سيكون جوابك؟

- هذا يتوقف على أمور كثيرة، يا سعد.

- على أي شيء؟

- يتوقف على تفكيري. وعلى عناصر أخرى ستساعدني في أن  
أأخذ قراراً.

- آه صحيح؟

- أجل. هذا يتوقف عليك، على سبيل المثال.

- يتوقف عليّ؟

- عليك. ما رأيك في ذلك؟

- في بشير؟ إنه مُعَقَّل!

ابتسمت، سعيدة!

- بشير، إنه واحد من أفضل أصدقائك، وهو مُعَقَّل؟

- مُعَقَّل تماماً.

- منذ متى؟

- منذ يوم الجمعة الأخير في الساعة الحادية عشرة والدقيقة

الثلاثين، أو الحادية عشرة والدقيقة الواحدة والثلاثين، وحتى الدقيقة

الثانية والثلاثين... اختلفت المصادر.

ضحكت بصراحة. كانت تقدر كلامي. لم أذهب من قبل بعيداً

هكذا في البوح بمشاعري. ألححت على طريقتي.

- يا لوقاحتته، هذا البشير! يعلن المتكتم ميله بخبث وهدوء، وراء

ظهرنا، دون أن يُعلمنا.

- لماذا؟ أكان عليه ان يرسل لك بطاقة دعوة؟

- إنه يعرف أن كثيرين منا... هم...

- هم ماذا؟

- مثله... يعشقونك.

راحت ترتعش.

ألححت قائلاً:

- ليس ذلك بموقف شريف. إنه يياغتنا.

- نحن؟

- نحن.

أحسستُ حرارة قوية حتى كاد أن يُغمى عليّ. فبالرغم من معرفتي  
ماذا يجب أن أقول، كنتُ عاجزاً عن ذلك. لا شيء يُجدي نفعاً. لم يكن  
الكلام يخرج من فمي.

انتظرتُ، ثم أدركت أنني لن أنجح في كسر تحفظي.

- وأنت، يا سعد، ماذا يتوجب لتتشجع فتبوح بحبك لامرأة؟

- تلزمني حرب!

صرختُ بذلك دون أن أفكر.

قلبتُ عنقها إلى الخلف، وقد انشرح صدرها، فراحت تستنشق

الهواء.

- ممتاز، لن تتأخر الحرب. أسعدتِ مساءً، يا سعد.

- أسعدتِ مساءً، يا ليلي.

لم أستطع النوم، في ذاك المساء؛ كما لم تستطع، هي أيضاً، أن تنام، وهذا ما أكده لي في اليوم التالي جفناها القاتمان.

بالتالي، لم نكن نتحدث أكثر من الأشهر السابقة؛ وبالمقابل كان بيننا من الآن فصاعداً سر يجعل الصمت مثقلاً بالرغبات وغنياً بآمال مستقبلية ومشدوداً كخيوط القوس قبل أن ينطلق السهم. كنا نتقاسم الصمت المفعم بالوعود.

بدأت الولايات المتحدة تهدد، من خلال صوت رئيسها بوش. حتى إن صدام حسين ذاته أحس الخطر، فلكي يتجنب المجابهة - أو ليؤجلها، سمح بدخول أرضنا لخبراء من الأمم المتحدة جاؤوا للتأكد من أن العراق لا يملك السلاح النووي. وفي نهاية تفتيشهم، كتبوا تقريراً. لكن بوش لم يُصدق نتيجتهم السلبية، كما لم نصدق نحن ذلك. كنا مقتنعين بأن صدام يملك السلاح الفائق؛ وإلا ما جدوى كل الآلام التي نعانيها؟ فإن ما يبرر هذه السلطة العظيمة التي نزرع تحت ثقلها والتي أبادت جزءاً من السكان، هو أنه قوي، الأقوى، بالضبط. كنا نتبادل، فيما بيننا، أنغاماً اتفقنا عليها: إن صدام يملك القبلة، ومن الأفضل إذا كان يُخفيها!

فإذا استثنينا ثلثة من المسالمين، وبعض الأمهات اللواتي يخشين على أبنائهن، كان الناس جميعاً يتمنون الحرب.

فبعد عشر سنوات من الحصار الاقتصادي، لم تعد بغداد أعوامي العشرين تُشبه بغداد طفولتي. كانت هناك دائماً الشوارع

العريضة، لكنها بقيت قفراً؛ قد تسير فيها أحياناً سيارات أجرة عتيقة، بسقوف رُصت عليها الفرش والأكياس، التي تحمل من الأردن المواد الغذائية المفقودة لدينا؛ فإذا استئينا بعض السيارات الحطام، فإن السيارات النادرة والجديرة بتسميتها سيارة تغامر في دخول المدينة والتي كانت مصفحة، لا يمكن أن يصيبها أذى ويملكها أسياد النظام. فالمستشفيات، التي كانت موضع فخر للعراق، أصبحت توحى بمراكب غارقة، بمصاعدها الصدئة ومعداتها العتيقة وقاعاتها القذرة وصيديلاتها الفارغة وطاقمها المؤلف من الأشباح.

كان من العسير أن نعمل، ليس بسبب الكهرباء وحدها التي تُقَطَّع ثماني ساعات في اليوم، بل لأن انخفاض قيمة النقد قد أضعف الأجور حتى إنها أمست هزيلة جداً. كنا نفاجئ أساتذتنا في الجامعة، في مفترق إحدى الطرق، وقد انهمكوا في بيع الصودا وعلب البسكويت؛ باع أهلنا بأبخس الأثمان كل الأشياء الثمينة التي يملكونها من حلي ولوحات وتُحف وكتب؛ فبعد بيع أثاث غرفة الاستقبال، لجأ بعضهم إلى بيع مجالي المطبخ والنوافذ والأبواب التي أتوا عليها كلها؛ أصبحنا نسكن بيوتاً باردة ومعتمة وعارية. لم تكن تستعمل أمي ماء الحنفية، الملوث بالمجاري غير الصالحة، دون تصفيته وغليه؛ وما عدا ذلك، كانت والدتي لا تخصص للطبخ إلا وقتاً قليلاً، وذلك بسبب نقص المواد الغذائية؛ وبالمقابل، كانت هي وأخواتي يمضين نهارهن لإيجاد اللفت، أو السلطة الهزيلة، أو فخذاً واهناً ندعي أنه فخذ «حمل»،

دون أدنى يقين إن كان فخذ قط أو كلب. وبسبب مطاردة الجردان، أو الحيوانات الأليفة، أصبح اجتياز شارعنا اختباراً للأنف، وذلك لأن كل زاوية منه تفيض بالبحث المُفرَّغَة، وبالهاكل التي هي عرضة للفساد، وبالجيف التي تضيف بعضاً من تفسخها إلى الرائحة الغامضة والعامّة، كما كان هناك مجارٍ ممتلئة ومحطات تنقية مهجورة وغير صالحة للاستعمال.

كان الناس يتمتمون قائلين: «فليطلق الأميركيون القنابل! لن تسوء الأمور أكثر مما نحن فيه، ليس ثمة ما نفقد. فسواء كان المرء مؤيداً لصدام أم معارضاً له، فليقم العراق بالقتال سواء انتصر أم انهزم، فالجميع متفقون على أن الحرب وحدها هي التي تضع حداً للحصار الاقتصادي».

فيما عدا ذلك، تضاربت الآراء.

كيف يمكن أن تكون الأمور غير ذلك؟ ونحن مختلفون. والأخطر من ذلك أيضاً هو: أن كل واحد منا يحمل في داخله كائنات كثيرة مختلفة.

فمن أنا في حد ذاتي؟ هل أنا عراقي؟ وعربي؟ ومسلم؟ وديموقراطي، وابن؟ وأب في المستقبل؟ ومفتون بالعدالة وبالحرية؟ وطالب في الجامعة؟ ومستقل؟ وعاشق؟ كل ذلك؛ إلا أن كل ذلك غير منسجم معاً. فالإنسان يستطيع أن يقدم أنغماً كثيرة وفق تركه لهذا الصوت أو ذاك يتحدث به، فأأيُّ صوت عليّ أن أفضله؟ فإذا اعتبرت

نفسى عراقياً أولاً، حينذاك وجب عليّ أن ندافع ضد المحتل الأميركي وأتعاقد مع صدام. وإذا نظرت إلى نفسى كديموقراطي، فمن الأفضل أن أتحالف مع الأميركيين وأطرح الطاغية. وإذا حددت موقفي كمسلم، فلن أتحمّل الكلمات ولا الأسلوب ولا الحملة الصليبية لبوش المسيحي ضد الإسلام. وإذا فضلتُ مثلي الأعلى في العدالة والحرية، وجب عليّ، على العكس، أن أقبل بوش كي يُحسن خنق صدام الطاغية والمُتَرَف. ومع ذلك، أليس على العربي الذي في داخلي أن يحذر من الغربي عديم الذمة الذي يطمع بأرضي أو بعصير أرضي الأسود، البترول، وبشكل خاص من هذا الغربي، أي الأميركي الذي يدافع عن إسرائيل بلا شرط، حتى حين تنقُض هذه الأخيرة التزاماتها نحو عرب فلسطين؟ وبمجرد أن أُعبرَ هكذا، أشكّل حينذاك جوقة موسيقية مؤلفة مني وحدي، لكنها جوقة بنبرات متنافرة وبآلات نشاز، وهي عبارة عن ضجة صاخبة.

لا شك، أنه في لحظة محددة، أمام مخاطب حقيقي، كنت أعرف أنني سأرضى بأن أكون محدثاً منفرداً: حينذاك، لا يتردد في داخلي إلاّ سعد واحد، فأبسُط الأمور، وأفضّل مثلاً سعد الديموقراطي... مع ذلك، إذا ما سجّل أحد خلال يوم أحاديثي المنفردة والمتتابعة، ثم مُرّرت في آن واحد، لسمعت من جديد الغوغائية. إنها سيمفونية متنافرة، وصخبٌ يعود إلى تصادم هوياتي.

أفضيت إلى والدي بتمزقي وبالصراعات في داخلي.

- يا أبي، كنتُ في الماضي ألوم نفسي لأنني غالباً ما أغير أفكارني؛  
أما اليوم، فإنني أدرك أنه لا مفر من ذلك.

- معك حق، يا ابني. فأصعب شيء في مناقشة ما، ليس الدفاع عن  
رأي، ولكن أن يكون لك رأي.

- ورأي واحد فقط!

- أجل، لأن هناك كثيراً من الأشخاص في أعماقنا جميعاً. والغبي  
فقط هو من يظن أنه الساكن الوحيد في بيته.

- وكيف يتصرف؟

- لقد أخرجت أجزاء كثيرة من ذاته، وأقفل عليها في خزانات.  
وبالتالي، فهو يتشدد بالكلام بوضوح، وبصوت منتظم.

- إنه يُحسد عليه، أليس كذلك؟

- يُحسد الغبي دائماً على غبائه.

أح الوالد كي أصب الشاي ثانية، ورحت أبذل جهداً لأسترجع  
هدونتي.

- أجل، يا ابني، إننا نتمنى أن نلقي خطاباً بسيطاً وحازماً ونهائياً.  
وقد يُقنعنا بتقديم الحقيقة على شكل شرائح. لكن كلما نمى الإنسان

ذكاءه، فقد هذا الطموح؛ فيكتشف حينذاك عقده، ويتحمل توتراته.

- أود ألا أناقض نفسي.

- لكننا هكذا نتعرف إلى الغبي، فهو لا يتناقض مطلقاً. لماذا

يسمّون البلهاء بالأجراس؟ لأن الجرس لا يعطي إلا نغماً واحداً.



- حسناً، إنني لست بجرس جيد. إنني جرس متصدع.

- يا ابني، لا يدق الجرس دقاً صحيحاً إلا حين يكون مكسوراً:

حينذاك يعطي أنغاماً كثيرة معاً.

في مقهى «ديليس» حيث كان الطلاب يتجابهون بشكل مباشر، كان الصخب يصل إلى ذروته، مما يوحي أن البلد سيدخل حرباً أهلية قبل أن يصل أول صاروخ أميركي، ذلك أن المشاعر المتضاربة في كل مناقشة تكاد تنتهي بالمجابهة الجسدية. كان السنّة متمسكين بخط صدّام حسين خوفاً من أن يفقدوا نفوذهم، أما الشيعة فلقد ظهروا أكثر تحفظاً؛ لكن بعضهم رفض مع ذلك الوقوع في التطرف الذي ينادي به الإسلاميون العنيفون، في حين كان بعض العراقيين المتهورين، المنادين علناً بالديموقراطية وبالتعددية، يستنكرون باسم الغائبين، من الأكراد والمسيحيين أو اليهود، منددين عنهم ما يعانیه الأكراد - هؤلاء الذين نجوا من المجازر، وعن المسيحيين الذين لم يرحلوا - أو عن العراقيين اليهود - فهل بقي واحد منهم؟

فسواء لأنني كنتُ غارقاً في تناقضاتي، أو لأتقرب من المرأة التي أحبها، أنضمّ إلى صمت ليلي. فإذا ما تحادثنا، فخارج المقهى حين أرافقها، ونادراً ما كنا نتحدث في السياسة. فبعد أن اعترفت لي أن أباه قد عُدّب وسُجن سنوات كثيرة لمجرد مجانسة - كان يحمل اسم أسرة شيعية شهيرة، معادية لصدّام حسين - طوت هذا الموضوع نهائياً. وبالمقابل، كان حديثها لا ينضب بمجرد أن تتطرق إلى حبها

للغة الإنكليزية التي تجيدها بشكل تام، واكتشفنا ميلاً مشتركاً لأغاثا كريستي.

أفضت لي قائلة:

- لا شيء يبعث في نفسي الهدوء والراحة بقدر قراءة رواية من رواياتها، فقراءتها مُطمئنة.

- مُطمئنة؟ إلا أن الصحف والمجلات تُسميها «ملكة الجريمة»!

- أي شيء أكثر طمأنينة من عالم لا يوجد فيه إلا جرائم عائلية، مرهفة، وقد أُخرجت بشكل فني، ونُفذت من مجرمين أذكياء يستعملون سموماً معقدة. بالنسبة إلينا، هنا، نحن الذين نعيش في عالم فظ ومتوحش تسيطر فيه القوة، كم هو لذيذ هذا الجو الغريب والساحر. - معك حق. بالإضافة إلى ذلك، فإن عُقد رواياتها لها بداية ونهاية وكل مشكلة تلاقي حلاً لها؛ فيعود السلام بعد توضيح الجريمة.

- هذا كل ما في الأمر! إنها تموجات موقته فوق سطح ماء ساكن... يا لها من جنة! كم أود أن أعيش في إنكلترا. حين أتقاعد، أصبح عجوزاً رائعة تحل ألغاز جرائم بين تحضير فطيرة بالتفاح وتقليم أزهار «الجيرانيوم» التي أعتني بها.

في آذار من عام ٢٠٠٣ حين شنَّ الأميركيون الحرب على العراق، كنتُ، بلا شك، أسعد رجل على وجه الأرض، لأن العاشق انتصر دون منازع. لقد أجرى مجزرة على الشخصيات المختلفة التي قد تتصرف في داخلي، فقتل العراقي والعربي والمسلم، ولم أفكر، خلال بضع

ساعات إلا بالإشارة التي أرسلها بوش إليّ: كان يوم الإشهارات:  
إشهار الحرب وإشهار الحب!

حين رأيت أن ليلى لم تذهب إلى الجامعة، هرعتُ إلى بيتها.  
وحالما صَفَرْتُ مرتين في أسفل بنايتها، ظهرت من نافذة الطابق  
الثالث، وقد صفت شعرها، وتجملت، بعينين رطبتين.

صرختُ قائلاً:

- ألا تأتين؟ يجب أن أكلّمك.

بمجرد وصولها إلى أسفل السلم، أخذتها بين ذراعيّ، وأصقتها  
بجدار البهو ورحت أتفحص بحرارة هذا الوجه المتكامل، والشفة  
المبرومة، والسن الصغيرة.

- ليلى، إنني أحبك.

- وأنا أيضاً.

- وأريد أن أتزوجك.

- أخيراً...

قَبَلْتها. فذاب فاهانا.

- ليلى، إنني أحبك.

- لقد قلت ذلك.

- إن الأمر في منتهى السهولة الآن.

- في الواقع، كانت الحرب هي التي تلزمك بالضبط.

- ليلى، أحبك.

- ردد ذلك على مسامعي حتى نهاية العالم.

حين عدت، في المساء، إلى بيتي، لا شك أن سعادة جريئة قد ارتسمت على وجهي. ارتاعت أخواتي وأمي من هذا الصراع الذي قد يحرمهن من رجالهن، فظنن أن نشوة القتال قد أصابتني عدواها ونظرنَ إليَّ، بعدوانية.

كان والدي أسرع الجميع في سؤالي.

- يا سعد، يا لحماً من لحمي، ويا دمأ من دمي، يبدو كأنك عائد من مكة.

- يا أبي، إنني عاشق.

انفجر ضاحكاً واستنفر النساء، وهو فرح، ليعلن لهن، قائلاً:

- إن سعداً عاشق.

سألت أخواتي بغبطة:

- من هي؟ هل نعرفها؟

- كلاً. تُدعى ليلي، وتدرس الحقوق معي في الجامعة.

- و...؟

راحت أخواتي يلقين عليَّ وابلاً من الأسئلة، إنهن يرغبنَ في

معرفة المزيد، ويتمنينَ، بشكل خاص، أن يعرفنَ كيف يصف رجل عاشق المرأة التي يحبها.

- هيا، يا سعد، اروي لنا متى وقعت في الحب؟ ولماذا؟

أجبت بنشوة:

- لو ترونها وهي تُدخن...

استمر ضحك الأسرة متواصلًا حتى المساء؛ كانت والدتي، وقد قلقت من فكرة تركي لها من أجل امرأة غريبة، استسلمت لتلك الغبطة؛ أما أختي التي تكبرني مباشرة، فقد أطلقت علينا، أنا وليلي حوالى منتصف الليل تسمية «المشعل ورجل الإطفاء».

إنني أجزؤ على كتابة ذلك، ولست مبالياً إذا كرهني الناس: بالنسبة إليّ، لم يكن ثمة شيء أكثر إثارة من تلك الحرب على الإطلاق! فبينما كانت الفرق الأميركية تتقدم لحصار بغداد، وبالرغم من الحواجز ومنع التجوال، كنا نلتقي، أنا وليلي، مرات كثيرة في اليوم، فترتمي في أحضان بعضنا، وتبادل القبلات، ونحترق شوقاً، وكل واحد منا يضغط على الآخر حتى يكاد أن يسحقه، ونجد صعوبات متزايدة كي لا نتبادل الغرام. كان علينا أن نضبط أنفسنا، بسبب ديننا، وبسبب أسرتنا؛ حين كنا في ذروة شهوتنا، وقد راحت ليلي ترجوني ألا أتخلى عن وعدي كبرهان على حبي لها، وقد كدت أنسى هذا الوعد؛ وحين كانت هي التي ترجوني أن أستسلم لها، كنت أهمس في أذنها قائلاً: «لا أريد أن تلومني زوجتي لأنني لم أحترمها وهي شابة.» فحين يصبح الأمر فوق طاقتنا، كنا نفترق، بعنف، وغضب، فنضطر إلى أن نسير مسرعين، طويلاً، كل واحد من جهته، كي نهدأ. ففي بغداد المشتعلة، وبسبب المعارك والقصف وصفارات الإنذار التي تطلق موجات طويلة من الهلع، كنا نهتزُّ شأن سمكتين من أسماك القرش أثارتهما الدماء، كان

جسدانا يغليان بحياة غير محتشمة. ربما خططت الطبيعة ذلك؟ ربما في حكمتها الحيوانية، قد زلقت الشهوة خلف الخوف وكذلك الشهوة المتقدة والمنتصبه التي يزيداها الخطر عشرة أضعاف وكذلك التوتر الذي يصعب كفته فهو يؤمن انتصار الجنس على الموت؟ بمجمل القول، كانت الحرب أكثر إثارة للجنس من الدكتاتورية.

بعد عدة أيام من المعارك، اكتسحت الدبابات الأميركية العاصمة حيث سيطر شعور بالهزيمة. واعتبر غالبية البغداديين أنهم قد هُزموا؛ حتى هؤلاء الذين كانوا مغتبطين من إطاحة صدام رأوا أنه من المهين عدم استطاعتهم وحدهم الإطاحة به، وأنهم احتاجوا إلى هؤلاء الأميركيين المكروهين؛ بالإضافة إلى ذلك، فإن الخسائر البشرية أضحت ثقيلة.

لكن الوعود الأميركية راحت تنهال، شأن المؤمن، وكان الجمهور يرغب في أن ينسى وأن يبتهج، حتى إنهم، يوم أطاحوا تمثال صدام حسين، في ساحة الفردوس، كنا كثيرين نبكي ونصرخ صادقين فرحاً. فمع ثلاثين طناً من البرونز سقطت أرضاً، كانت ثلاثون سنة من الرصاص تعض التراب. انتهى الطغيان. وسيكون لنا الحق، أنا ورفاقي، في مستقبل حر وديموقراطي وبدون تعسف أو استبداد. كان قلبي يقفز فرحاً في صدري. صرختُ حتى بُح صوتي من الصراخ، وهتفتُ بكل الشعارات المقترحة على حناجرنا الفتية والمتحمسة. فبالرغم من وجود القوات البحرية الأميركية المبالغ فيها، وكذلك

الصحفيين الأجانب، كنا نتأخى جميعاً. يا إلهي، كم كنتُ مستعجلاً  
لللقاء ليلي لأروي لها الحدث!

في الساعة الثامنة مساءً، بعد أن قبّلت أشخاصاً أكثر مما قبّلت في  
حياة كاملة، وراحتاي تدميان من كثرة ضربات العصا لصور الطاغية،  
وأنا أبكي من السعادة على كثير من الأكتاف المجهولة، تركت هذه  
الغبطة بأسف واتجهت نحو حي ليلي.

حين اقتربت من شارعها، أدركتُ فوراً ماذا حدث.

فبدلاً من بنايتها، فُغرت فسحة خاوية، تراكم فيها التراب  
والدخان الأسود. كان البناء قد أصيب بقذيفة من صاروخ. لم يبقَ إلا  
أحجار متفرقة، وكتل من الإسمنت بورق مرسوم بهت لونه وجبس  
ترابي وعوارض ملتوية تمد أيديها الشوهاء نحو السماء.

- ليلي!

ركضت على الأنقاض وصرخت اسمها بما بقي لي من صوت.

- ليلي!

انقضت على المتسكعين، وقد تمزق بلعومي من الصراخ، وأنا  
أجوب المخازن المجاورة، ودخلتُ البنايات الملاصقة.

- ليلي!

لم أجدها في أي مكان.

عدت إلى الخرائب، وقد اتنابني الهلع، فاقتلعتُ المجرفة من يد

أحد العاملين في الإنقاذ.

- ليلي!

رَنَّ صوت في ظهري قائلاً:

- ماتت ليلي، يا سيدي.

حين استدرتُ، تعرفتُ على الحارس المُقعد، بشاربه الفضي،  
والذي رأني، مئة مرة، أصحَبُ ليلي إلى بيتها.

- إبراهيم؟

- نعم، يا سيدي سعد. كنتُ في المقهى المقابل حين حدث كل  
ذلك. وكما تعرفُ، تسكن ليلي مع أهلها الطابق الثالث. هناك نفذت  
القذيفة، فاشتعل هذا الطابق، وكان الأول في الانهيار.

- هل أنت... أنت متأكد من ذلك؟

- إنني آسف، يا سيدي، آسف.

طأطأ رأسه، وقد هدَّه الحزن.

كانت تُسمع، في الشوارع القريبة، أصوات البهجة والموسيقى  
والمفرقات التي تحتفل بسقوط صدّام بتمثاله البرونزي. كان الغسق،  
ببطئه وألوانه الذهبية، يحمل هواءً ندياً من الجبال، وبغداد، السعيدة،  
تستعد للرقص طوال الليل.



- كيف أبكيها ولم أرها ميتة؟  
كان والدي، وهو يسعل سعالاً خفيفاً من الضيق والانزعاج،  
يحاول أن يسيطر على انفعاله، قبل أن يجيئني. تابعتُ قولي:  
- إنني أشد برودة من الحجر. لا أشعر ولا أفكرُ ولم أعد أرغب  
في شيء.

- اشرب قليلاً من الشاي.

أخذتُ الكأس بيد متراخية، كي أسايره.  
لم يكن البيت يرن بأية ضجة؛ كنتُ أعرف هذا السكون المُفتَعَل؛  
من المنطقي أن تكون أُمي وأخواتي قد اختبأن في الغرفة المجاورة،  
بأنفاسهن المكتومة وبآذانهن الملتصقة بالحاجز، وهنّ يأملن أن يتفوه  
والدي بالكلمات الملائمة. فمئذ ثلاثة أسابيع - أي منذ موت ليلي - وأنا  
في شقتنا، أعاني وهنأ، دون أن أُلْفِظ أكثر من نصف جملة في اليوم،  
وكذلك كنت ضحية خمول وبلادة أفقدتا أسرتي صوابها. كانت مهمة  
والدي أن يعزيني ويقويني، وأنا متربع أمامه، على سجادتنا الوحيدة.

بعد ستة وعشرين يوماً من القتال، أعلن الرئيس بوش انتصاره،  
في صباح أول أيار من عام ٢٠٠٣. أما رئيسنا، صدام حسين الرهيب،  
فلم يرُد، شأن جرد اختبأ في قبو؛ وكان هذا الصمت وحده دليلاً على  
انتصار بوش. توقفت المعارك الرسمية. أراد جيش الغزاة من الآن  
فصاعداً أن ينظر إليه كجيش من المحررين والمنقذين. كنا في أسرتي،  
مستعدين لمنحهم تلك الثقة.

- انتهت الحرب، يا ابني.

- وكذلك سعادتني، يا أبي.

ربت كتفي، وهو عاجز عن الإجابة، وقد اضطرب لاكتشافه  
مشاعر تتفق مع مشاعري على هذا النحو.

- إنك شاب.

صرخت بعنف:

- وماذا يعني ذلك؟ ألا يتألم الإنسان حين يكون شاباً؟

- بلى. إلا أن المستقبل لا يزال أمامك؛ تستطيع الحياة أن تتغلب

على هذا الألم. لن ترى ليلى على الإطلاق لكنك ستلتقي نساء  
أخريات.

- إذاً هكذا كما يقول المثل: « تفقد واحدة، فتجد عشرًا!»، هل

أنت مقتنع بما تقول؟

- كلاً، ولا لثانية واحدة... إلا أن... فلنر... لستُ مع ذلك مخطئاً

حين أوكد لك أن عقوداً تنتظرك. قارن ذلك مع رجل في مثل عمري

على سبيل المثال؛ بالنسبة إليّ، إذا توفيت والدتك، فلن يعود لديّ وقت لكي...

- أنت تكون قد عشتَ معها ثلاثين عاماً!

- سامحني. أرغم نفسي على إيجاد أفكار معزية. في الحقيقة، أنا منهار تماماً، حتى إنني عاجز في هذا الوضع عن اصطياذ فكرة. حينئذٍ، شأن أي أبله، أكرر تفاهات سمعتها ألف مرة وأنا آمل أن... آه، سامحني، يا سعد، سامحني! في الواقع، إنني متألم عنك، ولا أعرف ما أقوله لك، يا ابني.

دون أن يشك في ذلك، لقد لفظ أخيراً الكلمات الصائبة: التجأْتُ إليه، وجفناي ينملان، وخبأتُ رأسي في جنبه، وأجهشت بالبكاء طويلاً، وبطيئاً، وأنا جامد شأن جسد يدمي.

قطع دويّ هذا السلام، فاندفعتِ النساء المذعورات داخل الغرفة.

- عاد القصف ثانية!

كانت أمي ترتجف.

قفزتُ على ساقبيّ، وانحنيت على النافذة وشممت الهواء المحيط

بي.

- أعتقد أن ما يحدث يقع على بعد مئة متر من هنا. لن تصيبنا

القنابل. لا تقلقي، يا أمي.

- أنت على صواب، يا سعد! ابني يموت حزناً، فخطيبته قد

تحولت إلى رماد والبلد يغوص في الفوضى والقنابل تنفجر دون أن نعرف من أين تأتي، يجب على المرء أن يسكر كل مساء كي ينام لأن المدينة أصبحت صاخبة كثيراً، لكن ذلك يلائمني، يجب عليّ ألا أقلق! لا أحد من الناس يستطيع أن ينكر سخطه وغضبه: فمنذ أن انتهت المجابهة وفق الخطة المرسومة لها، أخذ الوضع يزداد سوءاً. فبعد حرب الأقاليم، أعقبتها الحرب الأهلية. لم يستغرق الأمر أكثر من عدة أسابيع حتى أصبح الناس جميعاً يخاصمون بعضهم بعضاً؛ وكما استشفه والدي، لن يبرأ العراق بدون صدام حسين، وبقي البلد مصاباً بعقدة الاضطهاد، والمرضى راح يستفحل، مضاعفاً فتكه.

فالسنة الذين كانوا يسيطرون على المجتمع في عهد صدام، وقفوا ضد الحظوة التي نالها أهل الشيعة، والذين كانوا أقلية، فراحوا يرتقون، منطقياً، مدعومين من قوى الاحتلال، إلى مناصب استراتيجية. قُسمت بغداد إلى مناطق شيعية، ومناطق سنية، ومناطق أميركية، فأصبحت المناطق كلها فسحة من عدم الأمان حيث يتواصل الناس بالرصاص أو بالمتفجرات، وقد استوحوا تصرفاتهم من مناهج «القاعدة» الإرهابية وراحت الهجمات الانتحارية تتضاعف. لا يمضي يوم ولا ليلة بدون خوف لأن كل عمل قد أصبح خطراً: فالذهاب إلى السوق يُعرض لقنابل بشرية وركوب الباص يُعرض للسيارات المفخخة واجتياز الشارع يعرض لرصاصات طائشة والعودة إلى البيت واللجوء خلف جدرانها لا يخمي من رمي القذائف.

كنتُ متحفظاً من التورط في تلك الصراعات، مستغرقاً في حزني. وبالإضافة إلى عدم خروجي من البيت، ودروسي المعلقة، وتجنبي مفهَى «ديليس»، كانتُ أفكاري تتخبط في البلبلة؛ لم يكن عندي إلا انطباع واضح وهو عدم جدوى العمل، لذلك علينا دائماً أن نعاني ونتحمل.

ذات صباح، وأنا أغتسل، لاحظت ثلاث نقاط قاتمة تحت قدمي، أريتها فوراً لوالدي.

- إنها ثآليل يا ابني.

- لم أصب بها يوماً!

- غالباً ما تظهر الثآليل، إذا ما رافقنا ميتاً إلى قبره.

- هل يأتي ذلك من التواييت؟ أم من الجثث؟

- كلا.

- على كل حال، لم أرافق أحداً إلى القبر...

- إنها صدمة عاطفية، يا ابني. سألجأ إلى استعارة لأوحي إليك أن

الثآليل تولد من الأحزان.

- نجحت بتفوق: بخمسة على خمسة! لقد أصبتُ بصدمة، ليس

كذلك؟

- إن الثآليل هي أزهار تُنبثها النفوس المعذبة على جلدها.

وقد أمسك رجلي بيد، وسوّى نظارتيه باليد الأخرى، فحص

أزهار الأقحوان الثلاث القاتمة.

- هناك طريقتان لإزالتها: إمّا أن تدهن جلدك بمستخلص مغلي من الليمون والخل الأبيض، وإما أن تسمي تلك التآليل.

- أختار العلاج رقم واحد. لا أرى كيف أسمى تآليلي...

- لكن الطريقة الثانية ناجعة أيضاً. أعرف صديقاً جرجرٌ ثؤلولة طوال عشرة أعوام. كانت قاسية، وعنيدة، ومقاومة، ولم يفلح في علاجها أي قشط، أو محلول. في اليوم الذي سمّاها فاطمة، اختفت.

- فاطمة؟

- فاطمة، والدته، وقد كانت امرأة شرسة ومرعبة، عانى منها أقسى العذاب دون أن يُقرّ بذلك في نفسه في الماضي. فبمجرد أن تطلق عنواناً صائباً على ثؤلولة، أي ذاك الذي يُفسر أصلها، تمحوها.

- هل حدث ذلك معك؟

- أجل.

احمرّ وجهه، وخفض صوته.

- لقد نمت عندي ثؤلولة خلال العامين الأولين من الزواج مع

أمك.

- هل وجدت اسماً لها؟

- نعم.

- وماذا كان؟

- سعد، يا لحمًا من لحمي، ودماً من دمي، ويا عرق النجوم، هل

تعدني بالحفاظ على السر؟

- أقسم برأسي.

- كانت تُدعى ثؤلولتي مريم. وهي شابة تمنيّت أن أتزوج بها. قبل أمك، تماماً.

- قبل؟

أصبح وجهه قانياً وتمتم وهو يُشبح بعينه قائلاً:

- تقريباً.

تلفتُ بوجهه ببسمة حانية ثم رحت أفكر: كيف تدعى ثأللي؟

- أبي، هل تحمل الثألليل دائماً أسماء نساء؟

- غالباً ما تحمل ثألليل الرجال أسماء نساء. لكنك لا تركز تفكيرك

على ذلك: هناك ثألليل تُدعى الندم، والأفيون، والويسكي المكثف.

كنتُ إذن أجزر ثلاث ثألليل، عمّ كانت تُعبّر؟ كنتُ في حيرة

من أمري، أهي آلام وهموم... أم سلام؟ وسعادة؟ وحرية؟ ومستقبل؟

وحب؟ وأطفال؟ ودراسة؟ وعمل؟ من الآن فصاعداً، كان كل شيء

يطرح مشكلة، بالنسبة إليّ. كان حزني الشديد يمنعني من أن أفكر

وأستبطن، فطلبت من والدتي أن تعد لي محلولاً بالخل والليمون.

كان في استطاعتنا أن نتأقلم مع الفوضى - لقد كنا معتادين

الدكتاتورية تماماً - أجل، حاولنا جهدنا أن نتحملها ونعيش فيها شرط

أن تبقىنا بمنأى عن المصائب، وإن كانت تقض مضاجعنا في حياتنا

اليومية. لكن الفوضى انقضت على أسرة سعد، في يوم من أيام تموز

من عام ٢٠٠٣.

كيف أروي المأساة؟ سأكتفي بنقل الأحداث، شأن محضر ضبط، أعرضه، بلا تأثر ولا انفعال، وفق نظام قاسٍ جرت بموجبه تلك الأحداث.

في منتصف صباح ذاك اليوم من ١٢ حزيران، من عام ٢٠٠٣، تقرر أن يذهب الرجال، أي أنا وأبي، إلى السوق، وهي رؤية تزداد جاذبية لأنها تتيح لنا لقاء زوجي أختي الصغرى في مكان عملهما. كان أحدهما يبيع التبغ، أما الآخر فيحرس مدخل دكان لأواني الطعام. جلسنا في سطح مقهى نتجاذب أطراف الحديث طوال ساعة من الزمن، ونحن نتمتع بالشمس، التي لم تكن حارقة كما ستصبح قريباً خلال الصيف لتصل إلى خمسين درجة.

- يا أبنائي، يا لسعادتنا ونحن رجال فيما بيننا حتى إننا نسينا المهمة التي أوكلتنا إياها النساء وهي: أن نملاً سلالنا. في تلك اللحظة، راح شخص يخترق الجمهور، بسرعة، وهو يدفع المارة.

صرختُ قائلاً:

- سارق آخر يهرب.

انتصب صهري، حارس المخزن بتوقد.

- أمل ألا يخرج من عند رب عملي!

قفز قلقاً، وسط الجمهور.

اقترح عليه صهري الثاني وهو يلحق به قائلاً:



ـ سأساعدك.

رأيناها يتقدمان نحو الهارب، الذي راح يتصرف بغرابة، أقرب إلى المجنون منه إلى السارق؛ لم تكن جولته تقتصر على الاتجاه مرة نحو اليمين، وأخرى نحو اليسار، بل لم تكن له جهة محددة، كما كان يضحك بملء شذقيه، ومقلتاه بالفتا الاحمرار، وهو يؤدي حركات غريبة تحت جلبابه الفضفاض.

فجأة، وقد أوشك صهراي أن يحاذياه، تسمر السارق، محدقاً إلى السماء، وقلب رأسه وأطلق زئيراً.  
ومض بريق أبيض، تلاه دوي. فانفجار.

اهتزت الأرض؛ وارتجفت الأعمدة التي استندنا إليها. وقع والدي بجانبني، وقد فقد توازنه، فأمسكت به قبل أن يصطدم رأسه بالأرض.

وبينما كنتُ أنهضه، استولى الهلع على الجمهور، فدوت صرخات من كل مكان. صرخاتٌ من وقع المفاجأة وصرخات فزع وصرخات ألم.  
لقد انفجرت قنبلة.

فالشخص الذي حسبناه سارقاً يهرب بسرعة، كان قنبلة بشرية، مناظلاً يحمل تحت جلبابه حزام متفجرات أفلت صاعقه في قلب السوق.

صرخ والدي بألم:

- صهراي!

صعدت على الطاولة محاولاً أن أرى المشهد. فحول النقطة التي فجر الإرهابي نفسه، كانت هناك عصيدة من اللحم والدم.

أشحتُ وجهي، بحركة عفوية قائلاً:

- لا أعرف.

- ماذا؟

- لا أعرف، يا أبي. فالمشهد رهيب.

- هيا ناتي بإسعافات!

هرولنا مسرعين، تاركين المقهى لنصل إلى شارع رئيسي أكثر فساحة.

قرر أبي قائلاً:

- اذهب إلى اليسار، هناك أحياناً سيارات إسعاف تقف أمام المقر. أما أنا، فسأخذ جهة اليمين، لأعلم الأميركيين.

وأسرع أبي نحو منظم جنود.

ماذا خطر في باله؟ ولماذا صرخ بالعربية وليس بالإنكليزية؟

لماذا لم يصغ إلى تهديداتهم حين طلبوا منه ألا يقترب؟

أعتقد أنه كان مضطرباً، وقلقاً يحرص على أن ينقذ حيوات؛ فلم يدرك أنه لا يحدثهم بلغتهم.

اندفع نحوهم وهو يصرخ، بصوت متهدج، خنقه الانفعال، فاتحاً

ذراعيه عالياً في الهواء، بعينين جاحظتين. كان يلهث بقوة حتى إنه لم

يسمع نداءاتهم تأمره بالوقوف؛ أراد أن يتصرف بسرعة منعه من أن يرى القوات الأميركية تصوب بنادقها عليه؛ كان في منتهى القلق على الجرحى حتى إنه لم يتخيل تهديداً من هؤلاء التكساسيين التائهين في بغداد التي فقدت صوابها، والذين هالهم دوي الانفجار، فراحوا يخشون في كل ثانية انتحارياً جديداً. إذن، هرول نحوهم وهو يجهل التحذيرات، والإنذارات.

هذا ما جرى. آلمني أن استشفيت ما كان سيحدث ولقد حدث. دوت الطلقات. ركض أبي بضع خطوات. ثم انهار. كأنه قد دُهِش.

ومات على الفور. لقد صُرع دون أن يفهم شيئاً. أما أنا، فكان طعم الدماء في فمي. أردت أن أصرخ، وأن أنقض على الجنود، وأن أستمهم، وأثار للقتل، لكن واحداً منهم قد أدرك خطأه، فأشار إلى من هو أصغر منه بالوقوف قرب الجسد، وقاد الجنود المشاة، دون أن يلتفت، نحو الساحة حيث، قبل عدة دقائق، وقع الانفجار. اقتصر مصرع أبي على اعتباره هفوة...

لن أروي ما جرى بالتالي، أي صعوبة استعادة الجثة، وإغماء والدتي، واكتشاف صهريّ - أو ما تبقى منهما - ودموع أخواتي. أما أنا، فلم تكن عندي دموع، لقد حبستها في احتياطي أفرغه حين أتمم مهامتي، وحين أكون قد قمت بالإجراءات الرسمية، وأجريت

الواجبات اللازمة للموتى، ورتبت غسلهم المأتمى، ودفنت عظامهم في التراب.

عرضنا الأجساد الثلاثة في البيت. جاء أهل الحي جميعاً لتقديم احترامهم لوالدي شأنه شأن قديس. هنا، أمام كل هذا الورع، والحنان، والمحبة الصادقة نحو الإنسان الذي أحببته أكثر ما أحببت في العالم، شعرت بصعوبة كبيرة كي أضبط أعصابي ولا أنهار، لا سيما حين يأتي التكريم من مجهولين؛ رغبتُ، في مرات كثيرة، أن أعود إلى الطفل الذي كتته بين ذراعيه، ذاك الطفل الذي كان يظن والده أنه لا يعرف كيف يواسيه، وكم كان يُحسن مواساته.

بعد ثلاثة أيام من رحيل والدي، في الفجر، في الساعة التي كنا نتناقش فيها، بشكل تقليدي، في غرفة الحمام، جنباً إلى جنب، ونحن نغتسل، رحتُ أنشِفَ رجليَّ كما علّمني والدي، وأنا أرش عليهما بودرة «التلك» حين ظهر لي شبحة. جلس على الكرسي الصغير، وتنهّد، وابتسم لي وهو ينظر إليّ أنهى عنايتي بجسمي.

- إذأ، يا ابني، كيف حال أزهار همومك؟

- يا أبي، تحدث بوضوح.

- تأليلك، أيها الأبله!

- إنها دائماً في مكانها، أعالجها بالمحاليل...

همس:

- طبعاً، وبدا كمن يعرف النهاية، لكنه لا يريد أن يفصح عنها.

تنهد من جديد قائلاً:

- يا ابني، هل أنت متأكد من أن الأميركيين هم الذين أطلقوا النار عليّ؟ ألم يكن ثمة إرهابيون قد انتصبوا في كمين، في الخلف، من أنصار صدام حسين؟

- كلاً، يا أبي. إنهم الأميركيون.

- إنك مخطئ. أرى أن البعثيين كانوا قابعين على اليمين، في الشارع المؤدي إلى دكان السمّان، تحت إفريز صفيحة التوتياء، وكانوا يوشكون أن يصوبوا على الأميركيين. فتلقيتُ الرصاصات مكانهم.

- هكذا إذًا؟

- أجل، في الواقع، لقد أنقذتُ حياتهم، لهؤلاء الأميركيين.

- كلاً، يا أبي، لقد قتلتك الرصاصات الأميركية. إنه خطأ، خطأ

مأسوي، هم الذين قتلوك.

- حقاً؟ أليدك البرهان؟

- أجل. لقد رأيت كل شيء.

- آه...

- ثم، ماذا يُغيّر في الأمر، سواءً أكانت رصاصة أميركية، أو عراقية،

أو شيعية، أو سنية، أو رصاصة طائشة؟ فأنت ميت.

- كلاً، فليس الأمران سيان. إنني آسف. لقد قُتلتُ من محررينا.

وهذا قاسٍ، كفكرة. لاسيما بالنسبة إليّ لأنني لم أكن يوماً أكره

الأميركيين، يجب عليّ أن أعتاد تلك الفكرة. ستقول لي، لديّ الوقت...  
ثم اختفى.

كان بودي أن أقول له: إننا نحن أيضاً، علينا أن نعتاد، أجل، أن نعتاد غيابه الذي دمرنا، وأن نعتاد أن نفقد ثقتنا بمحورينا.

بالمقابل، كنتُ راضياً لأنه لم يسألني أكثر من ذلك عن لحظاته الأخيرة لأنه لو فعل، لكنّ اعترفت له بما حدث لي خلال المشهد. لست أدري بأية معجزة من تبادل الخواطر أو من التقمص الشعوري، خلال تلك الثواني القليلة، استبصرت أبي بعيون الأميركيين الخائفين؛ أجل، لم أتابع المشهد من وجهة نظري الشخصية فقط، باعتباري الابن، لكنني تابعتها كذلك من وجهة نظر الجنود الأميركيين. ماذا لمحووا؟ رجلاً عربياً فجأة ينقض عليهم، وهو يهتز بطريقة مشوشة، ويصرخ بتلك اللغة الفظة، والمتقطعة، والرنانة التي لا يفهمونها! إنه عربيّ! عربيّ قدر! عربيّ غريب الأطوار! عربيّ مرعبٌ لا يمكن أن يؤمنَ جانبه، تحت طائلة الانفجار معه! إنه واحد من هؤلاء العرب الشنيعين الذين يجب رشهم قبل التفكير في ذلك! إنه واحد من العرب المتحمسين حيث علينا أن نبقي عندهم أبداً كي نطيع الرئيس بوش، ونقيم الديمقراطية، ونضخ البترول! إنه واحد من هؤلاء العرب الأرزال الذين يُصرون على التحدث بالعربية، وعلى التفكير بالعربية، وعلى صنع أطفال عرب، وعلى العيش في الأراضي العربية! اللعنة على العربي: والدي!

كانت أمي توحى بأنها تسيطر على الأحداث. ولم تكن تشكو، وهي تجفف دموعها، فتجابه الوضع الجديد، وتعيد تنظيم وجودنا في البيت.

راحت من الآن فصاعداً تتصرف، كأُم أكثر من تصرفها كزوجة - فمن الواضح أن الزوجة قد ماتت في اليوم ذاته لموت والدي. وأخواتي كنَّ يرافقنها بصعوبة، شأن من يمشي في نومه، وهن يتابعن رحلة الحياة على ظهر سفينة شبحية. كنَّ مسافرات وحيدات، كلهن أرامل، بدون مال، يحملن أطفالهن بين أذرعهنَّ.

حللت مكان أبي، وسعيت إلى تلبية حاجاتنا، وقد أصبحتُ رب الأسرة.

تخلّيت عن فكرة إكمال دروسي كي أتدارك الأمور المستعجلة: من إيجاد عمل، وتفريغ صناديق، وتنظيف مطابخ، وحراسة المخازن ليلاً، أي عمل متوافر.

لم نعد نتحدث عن المستقبل فيما بيننا، وذلك باتفاق صامت. وقد اجتهدنا للاستمرار في البقاء، فاكتفينا باليوم وبالغد صباحاً كأفق وحيد لنا.

حدث، ذات مساء، أن اقتربت والدي مني وأنا مستلقٍ على حصيرتي، خائر القوى، ومرضوض الكليتين من التعب، وانطلقت قائلة لي:

- يا ابني، أريد أن ترحل. هنا، صارت الحياة جحيماً.  
 كان وجهها من شدة ما غسلته المآسي قد أضحى قناعاً هادئاً،  
 خالياً من التعبير، ولم يعد يهزه أي انفعال.  
 - يا أمي، إذا أقمت في الجحيم مع أخواتي، فسأبقى فيها  
 معك.

- أعتقد، يا سعد، أنك في الخارج تكون أكثر نفعاً لنا. هنا،  
 المستقبل لا مستقبل له. إذا رحلت إلى مكان آخر، فستعمل بشكل  
 أفضل وبجهد أقل، وتصبح غنياً، وترسل لنا دولارات.

وقد استدرت نحو الجدار، قابلتها بكتفي وبصمتي: لم يكن ذلك  
 موضع بحث، حتى إنني رفضت النظر في هذا الحل.

خلال تلك الأشهر الهشة، كانت سلمى، الأكثر حيوية بين بنات  
 أخواتي، ترافقني إلى كل عمل جديد أشغله، وقد كُلفت بأن تعرفَ  
 مكاني في كل ساعة من ساعات النهار، كانت تقوم برحلاتها المكوكية  
 بين الشقة وبينني، وهي تُعلم مجموعة النساء، وتطمئنهن عن مصيري،  
 مؤكدة أنني أكلتُ السَّلْطَةَ كلها، التي أحضرتها لي، وتعلن لهن عن  
 ساعة عودتي.

تعلقتُ بتلك الصغيرة بطريقة غير منتظرة، لأنها كانت تلحق  
 بي في كل مكان، بابتسامتها المشرقة، وتطيب رفقتي لها. ألم تكن  
 تمثّل الكائن البشري الوحيد الذي كنتُ أمضي معه - عدة ثوانٍ - في  
 الضحك، والدردشة، والمزاح؟



حدث ذات مرة، وقد سررت من رؤيتها بعد مهمة منهكة، أن دعوتها دون أن أفكر «بخطيبي الصغيرة». احمرّ وجه الصغيرة احمراراً شديداً، وقد تأثرت في أعماق وجدانها، حتى إنني أشفقت على تلك الفتية البكر التي لم تعرف أباهما على الإطلاق، فاعتدت أن أصرخ دائماً «لكن ها هي خطيبي الصغيرة!» بمجرد أن تظهر، فرحة وبشوشة، على باب عنبر أو مستودع.

أحياناً، كنت أوبخ أمي.

- عليك ألا ترسلي سلمى كساعية عبر المدينة! إن ذلك في منتهى الخطر! يمكن أن يحاصرها متعصبون، وقد تصاب بشظية قبله، أو تتلقى رصاصة طائشة، أي شيء كان. إنني أقلق...

- إذن، يا سعد، عليك أن تقدر كم نحن، أنا وأخواتك، قلقات عليك! إن سلمى تطمئننا عدة مرات في اليوم. فلولاها، لتخيلنا في كل ساعة أنك ميت. إنها ملاك يحمينا جميعاً.

- سلمى تحمينا لكننا لا نحميها.

- ألم تعد ترغب في رؤيتها؟

- لم أقل ذلك مطلقاً. كل ما في الأمر، هو أنني أقلق.

فخوفاً من أن أحرّم من سلمى، لم أكن أستمر في محاكمتي، ولا في غضبي. وهكذا، كانت البنية الرائعة تأتي مرات كثيرة في اليوم لتنير الأماكن المظلمة، والقذرة والتنتنة، حيث كنتُ أكسب بشق النفس عدة دنائير.

إن الكائن البشري، كي يُريح ضميره، يتخيل أسوأ الأمور، وهذا ما يُلهيه عن فتح عينيه على الواقع الذي يطرأ: لقد ارتكبتُ تلك الغلطة، وسأحمل وزر الندم عليها طوال حياتي.

لم تكن سلمى ضحية تلك الاضطرابات السياسية في بغداد؛ جرحها مسمار بكل بساطة. حين أرنتي فخذها الذي خُديش، كانت تضحك هي نفسها من طيشها. اشتد ضحكها حين رحت أقوم بالألعاب سحرية على جرحها وأدعي أنني ساحر أتمتع بقدرات خارقة ثم حين أستطيع أن أبدد الألم بقبلة رنانة على جلدها الناعم.

لم يعر أحد اهتماماً بأعراضها الأولى، لأننا كنا جميعاً نعاني سوء التغذية، وقلقين، ومنهكين، ولسنا في صحة جيدة. بالإضافة إلى ذلك، كانت الطفلة تتمتع ببهجة بالغة وبنشاط كبير، حتى إنها كانت تنظر بازدراء إلى الإثنان الذي يراح يسري في جسمها.

فحين ضعفت واضطرت إلى ملازمة الفراش، ظننا أنها مصابة بالزكام، وفي أسوأ الحالات بنزلة وافدة. اكتفينا بأن أعطيناها الحليب الساخن وقد أغنيناها بصفار البيض، كما وصفتُ لها بعض قشور نباتات جبلية تجدد القوى. رحنا نطمئن أنفسنا بتفاؤل جميل وجبان.

ذات صباح، بلونها الضارب إلى الخضرة، وبالحمى المرتفعة شككنا بإثنان عام يفترسها.

تقرر أن أذهب إلى عملي بينما تأتي أخواتي بطيب، وتطرق والدتي أبواب الجيران لتجمع بعض المال لمعالجتها.

لسوء الحظ، في نهاية اليوم، لم تستطع والدتي أن تجمع إلا مبلغاً زهيداً، كما أن أخواتي لم يعثرن على طبيبٍ واحدٍ لا يزال يمارس الطب: ففي فوضى ما بعد الحرب، هاجر الأطباء القلائل الباقون من القطاع الخاص في بغداد، إلى الأردن، وإلى لبنان أو إلى سوريا. لم يعثرن إلا على عنوان واحد، هو عنوان الدكتور بن سعيد، في الأحياء الفخمة، لكنه وجب وضع كفالة بخمسين دولاراً عند البواب، ليسمح لنا دخول عيادته. كان هذا الشرط مستحيلًا بالنسبة إلى أسرة فقيرة. حين اكتشفتُ خطورة الوضع، إثر عودتي، مساءً، وأنا منهكٌ، أعلنتُ قائلاً:

- سأهتم بذلك بنفسي.

لفتت سلمى بغطاء، وضممتها إلى صدري، وذهبت في شوارع بغداد بحثاً عن مستشفى مفتوح. وجدت مستشفيات فاعرة، لأنها خالية، ولم تعد مجهزة. وصلتُ أخيراً إلى مستوصف يعمل حيث استقبلني طبيبان شابان. شحب وجهاهما حين فحصا سلمى. قال لي بإنسانية:

- سيدي، إن وضعها خطر جداً، يجب إدخالها المستشفى بأقصى سرعة. ليس عندنا هنا أسرة ولا أدوية. اذهب إلى الجهة الأميركية. إنه الحل الوحيد. عليك ألا تتردد، وألاً تُضيع ثانية واحدة. شرح لي أين أذهب. يقع المكان على بعد كيلومترات كثيرة. فإذا ذهبتُ ماشياً،

فسأسير ساعات كثيرة؛ وإذا ركبتُ سيارة، فلن يبقى لي مال بعد دفع الأجرة.

قررت المجازفة بكل ما لديّ: ناديتُ سيارة أجرة وجلست فيها باسترخاء، وسلمى ترتجف على صدري. كانت السيارة المتمايلة تزار في الشوارع العريضة والمُقفرة، وتوقفت على بعد مئة مترٍ من المكان. نبهني السائق قائلاً:

- قف، لن أذهب أبعد من ذلك. يخاف الأميركيون من العرب، ومن كل سيارة تحوم. لا تعتمد عليّ، فإن زناد بنادقهم في منتهى العصبية.

ترجلت، وتقدمت نحو الحاجز، منهكاً - نمت ثلاث ساعات في الليلة الفائتة، واشتغلت أربع عشرة ساعة متواصلة، وكنتُ أموت قلقاً على سلمى.

فكرت بوالدي، وأنا أتقدم. يجب عليّ ألا أتصرف مثله تحديداً، وألاً أفزعهم، وألاً أركض، وألاً أقوم بحركات مباغته، وألاً أتكلم العربية.

حين وصلت إلى مئة مترٍ من الجواز، وجه العساكر كشاف نور باتجاهي، زعقوا بشيء ما فيما بينهم، وأمروني أن أعود أدراجي. توقفت.

ظهر أربعة رجال، لإقناعي بالرجوع، وأمسكوا أسلحتهم، وكرروا أمرهم لي بالرحيل.

- لا أريدُ أي أذى لكم. أتيتُ مع طفلة لأنني بحاجة إليكم. أريد أن يراها أطباؤكم. لقد أرسلني إلى هنا أهل المستوصف. أرجوكم: إنها قضية حياة أو موت.

تحدثتُ إليهم بلغة إنكليزية راقية، وقد استفدتُ من دراستي الجامعية، وأنا عارف أنني سأفاجئهم بإجادتي قواعد اللغة وحسن اللفظ.

بدلاً من أن يطمئنوا، أثار هذا الكمال قلقهم. نظر بعضهم إلى بعض بشيء من الريبة، ثم نظروا إليَّ شأن كائن مشبوه. كررتُ عدة مرات قصتي، وأنا أتوسل إليهم أن يثقوا بحسن نيتي. هكذا، تقدمت في مساعي.

فجأة، صرخ أحدهم قائلاً:

- حذار، معه قبلة في يديه. انتبهوا!  
سمعت، فوراً، طقطقة الأسلحة.

- كلاً، لا تطلقوا! ليست بقنبلة، إنها ابنة أختي. ابنة أختي!

- ضع الحزمة على الأرض. ضع الحزمة على الأرض، قف، ويداك مرفوعتان عالياً.

- هذا ليس حزمة، إنها فتاة صغيرة.

- ضع الحزمة. ضع بسرعة الحزمة وإلا أطلقت النار!

كان التوتر العصبي قد جعلهم سريعِي الغضب. رأيت اللحظة

التي سيرشوننا بها برصاصهم، أنا وسلمى، كما صرعوا والدي، فسواء بسبب الخوف، أو الحذر- وما الفرق؟

على أرض الشارع المزفتة، وضعت سلمى برفق، وهي تكتوي بالحمى، منهكة، وثقيلة، وكانت نائمة في تلك اللحظة.

تراجعت خمس خطوات، وأنا أطيعُ بالتالي أوامرهم.

اقتربوا من الكومة المشبوهة، وقد صوبوا أسلحتهم، قلقين، وحذرين، ومستعدين لإطلاق النار.

لا تصوبوا على ابنة أختي، أرجوكم، وأنا أتوسل إليهم بأعصاب منهارة.

كنت أفكر، وقد شددت فكيّ حتى أدميا، وأنا أقول في نفسي:

« شرط ألا تتحرك، وألا تتأوه، وألا تراهم، وأن تبقى غير واعية

بما يحدث، هذا المساء، حولها.»

انحنى أحدهم، وهو الأشد بطولة من الفرقة، أبعد الغطاء بحذر، بفوهة بندقيته وكشف عن وجه سلمى.

صرخ بالواقفين خلف الحاجز:

- إنها طفلة!

هل سيتوقف أخيراً هذا الكابوس؟

أجاب القائد، وقد التجأ خلف الحاجز.

- تحقق بالكاشف!

ماذا؟ ماذا أصابهم الآن؟ جاء أحد الجنود ممسكاً بيديه نوعاً من شراقة فولاذية هزّها فوقها.

- إنها لا ترن! إنها سليمة!

هنا، لم أستطع الامتناع عن تصحيح تلك الكلمات.

- كلاً، ليست سليمة! إنها ابنة أختي وهي مريضة! أرجوك، إني بحاجة إلى أطبائكم.

مضت برهة من الحيرة والتردد.

فهموا ما كنت أشرحه لهم منذ عشرين دقيقة، بعد أن تخلّصوا من هلعهم. أعدت القصة كلها بلهجتي البليغة.  
صمتوا.

انتهى القائد إلى القول، بشيء من الأسف:

- تأكدوا منه، هو أيضاً.

اقتربوا مني وهم يأمروني بالألّا أتحرك، وفحصوني بكشافة المعادن، ثم باليد من جديد.

- هذا جيد!

- حسناً، دعوه يدخل.

انحنيت على سلمى، وأخذتها ثانية بين ذراعيّ، وقبّلتُ صدغيها الملتهين، وهمست لها بالعربية:

- سترين، يا خطيبي الصغيرة، سننجح في مسعانا.

لم يبدُ منها أي رد فعل. هل سمعتني؟

رافقنا رجال إلى الأرض المحددة الأميركية. لا يخال المرء نفسه في بغداد: كانت مدينة مختلفة داخل العاصمة المدمرة، فهي مدينة حديثة، وكاملة، ومنورة، تزينها الينابيع والحدائق المزهرة. كانت تنساب من بعض النوافذ موسيقى حالمة من كامانات رخيصة ومقرزة، ومن نافذة أخرى، كانت فرقة موسيقية تعزف «الروكن رول». كنت أسكن حياً خرباً ولا أشتغل إلا في مناطق خطيرة، لذا لم أكن أتصور أن ما أراه ممكن على الإطلاق.

لم تعد سلمى من الآن فصاعداً تتحرك. هل كان ذلك بسبب المصابيح المنتشرة على طريقنا إلى المستشفى، بدا لي أن جلدها قد اتخذ لوناً غريباً؛ لكنها ما زالت تتنفس، كنت متأكداً من ذلك. في قسم الطوارئ، استقبلنا طبيب عسكري، وأشار إلى الجنود بالالتحاق بمواقعهم، وأمرني أن أضع سلمى على سرير مغطى بشرشف من الورق. تركته يفحصها؛ حين خرجت منه حسرة، فلكي أخدع قلقي وأذكره أنني أتكلم الإنكليزية، سألته برفق:

- إذن، حضرة الطبيب، ما بها؟

استدار نحوي، وبدا فجأة قد اكتشف وجودي.

- إثنان دموي منتشر في كل الجسم، أيها الشاب. وضعها خطر

جداً.

- هل ستشفى؟



تفحص عينيّ وهو يلفظ ببطء، هذه الكلمات:  
- سأعطيها إبرة، كي يطمئن ضميري ونحن نعلم أننا بذلنا قصارى  
جهدنا، لكن يجب ألا نتوهم: فات الوقت، أيها الشاب.  
انهرت على كرسي، دون أن أنبس بينت شفة.  
اهتم عدة لحظات بسلمى ثم أمسكني من كتفي.  
- ابقيا كلاكما في الغرفة المجاورة. ضع الطفلة على السرير،  
وخذ أنت الأريكة. سأبقى في الجوار.  
بعد أن أقمنا في الغرفة، أغلق الباب بحذر.  
لم أطعهُ: لم أترك سلمى على الفراش، لكنني أبقيتها ملتصقة بي،  
على صدري، وأنا أصلي إلى الله كي ينجيها.  
قبيل الصباح بالضبط، شعرت بتعب هائل، فقررت أن أغمض  
جفنيّ بضع ثوان.  
في الفجر، حين استيقظتُ، كانت خطيبتي الصغيرة، مسجاة،  
ميتة، بين ذراعيّ.  
- لقد تجاوز الحد، هذه المرة، يا سعد، لن أبكي.  
لم تحرك والدتي ساكناً.  
بعد أن أعدت سلمى إلى أختي، اكتسبت أومي تقاطيع قاسية، لا  
تم عن الألم، وبرودة جمّدت أوصالي أكثر من أي شيء آخر.  
كانت تراقبني بحدة.

- سعد، لا أريد أن تتوقف حياتك قبل موتك بزمان. إلا أن ذلك هو ما يجري هنا.

- لا شك أن الحياة قاسية، ولكن...

- ربما تلك إشارة من الله بأن لم يعد لك امرأة على ذوقك هنا: وهذا يعني أن عليك أن تهتم بأسرتك. لم يبق وقت تضييعه. فإذا أردت أن تساعدنا، عليك أن تهاجر.  
- ولكن...

- لا تناقش: عليك أن ترحل.

- لستم بحاجة إليّ هنا؟

- لكنّ ركضت بساقيّ كما فعلت من مستشفى إلى آخر. كان المال هو الذي ينقصنا. لو كان معنا دولارات، لاستطعنا أن ندخل عيادة الدكتور بن سعيد، ونحصل على مضادات حيوية. لا أريد أن أعيش ذلك مرة أخرى بعد اليوم. يا ابني، لن أتوسل إليك، لكنني أطلبه منك: هاجر. إنك شاب، يقظ، وذكي، وقوي. ستعمل في الخارج وترسل لنا ما تدخر. ليس هناك أحد سواك لإنقاذنا.

- وأتركنّ وحدك؟ أتعتقدين أن والدي كان سيوافق؟

نظرت إليّ، وبدت مترددة، ثم نظرت لحظة خلفها لتتأكد من أن بناتها لن يسمعنها.

- تناقشت معه في هذا الموضوع، وهو موافق.

- متى؟

- أمس مساءً.

حنت جبينها، وهي تخشى ردة فعلي. هل كانت تظن أنني سأعتبرها مجنونة؟ شجعته على الفور قائلاً:

- آه، لستُ أنا الوحيد الذي أراه! أنت ترينه أيضاً؟

رفعت رأسها وراقبني بنظرة قاسية، كما لو تفوهتُ بسخافات.

- طبعاً، يا سعد، إنني أراه، كل مساء بعد أن أتناول شرابي الساخن.

ابتدأ بالظهور في اليوم الثالث لوفاته.

- ثلاثة أيام، أنتِ أيضاً...

- ثلاثة أيام.

- ماذا فعل خلال تلك الأيام الثلاثة؟

- لست أدري. تعود مسألة كونه ميتاً على ما أظن، أو أنه بحث

عن الطريق المؤدية إلى هنا. إنه متكتم جداً في هذا الخصوص. ومعك أيضاً؟

- معي أيضاً.

- بمجمل القول، لقد برز في مساء اليوم الثالث، وأستطيع أن أقول

لك إنني لم أستقبله بالتحيات، لا بل وبخته بسخاء بسبب الرصاصة الطائشة التي قتلته.

لزمنا الصمت، وقد حرص كل واحد منا على التكتم على أحاديثنا

مع شبح أبي.

اختبأ هذا القسم الحميمي منا في مفرق شخصيتنا وذكرياتنا.

قبلتها.

- أشكرك يا أمي، على ثققتك. سأرحل.

- إلى أين ستذهب؟

- خطرت ليلي على بالي فأجبت، دون أن أفكر:

- إلى إنكلترا.

٤

كيف يمكن قطع آلاف الكيلومترات حين لا نملك ديناراً واحداً؟  
في ذاك الصباح، وقد استحال على الغيوم أن تمنع الشمس من  
البزوغ، راحت تدفعها بمزاج عكر، وتعارضها بجمود رصاصي، تاركة  
خيطاً قدراً ورمادياً يرشح ، ويفتقر إلى النور بقدر افتقاره إلى الظل.  
ومن غرفة حمّامي، من الكوة، لمحت السطوح الكئيبة، والشرفات التي  
تطفح بالحزم، والغسيل، والفرش، شأن الأقبية.

لم يكن ثمة أي طائر قط. كان صوت المؤذن وحده يقطع هذا  
الخمود، وقد اتسع بسبب مكبرات صوت الجامع التي تخنن بنبرته  
المكتومة.

كيف السبيل لقطع آلاف الكيلومترات حين لا أملك ديناراً  
واحداً؟

أنهيت حلاقتي بصابون لحي عتيق، الذي يتيح لي، بفضل عطر  
الصندل المختلط بالأرز، أن أتخيل نفسي في رفقة والدي، ثم بدأت  
الاعتناء برجلي.

كيف يمكن قطع آلاف الكيلومترات حين لا أملك ديناراً واحداً؟

- تعمل في البيع، يا ابني.

- آه، أنت هنا؟

جلس والدي، كعادته على الكرسي الخشبي الصغير والقصير،  
بقميصه الملتصق بجسمه وبنظاله المخصص للنوم.

- أجل، يا لحمأ من لحمي، ودماً من دمي، إنني هنا معك، وأسعى

لأخفف همومك. في الواقع، ما حال ثأليك؟

- لم تتحسن.

- إنك تحيرني! هل أنت مصمم فعلاً على الرحيل؟

- إنك على علم...

- أرى أن قرارك بلا ترو. كن واثقاً من نفسك، فالمشاكل ستُحل

تدرجاً.

- تعم الفوضى، يا أبي!

- هيا، إنها عابرة.

- كلاً، يا أبي، إنك واهم. يمكن أن تستمر، ولن تكون الحال

أفضل غداً، بل قد تتفاقم أكثر فأكثر... إذاً، حين لم نعد ننتظر أي تقدم

أو تحسن، وجب الرحيل.

- مم، أرى محاكمتك للأمور: لن تتحسن الحال غداً، لكن

الوضع سيكون أفضل في مكان آخر.

- هكذا.

- إذا لخصتُ الفرق بيننا، يا ابني، فأنا متفائل يقول «غداً»، وأنت متفائل يقول «هناك». فتفاؤلك منتشر في المكان، أما أنا فقد ثبته في الزمان.

- لا تنتقص من قيمة المسافة بين موقفي وموقفك. إن تفاؤلك الراسخ يعني القدرية.

- وإن تفاؤلك الرحّال يعني الجبن والهروب.

- وعلى عكس ما تؤكد أُمِّي، فأنت لا تشجع هذا القرار.

بدا مُحَرَجاً، فتنحنج قائلاً:

- في البدء، كنتُ أفضل أن تبقى هنا، ولكن...همم... أنت تعرف أنه لا يمكن مناقشة أمك طويلاً... ينتهي بها الأمر دائماً إلى أن توقعك في الفخ، وأن تقطعك من أولى أفكارك، وتحشرك في آرائها.

- غالباً ما تساءلت، يا أبي، إن لم تكن ضعيفاً.

- حسناً، أسأل نفسك، الآن، إن لم تكن قد صرتَ ضعيفاً.

تلقيت جوابه شأن لكمة صاعدة إلى ذقني. فقبل أن يوجه لي تلك الضربة، لم ألحظ أنني أدون فصلاً جديداً من رواية قديمة يدّعي فيها الرجال أنهم أحرارٌ ومستقلون لكنهم ينفذون رغبات النساء اللواتي يدرن شؤون أسرهنّ. فلكي أخفي حرجي، حولت الحديث إلى هموم عملية.

- إن بطاقة من بغداد إلى لندن، لا يمكن البحث فيها: أولاً تلك

البطاقة لم يعد لها وجود؛ ثم إنني لن أحصل على تأشيرة دخول -

ليس عندي جواز سفر؛ أخيراً لم أجمع المبلغ، لا للسفر ولا للإقامة في لندن. يشكل المال صعوبة كبيرة هنا، على كل حال! لو كان المال متوافراً عندي، لاتصلت بمهربي الأشخاص. يبدو أنهم في شارع «الجزّارين»، ينقلونك إلى الخارج مقابل ألف دولار.

- يقولون... إن اليقين الوحيد هو أنهم يريحونك من ألف دولار.

- على كل حال، لا أملك ألف دولار.

- بع شيئاً ما.

- ماذا أبيع؟ إن حلي والدتي قد طارت منذ زمن طويل. ولن تجد

كتبك من بينهاها. أما الأثاث، أي ما بقي منه، فنحتاج إليه، ولن يدر شيئاً. الشقة؟

- كلاً، يا ابني. من يرغب، في الساعة الحالية، في شقة في بغداد؟

من الأفضل شراء قطعة أرض مباشرة في المقبرة.

- إذا؟

- إذا فكرتُ في أنك تستطيع أن تبيع نفسك، أنت. أي قوتك.

وشبابك. ونشاطك.

- لستُ متأكداً من فهم...

- ليس عندك شيء يدر مالاً إلا أنت، يا ابني. هناك حاجة إلى

شبان بوسائل.

- هل تلمح إلى...

قاطعتنا أمي التي دخلت، مسرعة، لتأخذ مشطاً من غرفة الحمام؛



أما أبي، البالغ الاحتشام، والذي لم يكن يقبل أن يراه أحد عارياً قط ما عداي، فلقد اختفى.

بيد أنني قد فهمت رسالته. ماذا عندي للبيع؟ حياتي... في ذلك الوقت، كان المتعصبون يظهرون مستهلكين جشعين لجمع المتطوعين. اقترح عليّ والذي أن أصبح إرهابياً، وأن ألتحق «بالقاعدة»، الحركة الإسلامية المعروفة بقدرتها، والتي نما فرع نشيط لها على الأرض العراقية؟ فبمساعدها، وأنا في خدمتها، يمكن عبور حدود ممنوعة. فجأة، بدا لي الموقف واضحاً: وجب عليّ أن أتقدم إلى الجماعات المسلحة السرية؛ أو بالأحرى أن أظاهر بالتطوع للسفر إلى القاهرة.

ففي غمرة اضطرابي، لم أفكر أن المرء ينضم إلى الحركة الإرهابية بشكل محموم وليس وفق حسابات، وقد وضعتُ خطة وفتوراً - يسمي بعضهم تلك الوصفة «بالوقاحة» - للانخراط في فعالية يتبناها المرء بدافع الهلع أو العبادة، والثأر أو الطموح، أي الهوى على الدوام. قصدتُ المسجد الملاصق لمدرسة أخواتي القديمة، وهو بناء صغير بدون ترف وبلا أي نمط معماري. وقد أوحى إليّ رفاقي في الجامعة، بكلام مبطن، وباللجوء إلى تلميحات خفية، وبالصمت، وبعلامات التوقف، أنني إذا أردت... حسناً... عليّ أن أذهب إلى هناك!

خلطتُ صلواتي بالمراقبة، وطوال ساعات، رحّتُ أدرس الناس

الذين يترددون على المكان، فمنهم من يأتون ليتوجهوا إلى السماء  
ومنهم من يجيئون إلى المسجد للتأمل.

حين تأكدتُ من تحليلي، في منتصف النهار، اقتربت من رجل  
طويل القامة، قوي، بأنف حاد ولحية خشنة ويشكل القطب الذي يدور  
حوله الشبان ذوو الدماء الملتهبة.

- أريد أن أكون مفيداً.

- إنني لا أعرفك.

- أدعى سعد سعد.

- أكرر لك أنني لا أعرفك. عمّ تحدث؟ ولماذا توجه حديثك

إليّ؟

- إما إنني مجنون، وإما ستساعدني. لقد مات والدي تحت

الرصاص الأميركي، وكذلك صهراي؛ فأنا بمفردي، أعيل أسرتي،  
المؤلفة من أربع أخوات، وأم، وثلاثة أولاد أخوات، وفتاتين من  
أخواتي.

- وإذا؟

- إنني أكره الأميركيين.

ارتجف جفنه رجفة لا تكاد تُلاحظ. كان سواد الشعر وزرقة العين

يشكلان تناقضاً يشير إلى عنف المزاج الدموي، والذي يمثل ظلاماً أو  
ضياءً.

صرخ:

- وماذا إذا؟

- أريد أن أكون نافعاً.

- إنك كذلك، أيها الأخ، إذا كنت تهتم بشؤون أسرتك.

- هذا ليس كافياً. أريد القيام بأكثر من ذلك. أريد أن أقتل. أريد

أن أقاتل.

انبثقت الكلمات وحدها، ورحتُ أكتشفها بالتتابع مع لفظي لها. من المؤكد أن خطابي، أصلاً، قد صُنِعَ بطريقة إرادية، لكن جزءاً من نفسي قد أنتجه بدون جهد، وجزءاً قد أفصح فيه عن ذاتي، وكان جزء مني لا يكذب، لا بل راح ذلك الجزء يبتهج بتلك الكلمات المقيتة. أصغى إليّ وأنا أتهجم عنيفاً بكلامي طوال عشر دقائق دون أن يقاطعني. بين الفينة والفينة، كان يلقي نظرة سريعة على الآخرين، وكانت حدقاته تسألان «هل تعرفونه؟»؛ فيهب المتجولون جيئينهم بالنفي.

أخيراً، تنهد وقاطعني قائلاً:

- لماذا اليوم؟

- أن...

- كيف لم تنخرط في المقاومة حتى الآن لتدافع عن بلدك؟ لماذا

لم تكمن خلف حاجز حتى الآن؟

لم أتوقع هذا السؤال؛ إلا أن الجزء المتقدم فيّ، ذاك الجزء الذي

يريد أن يبدو إسلامياً، قد وجد التفسير بكل يسر:

- كنتُ أحترم والدي الذي حرص على أن أكمل دراستي للقانون.  
كان رجلاً ورعاً وجليلاً وفي منتهى الشجاعة، ولكنك خنزيراً إن لم  
أطعه. أما الآن وقد مات - قتله هؤلاء الأوغاد الأميركيون - فلم يعد لي  
سبب يكبح جماحي.  
هز رأسه باقتناع.

- الساعة السابعة، هذا المساء، أمام مقهى سعيد.  
وابتعد بخفة مذهلة، وبسرعة تؤكد أنه حقاً قد أخذ وقتاً ليصغي  
إليّ.

فكرت «لقد ربحت!». وإن بقي كثير من المجهول في طريقي،  
انتظرتُ المساء بعصبية وأنا أطرح على نفسي مئة سؤال: ما العمل  
لا تجنب أن يوكل إليّ مهمة هنا؟ كيف أحرضهم على دفعي خارج  
الحدود؟ ستعلمني الأحداث التالية أنني لم أطرح السؤال الصحيح  
بين المئة سؤال. لكنني أستبق...

في الساعة السابعة، وقفتُ أمام مقهى سعيد حيث كنتُ ضجراً  
ومنزعجاً وأنا أشعر بأنني مراقب؛ كان كثير من العساكر يقطعون  
الساحة، عمداً كما بدالي، ويندفعون ويحدقون إلى وجهي، ثم يرحلون  
من جديد. ربما كانوا مخبرين أرسلوا ليتأكدوا من هويتي.

في الساعة الثامنة، ظهر الرجل ذو اللحية المقصوفة على شكل  
فكي سمك القرش، ومرّ عن يميني وقال لي، دون أن يتوقف:  
- اتبعني كما لو أنك لا تعرفني.

تقدم في متاهة شوارع، ثم انعطفت أربع مرات نحو مجموعة من الأبنية. ما معنى هذا التجوال؟ أكان يدل بعض الأفراد عليّ؟ أو يتأكد من أن لا أحد يتبعني؟

أخيراً، أسرع وهو يركض في حارة صغيرة وضيقة. دخلتُ فيها، وأنا أخشى أن أضيعه، حين أوقفتني ضربة قبضة فطُرِحْتُ أرضاً.  
- إنه هو!

إن المارد الذي سطّحني أشار إليّ لأربعة مرّة آخرين انهالوا عليّ، وكمموني وربطوا ساقِي وذراعِي. وبعد ذلك، رموني في صندوق سيارة، بلامبالاة كمن يرمي صرة غسيل. أمرني أحدهم أن أحشر رأسي.

ثم أغلق عليّ غطاء الصندوق.

كان السواد كاملاً.

ثمة محرك، فطريق. ثم هزهة، فضربات مكابح، تلاها تسارع، ثم توقف عطالة وثرثرة، ثم قُطِعَ المحرك، فشتائم وموكب. ثمة أبواب سيارات تُصَفَّق، ثم انطلاق جديد. محرك، طريق. دروب. هزهة. وشظايا حجارة، ثم قُطِعَت مسافة طويلة. توقف.

عاد النور من جديد، إنه مصباح أشعل في الظلام. أعماني هذا النور. ساعدني الرجال في الخروج، وقطعوا الروابط التي شدت على كاحليّ وأمروني أن أتبعهم. أين أنا؟

دخلنا بناء، ونزلنا إلى القبو، فتحوا باباً، ورموني منه. أغلق  
المصراع ثانية. إنها زنزانة.

تلك هي نهاية الرحلة.

كنتُ أجهل أين أنا ولماذا؟

مرت ساعات كثيرة أيضاً، ساعات استفدت منها كي أهدئ من  
روعي، وأحاول أن أفهم الوضع. إنهم يحذرون مني، ويختبرونني.  
يريدون أن يراني هؤلاء الذين يتعرفون فيّ إلى عميل للأميركيين أو، في  
أسوأ الحال، إلى عميل للإسرائيليين. أمل ألا أذكرهم بأحد! وهذا ما  
فكرت فيه. نرجو ألا تكون الطبيعة قد لعبت دوراً بائساً فمحتني قريناً...  
وقد استشففت أن استجواباً قوياً سيأتي قريباً، فهيات نفسي،  
وأنا أخشاه بقدر ما أمله. يجب أن أوحى إليهم بالثقة وأن أقنعهم أنني  
من جماعتهم وألا أدع أحداً يتحدث من أعماقي إلا سعد الذي يكره  
الأميركيين، قتلة أبيه. ما دام هذا السعد موجوداً، عليّ أن أقفل بقفلتين  
على شخصيات سعد الأخريات - الشخصيات اللواتي يفكرن بعمق  
ويدركن الفروق الدقيقة - وأن أضعهن خلف باب مبطن وكتيم.

حين فقدتُ مفهوم الزمن - بسبب الجوع والعطش والقلق - جاء

أربعة رجال ليصحبوني ودفعوا بي أمام مكتب.

كان الرجل المترعب وراء الآلة الكاتبة قد بدأ بالصراخ:

- لقد تعرفنا إليك، أيها الكلب! إننا نعرف من أنت! إنك مشيت

نحو قبرك حين توجهت إلينا.

أثبت لي هذا الصراخ أنهم لا يعرفون شيئاً عني، وأنهم مستأثرون  
من ذلك. قلت في نفسي: تشجع!  
- أريد أن أكون من جماعتكم.  
- من نحن في اعتقادك؟  
- هؤلاء الذين يناضلون ضد أميركا.  
- أنت صديق الأميركيين!  
- إنني أكرههم، لقد قتلوا والدي.  
- عندنا براهين.  
- طبعاً لا تملكون أي برهان.  
- إنك تعتبرني كاذباً؟  
- لا أنت، ولا أي شخص يمكنه أن يثبت أنني أحب الأميركيين  
لأنني أكرههم.  
استمر النقاش حاداً، وعنيفاً ومتقطعاً، طوال ثلاث ساعات، لم  
أفقد خلالها ولا لثانية واحدة رباطة جأشي، ولا زمام أمري.  
أعادوني إلى زنزاتي بعد أن شتموني.  
بعد عدة لحظات، أعطوني قطعة خبز، وماء في إناء معدني. هيا،  
بما أنهم يريدون أن أعيش، فإن الامتحان قد ظهر إيجابياً.  
استسلمت لحالة من الارتياح، وأنا أتغذى. لا شك، أنه بعد  
تحقيقاتهم وهذا الاختبار، سيضموني إلى فرق المبتدئين.  
أظهرت هذه الرؤية ما مدى سذاجتي.

بمجرد أن تحسن حالتي، عادوا ليأتوا بي، أخذوني إلى صالة أخرى، وهناك، حالما رأيت الشياطين والأحزمة الجلدية، أدركت ما ينتظرنني.

أرعبتني فكرة تعذيبي، فاسترخيت في هلع جردني من أي تعبير، حتى إن ذلك قد أوهمهم بأنني جريء وصلب المراس. ابتداءً التعذيب. صحتُ، وصرخت، وقاومت، لكنني لم أترك الشخصية التي رسمتها لنفسني: وهي الذي يكره أميركا والأميركيين. كلموني مرات كثيرة بالعبرية أو بالفارسية، وهم يعرضون عليّ اختصار عذابي، ليحددوا إذا كنتُ أعرف تلك اللغات العدوّة؛ كنتُ، في كل مرة، ألوذ بالصمت. لكن الضربات كانت تعود. للحظة، كان جلدي قد أصيب بجروح أليمة تحرقني ولمحت دمائي في بركة صغيرة على الأرض، حينذاك تلقيت في كليتيّ ضربة جديدة بالغة العنف حتى إنني استشففت نوراً مفاجئاً، فأحسست نوعاً من النشوة المبالغتة وفقدت الوعي.

استيقظتُ، في اليوم التالي، في غرفة ذات أسرة كثيرة. كنتُ ممدداً وحدي بين رجال مسلحين يعملون هنا وهناك، في الغرف المحيطة، دون أن يعيرونني أدنى انتباه، أدركتُ أنهم أصعدوني من القبو، وهذا يعني ترقية. جاء مراهق يلبس البياض، أخرس بلا شك، وأعطاني حبات أسبرين وضمّد جروحي.

في منتصف النهار، عاد الرجل المقنع بلحية وجلس بالقرب مني.

- طاب نهارك، يا سعد.



- طاب نهارك. إن طريقتهكم لغريبة في معاملة أصدقائكم.
- إنها ناجعة. لسنا واثقين من أن أصدقاءنا هم فعلاً أصدقاءنا.
- وفي حالتي؟
- سنرى.
- فسرت ذلك بأنني قد اجتزْتُ بعض الحواجز.
- ماذا تعرف أن تفعل؟
- جسدياً، لا شيء يُذكر.
- عندنا متوحشون، ومردة ما يكفي. تنقصنا خبرات أخرى، أكثر فكرية. هل أتممت دراستك للقانون؟
- تقريباً.
- كم لغة تتكلم؟
- الإنكليزية والإسبانية، وبعض مبادئ من الروسية أيضاً.
- ترددت في عرض مهاراتي اللغوية. هل ستجذب عليّ صراحتي المفاجئة مشاكل؟
- ختم حديثه قائلاً:
- نحتاج إلى أشخاص مثلك. ستعود إلى أمك وأخواتك بمجرد أن تستطيع المشي.
- وماذا بعد؟
- إنك تطرح أسئلة كثيرة.
- ثم اختفى.

بعد ثلاثة أيام من النقاهاة، غطوا عينيّ بشريط، ودفعوني داخل سيارة حرارتها خانقة، وأنا أتأرجح، فُتحت بعض جروحي؛ وقد صممتُ على إقناع خاطفيّ ببطولتي، فأحجمتُ عن أي صراخ، وأية إشارة في وجهي؛ أفلتت مني بعض التأوهات حين كان هيكل السيارة يدخل في الحفر.

بعد عدة ساعات، أُخرجت من السيارة؛ فانطلقت ثانية؛ وحين نزعوا شريط عينيّ، تعرفت إلى مقهى سعيد.

اقتربتُ من المصباح الوحيد الذي كان لا يزال مضاءً ورأيتُ في زجاج المقهى وجهاً متورماً. حين اكتشفتُ عينيّ المنتفختين وشفتي المشقوقة والبقع الزرقاء والضاربة إلى الصفرة التي تظلل جلدي وشعري الملتصق بقشور النُذب، ضحكت، طويلاً، بصوت عالٍ وياعجاب. في الحقيقة، كنت فخوراً جداً من نفسي.

تقدمت نحو الحي الذي أسكنه، بمشية بطيئة، وصعبة. حين قطعْتُ الزاوية، لاحظت صبيّاً يجول في شارعنا؛ تسمر في مكانه حين رأيته.

- سعد سعد؟

- نعم.

- مساء الخير، أنا أمين، ابن عم ليلي.

نظرت إليه، وفجأة، انفجر الألم في رأسي، راح يدق، وشعرت بالألم. فبدلاً من أن أجيبه، قطبتُ وجهي وأنا أمسك صدغيّ.

- هل أنت مريض؟

انهرت أرضاً، وظهري إلى الجدار. قعد القرفصاء على مستوي واحدق إليّ. أثناء ذلك تلاشى الألم، بموجات بطيئة، وعلى مضض.

- سأكون على ما يرام...

سألني باحترام خجول:

- هل كنت في عراق؟

- كلاً، إنني أخرج من تدريب.

بعده جمل، وبدون أن أفكر، رويتُ له الدرس الذي كررته لنفسي في تلك الأيام الأخيرة: أردت أن أضحى بذاتي لبلدي، كنتُ أناضل ضد المستعمر الأميركي، وإنني مستعد أن أبذل حياتي لطرده، ولإقامة حكومة تحترم بلدنا والنبى، بمجمل القول، قدمت له الأغنية ذاتها التي تستطيع أن تبعد الألم.

بعد قليل من العبوس المتعجب، هزَّ رأسه بالموافقة. ساد الصمت. راح، بين الفينة والفينة، ينظر بطرف عينه، بانزعاج، حوله، شأن من يتساءل ماذا يفعل هنا. وبالتالي، طرحت عليه السؤال:

- هل جئتَ بهدف محدد؟

- كلاً...

- أي إن الصدفة هي التي قادت خطواتك إلى هنا؟

- ليس كذلك... لقد أتيت بالضبط لأقول لك إنني... أنا أيضاً...

مثلك... حزنت على ليلي.

- مثلي؟ طبعاً لا!

- كما يتأسف ابن عم... أستمحك عذراً، أدرك أنها كانت فكرة

غبية. لا أحد منا يرغب في أن...

ختمت الحديث قائلاً:

- أجل، لا جدوى من ذلك!

حينذاك، نهضتُ، وحيته وصعدتُ إلى بيتي دون أن أستدير،

ودون أن أنقصى سبب زيارته الحقيقي؛ لن أعرف السبب إلا بعد

سنوات كثيرة.

أطلقتُ أسرتي الصيحات لأنها تصورت أسوأ الأمور، وبعد عدة

إيضاحات مقنعة، استسلمتُ لعناية النساء ولتدليلي؛ لم أعترف بشيء

يتعلق بجوهر الأمر، لكنني أعلمتُ أمي ببساطة أنني قمت بمسعى يتيح

لي الهجرة.

في الفجر، وباطنا قدمي ملتهبٌ، جررت نفسي إلى غرفة الحمام

حيث أعددتُ، في طشت من الماء الساخن، مزيجاً من عصير الليمون

وجبات الخردل. حين غطّستُ كعبي في السائل، ظهر والدي.

- لن تفعل ذلك، بالرغم من كل شيء؟

- مغطس من الخردل؟

- كلاً، إرهابي!

من أصابع قدمي شعرت براحة غمرتني. استسلمت لها عدة ثوان

قبل أن أتمتم قائلاً:

- إنه اقترحك، أليس كذلك؟

- عجباً، يا ابني! لماذا لا تستطيع أن تفهم ما أقول من أول مرة؟

- لأنك لست واضحاً فيما تقول من أول مرة! الكل يعرف ذلك.

وأنت أيضاً تعرفه.

- تبا، لم أنصحك بدخول حركة إرهابية.

- «بع جسدك، شبابك، قوتك»، ما معنى ذلك؟ لو كنت فتاة

لتخيلت أنك ترسلني إلى الماخور. لحسن الحظ أنني رجل...

أطلت والدتي برأسها وسألني بتحفظ قلق:

- لست على ما يرام، يا سعد؟

- بلى، يا أمي.

- إنك تتحدث وحدك.

- كلاً كنت أتحدث مع...

سكت، ففهمت. أدارت عينها في الغرفة الخالية.

- آه، هل كان هنا؟

- أجل.

- قل له إنني أقبله وأنتظره، هذا المساء، لتناول الشراب الساخن.

- لن أقصر في ذلك.

حين ابتعدت أمي، استغرق والدي عدة دقائق للظهور ثانية.

فبالرغم من وجهه الغاضب، كان قد هدأ.

- سامحني، يا ولدي. لقد أسأت التعبير، لم أكن أريد أن أدفعك إلى الإرهاب.

- يا للأسف. لم يكن حلاً سيئاً.

- إنه حل يثير الغثيان. سعد، يا ابني، يا لحمأ من لحمي، ودماً من دمي، هل تعرف وصايا الإرهابي الكامل؟  
- كلاً.

- إنها سبع وصايا. أعتقد أنك قادر على تبنيها؟

- تابع.

- أولاً: ألا يكون للمرء إلا فكرة واحدة. فانطلاقاً من فكرتين، يبدأ الإنسان بالتفكير؛ لكن المتعصب يعرف، فهو لا يفكر.  
ثانياً: هدم كل ما يعارض تلك الفكرة. عدم القبول مطلقاً بوجهات نظر مختلفة، وإن كانت أقل تبايناً.

ثالثاً: قتل هؤلاء الذين يحتجون على تلك الفكرة. فالمعارضون لا يستحقون الحياة لأنهم يُمثلون خطراً على الفكرة، وعلى أمان الفكرة.

رابعاً: يعتبرون أن الفكرة أغلى من حياة أي إنسان، بما فيها حياتك. فالمتعصب هو من واجه قيمة أغلى من الأفراد.

خامساً: ألا يندموا على العنف لأنه يُشكل القوة المؤثرة للفكرة. فأيدي العنف نظيفة على الدوام، وإن كانت تقطر بالدماء.

سادساً: يُقدر الإرهابي الذي يسعى إلى الشهادة أن كل الأهداف

التي يصيبها عنفك العادل هي أهداف مذنبه، لأنها تختلف عن تفكيره. فإذا كان ثمة هدف من أهدافه يتفق مصادفة معك، فلن يعتبر الإرهابي الذي قدم حياته أنك ضحية بريئة، لكنك شهيد ثانٍ.

سابعاً: لا تدع التردد يدخل نفسك. بمجرد أن تشعر بوسواس، أو بحيرة يتسربان إليك، أطلق النار: هكذا تقتل الشك والتساؤل معاً. ولتسقط الروح النقدية.

- أحسنت، يا أبي، يا لرؤيتك الثاقبة. من أين تستقي تلك المعرفة؟  
- رأيت هؤلاء الذين يصلون إلى هنا، إلى مملكة الموتى؛ وفق ذلك الطراز الجديد للانتحاريين، يصل منهم عناقيد كثيرة كل يوم.  
- هل تناقشت معهم؟

- يا ابني، لا تتناقش مع إرهابي، تصغي إليه وأنت تؤيده برأسك.  
على كل حال، لا يحاور الإرهابي، إنه يخاطب نفسه.  
- هناك أيضاً؟

- أين، هناك؟

- عند الموتى؟

- أن يكون الإنسان ميتاً لا يجعله أكثر ذكاءً، ولا أشد جاذبية.

رفع عينيه إلى السماء، وأطلق تنهداً مؤلماً قبل أن يُضيف:

- إن سماعهم قد شكل بالنسبة إليّ سلسلة مباريات من الملل.

والآن أجب عن سؤالي: هل أنت قادر أن تتبنى هذه الوصايا

السبع؟

- كلاً، طبعاً.

- إذا أوقف هذا النفاق وتلك المهزلة، يا ابني، ابتعد من هنا بسرعة. حين ترك المرء الذكاء والظرافة يُزهران فيه، فهناك حماقات لا يمكن قبولها.

- مع ذلك، فإن من السهل إفساح المجال لينطلق حقدنا.

- طبعاً، لكن أحقادك بالغة التنوع كي تكون منسجمة فيما بينها.

فمن جهة، أنت تكره الأميركيين الذين قتلوني. ومن جهة أخرى، أنت تمقت المتعصبين الذين رملوا أختيك الشابتين. كيف الاختيار بين حقدين لا يمكن جمعهما؟

- من الأفضل التخلص من الحقد؟

- ها هو ذا. في ذاك الصباح، حين أزعجنا، كنتُ أريد أن أقترح

عليك مسعى آخر: وهو أن تضع نفسك في خدمة بعض التجارات التي تحتاج إلى رجال نشطاء وشجعان. أتذكرُ صديقي شريف الحسّاد؟

- الذي يعمل في المتحف؟

- اذهب إذا وقابل أخاه، فهد الحسّاد. إنه ليس شخصاً يوصى به،

فهو أبعد ما يكون عن ذلك؛ إلا أنه، في الأيام المضطربة التي نعيشها...

- فهد الحسّاد؟

- إنه وغد بامتياز، سبب خيبات كثيرة لأهله ولأخيه شريف بشكل

خاص. يمكن أن يساعدك...



حين اقتربت من المتحف، في غرب المدينة، حيث لم أذهب منذ سنين كثيرة، ظننتُ أنني ارتكبتُ خطأً. فالجدران مُحَفَّرَةٌ والنوافذ مُكسرة والشبك مبقر، وكلها توحى أن البناء، بالرغم من حدائته، قد كان خراباً؛ مع ذلك، وجدتُ في مدخل الخدم، خلف محرس مجاور، شريف الحسّاد، صديق والدي، وواحداً من أقدم الحراس.

- سعد، يا ابني، تبدو هيئتك توازي المتحف في خرابه.

- نهارك سعيد، يا شريف.

- كيف حالك منذ وفاة والدك المسكين؟ وكيف حال والدتك؟

وأخواتك؟ وبناتهن؟ وابن اختك؟

حين لبيتُ فضوله فيما يتعلق بأسرتي، وبعد نصف الساعة التالية، التي قص لي فيها التهافت، والذي كانت ضचितه مجموعات من خمسة عشر ألف قطعة خُرِّبَت أو سُرِّقت تحت أعين الجنود الأميركيين اللامبالية - طرقت الموضوع.

همس لي والدي، قبل أن يموت، أنني في حالة الحاجة، أستطيع أن أتوجه إلى أخيك.

- فهد، هذا النذل، الذي لا فائدة منه! أفضل أن أموت من أن

تذكرني باسمه! لا يمكن لأبيك أن يقول هذا مطلقاً!

- بلي، يا شريف. كان يحتقر أخاك، ولم يُخفِ ذلك عني، لكنه

نصحني، إذا ما كنتُ في أمس الحاجة، أن ألح عليك في طلبي.

- هل الأمور سيئة إلى هذا الحد؟

- لم أكن بحاجة إلى المبالغة، وأنا أروي له أسابيحي الأخيرة، ليرق قلبه، وليبذل جهداً وليتذكر العنوان.

تمتم بتذمر وهو يدس في يدي قصاصة ورق:

- خذ، تستطيع لقاء أخي هناك. إنه يعمل في بابل شأن كل الطفيليين الذين على شاكلته.

بعد أن فاوضت أحد الجيران، ليأخذني إلى بابل بشاحته الصغيرة، مقابل ساعات كثيرة من أعمال تصليحات، وصلتُ بعد قليل، ولم أتسكع في المدينة التي كنتُ أعرفها، شأن كل تلميذ عراقي، فقد أرغمت، خلال نزهة بسيارة نقل كبيرة، على زيارة بابل الزهرية اللون التي أعاد صدام حسين بناءها، في ديكور على الطراز العتيق بالنسبة إلى حديقة الملاهي، حيث كان كل شيء زائفاً بشكل واضح. توجهت إلى باب فهد الحساد، الذي كان يسكن فيلاً هائلة، مجاورة لمخزنه، حيث يبيع هدايا تذكارية تجذب السائحين.

- أرسلني أخوك إليك.

أجاب التاجر الضخم قائلاً:

- ليس لي أخ.

- إنني أكلمك عن أخيك ذاته.

ومددت له الورقة التي كتبها شريف والتي تعرف فيها على خطه. أدخلني الرجل البدين، بأسف، إلى منزله حيث اجتزتُ عدة أفنية

مزهرة قبل أن أجلس مستنداً إلى وسائد في غرفة ندية يفوح منها عطر الياسمين.

شرحت، للتاجر البالغ الثراء، بؤسي، وتصميمي، وقراري السفر إلى الخارج. أصغى إليّ وهو يتصنع اللامبالاة؛ لكنني أدركت جيداً أنه يحكم عليّ، ويسبر شخصي، ويقيّمني. حين تأكد من أنني تحت رحمته، قبل أن يلفظ عدة كلمات:

- لقد أنشأت تجارة مع مصر. وإنني أرسل أشياء إلى القاهرة. وطبعاً، أنت تعرف قيادة السيارة؟

لم يكن هذا السؤال يعني «هل عندك شهادة سواقة؟» ولكن «هل جلستَ قبل الآن خلف مقود؟»، وإلا لما وافقتُ؛ شأن الشباب الذين من جيلي، كنتُ أقود سيارات منذ الرابعة عشرة من عمري دون أن أدرس قانون السير مطلقاً، كما لم أتبع دروساً؛ عندنا، يعرف الإنسان أن يقود بمجرد أن يلمس مقوداً، فالسيارة هي التي تصنع السائق، وانتهى الأمر. - اشتغل عدة أسابيع معي في المخزن، بعد ذلك، إذا كنتَ

تلاثمني، تشارك في قافلة تتجه إلى مصر. قبلتُ عرضه فوراً.

في فترة التعلم هذه، استنتجت أنه يريد بشكل خاص أن يختبر أمانتي - أو بالأحرى عدم أمانتي - لأنه تأكد من أنني أتقبل خدائعه دون نقد أو تحفظ.

تحت مظاهر مخزن للهدايا، كان فهد الحسّاد يُدير، بشكل سري،

تجارة تحف. لقد نظم هذا الرجل حياته كما رتب بيته: على نمط البصل.

فحين يرفع المرء قشرة، يكتشف خلفها طبقة جديدة وهكذا دواليك، ويكاد يصل إلى ما لا نهاية... فكل منفذ عنده يخفي منفذاً وكل غرفة تخبيء غرفة سرية وكل أثاث يحوي أثاثاً آخر، أضيّق وأثمن. كان مخزنه للفخار يحمي ورشة صناعته التي بدورها تحجب صالة إيواء. لأن مخزن التحف يحوي قسمين: قسم التحف الزائفة الحقيقية وقسم التحف الزائفة البحتة.

كانت التحف الزائفة الحقيقية نسخاً صُنعت في ورشته فيبيعتها باعتبارها أصلية، يبيعها للبسطاء وللسادجين، وهم كثيرون في الواقع. أما القطع الزائفة البحتة فكانت قطعاً مسروقة يمررها باعتبارها زائفة كي يُقدمها وينقلها بلا خطر، لكن جامعي التحف الخبراء يتعرفون إليها ويقدرونها، ويشترونها بقيمتها الحقيقية، أي يدفعون ثمنها ذهباً. إن الحرب، ثم ما بعد الحرب قد أتاحا لفهد عصراً ذهبياً، لأن المتاحف، والمواقع الأثرية، وقصور أصحاب السلطة قد نُهبت. كان يتحدث عن ذلك بكل بساطة.

- لولا وجودي، يا سعد، لكان عالم الآثار قد تداعى وانهار. لولا وجودي، لكان السارقون قد بددوا القطع، وأضاعوها، وخربوها، وكسروها، لأن هؤلاء الأوغاد الذين لا يفقهون شيئاً لا يتخذون أية حيلة أو عناية. إنني موافق على التهريب؛ وليس على التخريب!

أعلمتُ، بسرعة كبيرة، هؤلاء قاطعي الطرق أنني لن أشي بهم، وسأغلق فمي، وأقدم لهم قطعاً نقدية جديدة، خضراء، أي دولارات كي أريح ضمائرهم وأخلصهم من غنيمتهم. لولا وجودي، يا سعد، لكانت كنوز البشرية قد ضاعت هباءً منثوراً، فمن حلي آشورية وتحف عاجية من القرن الثامن قبل الميلاد، وقطع آجر مزخرفة بعشتار من المينا وقد زُينت بصور ( *mushklushu* )<sup>(\*)</sup> وبألواح كُتبت بإشارات رمزية، وبألواح حسابية، لا بل هناك لوحة محفورة من قصر نمرود.

وبالرغم من أنني شككت بأنه مؤلّ كثيراً من الغزوات بإرسال رجال ماجورين، فإنني كنت أستمع إلى روايته فاغر الفم. فسواء أكان مجنوناً، أم أنه يتمتع بوقاحة، فلقد كان يعتبر نفسه صادقاً، وأرفع حافظ للآثار وجد على وجه الأرض، لآثار بلاد ما بين النهرين. وإذا صدّقناه، فإن المتحف الوطني، إذا رأى النور ثانية، فعليه أن يحمل اسمه.

بالرغم من ثرثرته، فلقد كنتُ أفهمه بشكل أفضل مما أفهم الإرهابيين الذين حاذيتهم. كان فهد فردي النزعة لا يفكر إلا بنفسه، وبشروته، وبمتمعته، وبنجاحه؛ بدا لي أن فهمه أسهل من المتعصبين المستعدين لقتل أنفسهم مع أبرياء وسط سوق؛ كان لغشه واحتياله مظهر طيب، ومريح، ومطمئن إذا قورن بأنواع الجنون التي كانت تُلهب بعضهم.

---

(\*) إنه حيوان أسطوري من بلاد ما بين النهرين. يعني اسمه بالسومرية: حية/ تنين أحمر، ومؤلف من عدة حيوانات. وهو رمز الإله مردوك، حامي مدينة بابل. (الترجمة).

حين تأكد من أن الوسائس لن تخنقني، أعلن لي عن الرحلة القريبة المنتظرة:

- ستذهب بالسيارة إلى القاهرة مع حبيب وحاتم. ستأخذون معكم خلسة بعض القطع الآتية من مدينة الحضر، من (Parthe). إن ما أطلبه منكم هو تجنب النقاط الجمركية وكذلك موظفي الحدود؛ إذا أوقفوكم، فأنتم لا تعرفونني. ما عدا ذلك، تأخذون ما شئتم من الوقت، وتمرون حيث تريدون، ما دتم تسلمون ما معكم إلى العنوان الذي أحده لكم. موعدنا يوم الثلاثاء. هل يلائمك ذلك؟

ها أنا ذا، لقد ربحت. في عدة أشهر، وجدت وسيلة للهرب من العراق.

رجعت ثلاثة أيام إلى بيتنا، في بغداد، لأبشر عائلتي بالخبر السعيد.

جهدت أمي وأخواتي، في السهرة التي أمضيناها معاً، في أن يعتبرن أن الخبر سعيد. كان القلق يقضم فرحنا؛ والخوف من أن نضيع بعضنا بعضاً، وألاً نلتقي ثانية يكدر أحاديثنا؛ فبدلاً من أن تكون علاقاتنا عذبة، ومحبة، جعلها هذا الخوف باردة، ومراقبة منا، ومتصنعة. ترددت، وأنا مضطرب، وتعيس، بين الهرب بعيداً أو العدول عن رحيلي.

في منتصف الليل، جاءت والدتي إلى الممر المظلم حيث أنام، وركعت أمامي، وعلى راحتها غطاء صغير مطوي.

- سامحني يا سعد، إنك تغادرنا غداً، وليس معي قرشٌ أعطيك إياه. فالأمهات الأخريات اللواتي رأين أولادهن يهاجرون، قد أمّنَ لهم المال ليسافروا. أما أنا، فلا أملك شيئاً. إنني امرأةٌ يرثى لحالتها، ولا أستطيع أن أقدم لك أكثر من هذا الغطاء، لم أكن أماً على مستوى المسؤولية قط.

قبلتها وأنا أقول لها إنني لا أوافقها على ذلك البتة. بكت على كتفي. كان مذاق دموعها حزيناً، ومُراً.

ثم أمسكتُ بقطعة القماش البسيطة وأنا أعلن لها:

- لن أضيعها بتاتاً. حين أستقر في إنكلترا، سأضع هذا الغطاء، تحت الزجاج، في إطار من الخشب المحفور، والمزين بالورق المذهب، وسأعرضها وسط غرفة استقبال، فوق المدفأة الجدارية. وكل سنة، في أول كانون الثاني، سأشير بها إلى أولادي وأشرح لهم قائلاً: «انظروا إلى هذا القماش، إنه غطاء جدتكم. يبدو، ظاهرياً، كبساط غير جميل؛ لكنه في الواقع بساط طائر. قطعْتُ عليه القارات، لأستقر هنا، وأوفر لكم حياة جميلة، بتربية ممتازة، في بلد مزدهر ينعم بالسلام. لولا هذا البساط لما كنتم هنا حولي، كلكم، سعداء.»

- الوداع، يا سعد، يا ابني.

- إلى اللقاء.

وقبلتها للمرة الأخيرة.

## ٥

كانت سيارة «الجيب» السريعة والنشطة تلتهم الطريق وتقذف خلفها، الغبار.

انتصبْتُ واقفاً، وقد أخرجت صدري العاري من السقف المفتوح كي أشعر بالسرعة بشكل أقوى وأبتلع الكيلومترات وأشرب الهواء الذي يشفي غليلي.

بما أننا لم نكن نصادف أحداً، اختفت بغداد وراءنا إلى الأبد، فكنا نهرب إلى مشاهد جديدة، مطمئنة لنا ومتواطة معنا؛ لو لم نصادف بعض الصوى ولو لم نتبع خط الممرات، لظننت أننا نقطع أرضاً عذراء، جديدة ومجهولة، خُلقت لنا هذا الصباح. شعرت بأنني سكران، لا يمكن قهره، في بعض اللحظات، بين خريرين يصدران عن المحرك، فالصخر راح يهرب على جانبيّ، شأن سرب من الأسماك.

كان حبيب وحاتم، رفيقاي في السيارة، وقد سلكا كثيراً تلك المسافة، يعرفان أية دروب يأخذان لتجنب الحواجز أو التفتيش.  
قلت بتعجب في أذن حبيب:



- إنك مرتاح جداً خلف المقود. أين تعلمت القيادة؟  
فضحك.

- هل نقدم امتحاناً لنضاجع امرأة؟ إنه من الطبيعي لرجل أن يقود  
سيارة كما يضاجع امرأة. هل تسمع، يا حاتم، ماذا يسأل الصبي؟

- أجل، يارجل!\*

توقفنا عند مدخل صحراء.

أعلن حبيب قائلاً:

- وقفة. سنستريح قليلاً.

- أجل، يارجل!

- هيا يا سعد، اذهب لتملأ صفايحنا من البئر هناك، خلف  
الصخور.

صرخت:

- بكل سرور.

- حسناً، يارجل.

كنت سعيداً أن أوكلت إليّ في نهاية الأمر مهمة أقوم بها. ما نفعي  
إذا؟

ولماذا ضمني فهد إلى مواكبي المألوفين؟ كان حبيب وحاتم  
يتقنان عملهما ويدبران أمورهما أفضل مما في استطاعتي.

---

(\* ) - يردد حاتم دائماً كلمة *Man* «يارجل» بالإنكليزية (المترجمة).

بينما كانا ممددين تحت شجرة ليدخنا، قال لي أحدهما: «آه، يا رجل، يا للمتعة» - رحت أكد دون أن أوفر قواي بين السيارة والبئر الواقعة على علو مئة متر. حين ملأت آخر صفيحة، وشعرت بأنني أتممت واجبي، قررت أن أستريح عدة دقائق قبل أن أعود إلى صندوق السيارة وأن أغسل رجليّ في البركة التي تتموج عند فوهة البئر. بينما كنتُ أدلك أصابع قدمي، حضر والدي ليجلس عن يميني.

- إذن يا ابني، ها أنت تقيم عند آكلي اللوتس؟(\*)

- ماذا؟

- أكلو اللوتس.

- ألا يمكنك أن تتحدث شأن كل الناس؟

- كلاً، إنني أتجنب ذلك.

- ألا يزعجك ألا يفهمك أحد مباشرة؟

---

(\*) Les lotophages: سنجد في هذه الرواية تلميحات كثيرة إلى أوديسة هوميروس التي تصف عودة أوليس بعد حصار طروادة والذي دام عشرة أعوام، كما استغرقت عودة أوليس عشرة أعوام أخرى تتخللها سلسلة أحداث يلمحُ إليها كاتب هذه الرواية ويعيش بطله بعضاً منها بشكل حديث. أما أكلو اللوتس فهم شعب توقف عنده أوليس بعد أن عصفت بسفيته ريح الشمال فساقته إلى الجنوب، في جزيرة قبرص. رحّب أهلها بأوليس وبرفاقه، وقدموا لهم فاكهة هم يأكلونها وهي فاكهة اللوتس، وأكلها يُفقد المرء ذاكرته. هكذا، لم يعد رفاق أوليس يرغبون في العودة إلى "إيتاك"، مما دفع أوليس إلى إرغامهم على ركوب البحر للعودة. (الترجمة).

- هذا يُسعدني. فالتعرف إلى الأبله واكتشاف الجاهل وملاحقة  
الوضيع، كل ذلك شكلاً دائماً متعة من ألد متعي.  
- لكن، يا أبي، لقد اخترعت الكلمات للتفاهم بين الناس.  
- هذا غباء، فلقد اخترعت الكلمات كي يتميز الناس وتتعرف  
النخبة فيما بينها.

- هذا رائع! هكذا أنا الذي لا أفهمك دائماً، تعتبرني أدنى منك؟  
- أجل، هذا أيضاً يشكل إحدى متعي.  
- أنت بغيض.

- كلاً، إنني أكونك وأرييك، وأعدك بعناية فائقة. ألم تلحظ أنني  
لا أتوقف عن معاشرتكم مهما تخبّطت؟  
- مم...م...

عن بعد، بان الليل من انخفاض النور، وقد ملأ الصحراء بسكون  
غريب، موقفاً همسات حياة رقيقة. بدأت الظلال، شيئاً فشيئاً، تنبثق عند  
سفح الصخور، زرقاء ورمادية، تكشف نتوءات وأعماقاً مجهولة. خُيل  
إليّ أن الظلام لا ينحدر من السماء لكنه يخرج من الأرض، ناشراً حزناً  
مميّتاً، أشد اختراقاً من البرد، إنها كآبة لا لون لها وحزن يدفع الذئاب  
إلى العواء.

التفت نحو والدي وابتسمت له.

- ألاحظ أنك اخترت متابعتي. هل ستسافر معي حتى لندن؟

- قد تضطر إلى أن تحتاج إليّ، أليس كذلك؟

- هل انقطعتَ عن زيارة والدتي؟

- موقتاً.

- سيعتريها الحزن.

- لقد كانت حزينة قبل أن أشرح لها: إنها تفتقدك، يا سعد.

شعرت فجأة بالحزن، فخرجت من شعوري بكل تلك النشوة وأنا أهرب من بغداد لأقوم بترحالي الطويل. أدرك والدي حينني الذي لاح عليه الشعور بالذنب فقال لي مماًزحاً:

- على كل حال، لن تُصغي إليّ أمك وأنا ميت أكثر من إصغائها إليّ وأنا حي. سواء كنتُ هناك أم لم أكن، فستهمل أجوبتي، وتشدق مكاني. إذاً قررتُ أنه من المجدي أكثر أن أرافك، يا ابني.  
- شكراً.

- لا تتسرع في بهجتك. إنني أرافك لكنني لا أوافقك على السفارة التي تقوم بها. إنني وازنتها بقسوة. فأنت لستَ نموذجاً يُقتدى به، يا ابني!

- نموذجاً لأي شيء؟

- لستَ نموذجاً عراقياً. تصور أن يفعل الجميع مثلك: فلن يعود هناك عراق.

- لم يعد ثمة عراق منذ زمن طويل.

- يا ابني!

- قبل أن أكون نموذجاً عراقياً، يهمني أن أكون نموذجاً إنسانياً.

أريد أن أقدر على العمل وأن أربح مالاً وأساعد أسرتي وأؤمن استمرار الحياة للنسوة اللواتي يعملن في البيت وللأطفال الذين يحتاجون إلى أن يتعلموا. هل تجد سلوكي شائئاً؟  
- كلاً، لكنني أفكر ببلدي...

- أنت مخطئ. ماذا يعني البلد؟ إنه صدفة لا أدين له بشيء.

- يا ابني، لا تشوش أفكارني! هذا السفر الذي لا أزال ألومك عليه ابتداءً بداية سيئة، مع هذين المتهورين، غير المسؤولين، وبالحمولة التي أوكلها إليكم فهد السافل!

- ماذا؟ تهريب تحف فنية؟ هناك أسوأ من ذلك.

- أجل، هناك الأسوأ ونحن نتخبط داخله!

- إنني لا أفهم شيئاً.

- شأنك دائماً! لقد قلت لك كل شيء لكنك لم تفقه شيئاً.

اختفى والدي، وقد تركني في حالة ارتباك مضطرب، يُعذبني حدس مر المذاق.

بعد نصف ساعة من التفكير - عبثاً - في الشكوك التي وضعها في أعماقي، رجعتُ إلى رفيقي. كانا يدخانان بجديّة، وبصمت في عتمة المساء.

- آه، يا رجل... آه، يا رجل... آه، يا رجل...

كان حاتم في نشوة وهو يسحب نفساً من غليونه متأملاً الدخان

المتصاعد نحو السماء التي بدأت تُظلم. لم يكن حبيب يلفظ بنت شفة لكنه بدا في الدهشة عينها وهو يغيب غليونه.

- ها أنا، أيها الشابان، لقد ملأت الصفائح. هل نرحل؟

- كلاً، يا سعد، سنخيم هنا.

- أجل، يارجل.

- هذه المرة، إنه من الصنف الأول، إنه ممتاز، ورائع، وفي منتهى

النقاء!

- أجل، يارجل.

تنهدا، وهما عاجزان عن إضافة كلمة واحدة.

أعلنت احتجاجي على هذا القرار. لا نستطيع أن نسمح لأنفسنا بالتسكع على هذا النحو. لماذا التوقف؟ يجب أن نبقي في حركة دائمة وأن نفلت في كل لحظة من التعرف إلينا. وإلا فما فائدة أن نتحرك ثلاثتنا معاً؟ كان الاتفاق مع فهد أن نتابع على المقود.

بدوا، وهما مستقلقيان، يتسلمان بهدوء، كأنهما لم يسمعا. فجحظت عيونهما بين جفون متصلبة، وقد احمرت شأن المصابين بالأرق، كانا يستنشقان الدخان بطريقة منتظمة، ويمسحان عيونهما بقماش كميها.

رشحت ريح قلقة من الظلام.

فكلما تقدم الوقت، راحا يستنشقان الدخان بنهم شره.

تقدمت نحوهما لأثير رد فعل:

- ردًا، بالله عليكم! ماذا يحدث؟

- خذ، يارجل... استنشق نفخة، وستفهم.

حين اقتربت من حاتم وقد انحنيت على يده، اكتشفت ما حدث. كانت ثلاث رزم من التي نقلها قد وضعت على الأرض، وفتحت بالرغم من أمر فهد القطعي، فأظهرت خطة شيطانية.

كان التاجر المحتال، وهو أمين لمنهجه، قد صنع رزماً روسية - وفق نموذج الدمى الروسية، تلك الدمى الخشبية التي تحوي دمي أخرى أصغر حتى أصغرها الذي لا يتجاوز حجمه كشتبان الخياطة. إذا كنا نقل رسمياً تماثيل صغيرة تباع للسائحين، فنحن نعرف أنها تُخفي رُقمًا سومرية تعود إلى أكثر من ألفين وخمسمئة عام؛ إلا أن هذا الخداع يُخفي أيضاً واقعاً آخر: فنحن نقل حمولة من المخدرات.

هل كان حبيب وحاتم يجهلان ذلك؟ بالطبع لا، لأنهما سلخا الرزم دون أن ينتظرا.

- الأفيون؟

ضحكا بهدوء كأنهما حذران، وبصوت جاف وخشن وعذب. إذاً، كنتُ الوحيد الذي سُخر منه.

- استنشق، يا سعد، إنه من أفخر الأنواع!

- أجل، يارجل، خذ نفساً!

للحظة ثانية من الزمن، كدتُ أستسلم إلى عرضهما. لماذا،

في نهاية الأمر، لا أستفيد من ذلك؟ فإذا ما أوقفتُ بتهمة تهريب المخدرات، أكون أقله قد تذوقت بعضاً منها قبل ذلك، لم لا؟

منعني الغضب.

- هل كتما تعرفان ذلك؟

- بالطبع!

- أجل، يارجل، كنا على علم بذلك.

- ولماذا قبلتما؟

- اسحب نفساً وستفهم.

- آه أجل، يارجل، أجل.

- إن تلك الأسفار هي أفضل ما في حياتنا.

- الأفضل، يارجل.

- المشكلة هي أننا، في المرة الأخيرة، بالغنا في إفراطنا في

التدخين حتى إننا أمضينا ثلاثة أشهر للوصول إلى القاهرة. فاعتقدت

عصابة فهد أننا قد هربنا بالحمولة كاملة، بينما كنا قد دَخْنَا بالضبط

القليل منها.

- دَخْنَا كثيراً جداً، يارجل، أفرطنا في التدخين!

- بمجمل القول، غضب الرئيس: ففرضك علينا. أما نحن، فقد

بدأنا نتعلق به وندمن عليه، وهذا يصبح صعباً.

- كلاً، هذا سهل، يارجل، هذا سهل.

- سترى، يا سعد، ستتدبر أمورنا، نحن وأنت: سندلك على



الطريق، وسنعلق عليه، وعلى النقاط التي يجب تجنبها، وبالمقابل،  
تدعنا ندخن.

لم يعد، بعد ذلك، أي مجال للمحادثة. جمّدنا سواد الليل  
الأدكن كالحبر. فبالقرب من النار التي ارتجَلتُ إضرارها، لم يعد  
الرجلان يتميان إلى العالم المحيط بهما؛ كانت المخدرات قد انتزعت  
من جسديهما الجامدين حشرجات وتأوهات ونيراناً ونشوات؛ حوالى  
منتصف الليل، تحدث حبيب مع ملاك.

التجأت إلى ركام من الصخور، يحميني كيس غطاء لنومي،  
لكنني لم أستطع الامتناع عن أن أستنشق بنفحات طويلة رائحة الأفيون،  
وأنا أسعى إلى الوصول إلى تلك النشوة بمنخاريّ وحدهما؛ ثم، وقد  
غضبت من استسلامي للتجربة، استدرت نحو الجبل وسعيت، كي  
أنقي جسدي، إلى أن أستنشق العطر المعدني للصخر وللنجوم.  
أخيراً أقبل الشروق الجليدي، وعلى الجسدين اللذين يهذيان،  
وصل ضوء النهار المزعج.

- هيا إلى الطريق، اشرح لي كيف أسير، يا صديقيّ.

رأيت الاضطراب في عينيها الواسعتين والزائغتين. استغرقا وقتاً  
طويلاً كي يمتلكا زمام نفسيهما ويدركا أين هما ويتعرفا إليّ ويتذكرا  
إلى أين يجب الذهاب؟

جلستُ خلف المقود ووضعتهما في المقعد الخلفي حيث ظهرنا  
كسمكتين خارج الماء، وانطلقتُ بالسيارة. بعد ثلاث هزات أو أربع،

تقياً، فساعدتُهما على قضاء حاجتهما. بعد ثلاث وقفات أو أربع، ناما وقد أطبقا قبضتيهما.

بما أنني كنتُ قد خلعت نعليّ للقيادة، لم يتأخر والذي في الظهور على الكرسي الذي بجانبني وتمتم، مبهوراً، وهو يلامس مفاتيح القيادة بأصابعه المندهشة.

- إنني أعشق هذه السيارات الريفية الرباعية الدفع.

- الرباعية الدفع.

- كما تقول. اعترف بأن صديقك آكلي اللوتس ليسا جميلي

المظهر، هذا الصباح!

- كيف تسميهما؟

- سعد، يا ولدي، يا لحمأ من لحمي ودمأ من دمي ويا عرق

النجوم، أنت تعرف جيداً من هم آكلو اللوتس لأنني قرأت لك مرات كثيرة الحكاية وأنت فتى. هيا، تذكر. كنتَ تطلب مني بنهم أن أرويها لك لأنك كنتَ تحبها كثيراً.

- أنا؟

- «في اليوم العاشر، رسا أوليس ورفاقه في بلد آكلي الأزهار

والذين يُدعون آكلي اللوتس. هؤلاء الرجال يتلعون اللوتس أثناء وجباتهم. لكن كل من ذاق تلك الثمرة العذبة بحلاوة العسل، لم يعد يرغب في العودة إلى بلده، ولا يرسل أي خبر عنه لكنه يتمسك بالبقاء هناك بين آكلي اللوتس، يشبعون من اللوتس وينسون العودة».

- آه أجل، الأوديسة...

- الأوديسة، يا ابني، إنها أول قصة سفر طبعَت الإنسانية. فهي رحلة كتبها هوميروس، الأعمى، وهذا يُثبت أن الإنسان يصف بالمخيلة أفضل مما يصف بعينه.

- اللوتس يُنسي الإنسان العودة... هل تعتقد، دائماً، أن المخدرات تُنسي المرء الهدف؟

- أحياناً، تفعل أفضل من ذلك أيضاً، يا ابني: إنها تنسيه أن لا هدف له.

فكرتُ طوال كثير من الكيلومترات.

ختمت حديثي قائلاً:

- ليست زهرة اللوتس، ولا الأفيون، ولا الكوكايين، ولا أية مادة تجذبني.

- يسعدني سماع قولك.

حينذاك، تأوه حاتم وحبيب.

- قف، يا ولدي، إنهما يتغوطان في مكانيهما.

أوقفت السيارة وفتحت الباب الخلفي. انزلقا خارج السيارة، وزحفا حتى الحفرة. بينما كانا يفرغان ما في داخلهما، بصخب، رفع والدي عينيه نحو السماء.

- هنا، وجب عليّ أن أقر أن تلك من المزايا النادرة للراقدين في القبور: فالميت مرتاح الأمعاء.

رجعا إلى السيارة وطلبا التدخين.

- كلاً، لا وقت لدينا!

- يا سعد، إذا عارضتنا، فلن نبوح لك بطرقنا المختصرة ولا

المواربة. ولن ترى القاهرة إطلاقاً.

- مطلقاً، يا رجل، مطلقاً!

- حسناً، دَخْنَا...

فبمهارة المدمنين الذين يفتقدون إلى مخدراتهم، عبأ غليونيهما

وراحا يسحبان نفحات.

- آه، يا رجل، آه!

- هاه...

- يا رجل، هاه...

- هاه!

بدا والدي مستاءً فرفع كتفيه وأدار لهما ظهره وقد استغرق في

تأمل المشهد والرمل والصخور.

- يا لتعاسة هذا الحوار! تعتمد فصاحتها على كلمات مثل «هاه»

و «يا رجل». كلمات بمقطع صوتي واحد، وكلمات يقتصر تعبيرها

على صوتها يكررانها شأن قرد يهز شجرة جوز الهند. آه، يا له من عصر

حزين... انظر إليهما جيداً واصغ إليهما، يا ابني، فأقله تشمئز نفسك.

إننا نرى الانحطاط عند الآخرين، وليس عندنا؛ فهو ليس قبيحاً إلا حين

يظهر على وجوه الآخرين. فإذا جربنا المخدرات على أقربائنا، فلن  
نقترب منها مطلقاً.

استمر السفر، طوال أسبوع، على هذا المنوال، بإيقاع فوضوي،  
يتخلله كثير من الوقفات الإرادية - «يجب أن ندخن، يا رجل، أن  
ندخن» - إلى جانب الوقفات الاضطرارية - كان حبيب وحاتم يفرغان  
كل منافذ جسديهما، ووالدي يراقبهما بانتظام، وقد هالته حالات  
الاسهال، والتقيؤ.

- يا للغرابة، يا ابني، ما أعجب هذا الجسم البشري الذي يستطيع  
أن يتخلص من كل ما يرهقه. إننا نأسف ألا يستطيع هذان الشخصان أن  
يتغوطا من أذنيهما؛ لكانا، أقله يتطهران من أفكارهما التنتة.  
- يا أبي، كي يفرغا ما في رأسيهما، وجب أن يكون لهما دماغان!  
- أنت على صواب، يا ابني. إن الله كبير: يترك الهواء يجري بين  
أذني هؤلاء الذين لا يسمعون.

فبالرغم من وضعهما - كان يصعب عليهما التعرف إلى الساعات  
والأيام، كما كان يصعب عليهما أحياناً أن يكونا نظيفين، فكانت  
هلوساتهما تزداد غموضاً وقاتمة - لكن حبيب وحاتم عرفا دائماً أن  
يدلاني على الطريق، فكانا يستيقظان في الوقت المناسب، وهو رد فعل  
حيوي ليساوما على متعتهما، ثم سمحا لنفسيهما في أن يستغرقا في  
نشوة كأنهما منومان مغناطيسية. فبفضل حيلهما وقيادتي التي لا تعرف  
التعب، غادرنا العراق بدون مشاكل، ومررنا إلى العربية السعودية،

حيث قطعنا الصحراء طوال أيام كثيرة، ثم اجتزنا الجبال، ووصلنا إلى شاطئ البحر الأحمر، قريباً من خليج العقبة.

- هل تدرك ذلك، يا ابني؟ البحر الأحمر! لم أفكر في المجيء إلى هنا في حياتي قط.

- في الحقيقة، أنت على صواب!

ضحك والدي فترة طويلة، ضحكة عميقة، بعيداً عن الشر الذي أثار ضحكه، إنها ضحكة لا تنتهي تريد أن تجعل السعادة مسموعة ومحسوسة.

- تأمل، يا سعد: لقد أعلمني صديق أننا حين نلاحظ أمواج البحر الأحمر، نجدها أكثر زرقة من الأمواج الأخرى، وزرقتها ثابتة، وصافية، وجوهرية، وبدون تلوث.

- أنت على حق. وما سبب ذلك؟

- ليس ذلك من تأثير الواقع، إنه نتيجة الكلمات. ألم يوح الشاعر الفرنسي إيلوار بقوله: «أزرق كالبرتقالة»، لأن اللون البرتقالي يناقض تماماً اللون الأزرق، فهو أحمر تبلل بالأصفر. وزرقة البحر الأحمر تبدو أكثر زرقة حتى سمي البحر بالأحمر. ولا علاقة لذلك بكيمياء الأمواج أو النور، لكن بالكيمياء الشعرية والجمالية.

ثم استدار ونظر إلى حبيب وحاتم المتهاالكين بعينيهما الجامدة، الأقرب إلى اللاوعي.

- إذا استمر الأمر هكذا، فسيدخان الحمولة كاملة.

- في رأيي، أن فهد الحسّاد قد توقع الحدث. إنني على يقين من أنه قد خبأ الكمية الاحتياطية الأكثر أهمية في مكان آخر في السيارة، ربما تحت واقية الصدمات، أو داخل مقعد، والقسم الذي ظن هذان الأبلهان أنهما سرقاها ليس في الواقع إلاّ الحصة التي خصصها لهما فهد. ليصبح الإنسان مجرماً لأمعاً يجب أن يكون متضلعاً بعلم النفس. - ولكي يبقى على ما هو عليه... المجد لهذا القدر فهد الحسّاد! وليرحمه الله.

سمح لي تبادل ذاك المزاح بأن أخفي أفكاره الحقيقية: شعرت بخشية عظيمة، حين اكتشفت البحر للمرة الأولى. هل سأعهد بمصيري إلى تلك الأمواج؟ لماذا لا ألمح مصر من الجهة الأخرى، في الأفق؟ تبدو المسافة، على خريطة، بسيطة جداً... حين كنتُ في حوض السباحة، لم أكن أرفع رجلي عن الأرض الثابتة مطلقاً؛ واجهت هذا الاختبار بقلق.

وجب عليّ أن أحرم مرافقيّ من الأفيون طوال يوم كي يشحذا فكريهما ويتذكرا عنوان صاحب مركب العبور المسؤول عن إبحارنا بحمولتنا إلى الأرض المصرية.

حين التقينا بالرجل، وهو بحار طويل القامة، أسمر، بلون سمك الطراخور المدخن، أعطانا موعداً يوم الاثنين التالي، في منتصف الليل. وصلتُ ذاك. المساء، وأنا أرمق الأمواج السوداء، العميقة والعدائية. «فكرت أن هذا قبوري، وأنا أقطع بنظري الحجر المتحرك من

الممرم القاتم الذي يمتد إلى ما لا نهاية. بعد عدة أيام، سأكون طعاماً  
للأسماك. لقد أكلت منها الكثير، وahan الآن دوري لتأكلني».  
اقترب البحار، مبتسماً.

- إنكم محظوظون، سيكون الطقس لطيفاً كأنسة...

- ما معنى ذلك؟

- هذا يعني أنه حتى أنسة مرهفة لن تمرض في ظروف كهذه.

- آه، الأنسات، إنهن قادرات على الحبل والولادة، يجب ألا  
نستند إلى ضعفهن! ليس هناك رجل قد يتحمل ما تعانیه امرأة... فهي  
تحمل طفلاً يثقل على مثانتها طوال تسعة أشهر وتخرج من بين ساقيها  
رزمة تزن أربعة كيلو وتحرق أحشاءك، هل تحب أنت ذلك؟ بالدماء  
وبالصرخات وبالسوائل المشبوهة؟ حسناً، هنّ يحرصن على ذلك!  
وأسوأ ما في الأمر، أنهن يُعدن الكرة! إذا طقس أنسة، شكراً... هل  
تحملت عملية قيصرية؟

تفحصني، وقد فوجئ من كلامي الذي لم يفهمه. انتابه شك، من  
ملامي، بالفعل كنت قلقاً.

- اطمئن، إنه بحر من الزيت.

- آه، أجل؟ من الزيت المغلي، أليس كذلك؟

أشرتُ إلى الريح التي تجعد رؤوس الأمواج.

رفع كتفيه ونادى حاتم وحبيب لمساعدته، فشرع الثلاثة بحمل

السيارة إلى سطح المركب.



أثناء تلك العملية، لم أستطع أن أحول نظري عن الأمواج. فمجرد رؤيتي سطح الماء المتراقص وغير الثابت، أشعرتني بضيق وانزعاج. جلست القرفصاء، وأنا مثبت العزيمة، كي أدلك كاحليّ. ثمّة كحة خفيفة بالقرب مني، تلتها كحة أخرى أكثر إلحاحاً، وإن لم تخلُ من الخجل فقد أشارت لي عن حضور والدي ورائي، واقفاً على الزورق. - إلى اللقاء، يا ابني، سأجرك في الطرف الآخر. -  
- كلاً!

- عراقي فوق مركب، شيء غير مألوف، شأن دجاجة عند طبيب الأسنان أو شأن أحد سكان إيقوسيا في حفلة خيرية. -  
- رافقني، أرجوك.

- ليست قدمي ثابتة على سطح المركب. أخشى أن آخذ القيادة مكان هذين المخبولين، حاتم وحييب، اللذين يتقيان حولنا منذ خمسة عشر يوماً.

- لكنك، لن تتقياً، يا أبي: أنت ميت.

- أن يكون الإنسان ميتاً لا يمنع عنه الذكريات السيئة، بل على العكس، يجعله ذلك أسيراً للذكريات السيئة. لن تحملني على الصعود إلى مركب رديء مطلقاً، نقطة على السطر. موعدنا في الجهة الأخرى. سأذهب إلى مصر بطريقي الخاصة.

اختفى فجأة هارباً، وقد فلت من هيمنتني.  
صرخ طويل القامة ذو الجلد المحمر:

- فلنبحر!

انترعتني أربع أيدي من وهني وألقت بي على سطح المركب.  
بعد شتائم كثيرة تلتها صلاة، شغلَّ البحار المحرك بينما كان  
حاتم وحبیب يحلان جبال المركب. عمَّ الهواء المالح عطرًا حامضًا  
مشبعًا بالبنزين.

راح المركب يتأرجح ويترنح، مهتزاً من جانب إلى جانب آخر.  
تقدم، بطفرات، وهو يبصق وينفث، ويحشرج، مبتعداً عن أرصفة  
الشواطئ. كان يتمايل ببطء. أحسست أنه أوهن من قشرة جوز ولن  
يتوصل إلى شق الأمواج الصغيرة التي تططبب في المرفأ؛ مع ذلك كنتُ  
مطمئناً على نفسي لأنني لم أكن أتألم كثيراً من ابتعادي عن اليابسة.

ثم هدر المحرك، فأسرع المركب وأصبح تمايله المركب  
واهتزازه أبطأ وأطول وأهدأ، فشعرت بأنني أرتفع نحو السماء؛ بدالي  
ذلك مسكراً، خلال ثانية، فظننت نفسي على جؤجؤ سفينة ضخمة،  
شأن باخرة منحوتة، عظيمة ومزهوة تنظر إلى المحيطات من عل، لم  
أعد خائفاً، فأنا على وشك أن أغزو العالم، حين قفز فجأة قلبي من  
صدرتي حتى شفتي.

انهرت على الأرض، وأنا أحزق وأتقيأ الصفراء. لم تعد أعضائي  
تستجيب لي. تجمدت في مكاني. سال رصاص الشلل عليّ.

- يا إلهي، اجعلني أموت! يا إلهي! في الحال!

حينذاك، أمسكتني يد من كتفي وأرغمتني على التراجع؛ لمحت

وجه حبيب الضاحك، والذي عرض عليّ بعض الأفيون وهو يسخر مني.

فقبلت، دون تردد، بحركة من جفنيّ.

مد لي غليونه. فامتصصته بحمية وأحسست، بسرعة، أن ألمي قد خف.

بعد خمس عشرة نفخة، هلل القارب بمن فيه بارتياحي الجديد، فارتفع فوق المياه، وبسط أشرعتة، واشرب نحو النجوم، وهو ينغرز مباشرة في القمر.

كنا نظير.

وحبيب يضحك.

لقد رفضنا المحيط المرعب لنعوم بين الاثنين أي الماء والسماء. لم يعد مركبنا يهتز. فحين وصلنا في علونا على غيمة صغيرة وحيدة، وبديته، بدت معلقة في الهواء، تفاجأ أحدهما وارتجف حين رأنا، فضم فخذه خوفاً وهرب، بيقظة تفوق سرعة السمك النهري.

صرخ حاتم قائلاً: « يارجل، آه يارجل»، لكن الغيمة لم تلتفت.

بعد قليل، انحنى القمر نحوي وابتسم لي ابتسامة رقيقة، فذكرتني عيناه بعيني أمي، كما ذكرني فمه بفم ليلي. أظن أن القمر قد حاول معانقتي حين هبت ريح دفعت قاربنا، فمنعته من ذلك.

لا أذكر ما حدث فيما بعد...

بعد أسبوع، أنزلني حبيب وحاتم، وأنا في شبه غيبوبة، إلى مكان تسليم البضاعة، وهو مرآب ملوث بالشحوم يقع في ضاحية من ضواحي القاهرة، في منتهى الفساحة والصخب والحيوية المشبعة بمختلف الروائح، ظننت فوراً أنها وسط المدينة.

- إلى اللقاء، يارجل، كان السفر معك ممتعاً.

- الوداع، يا سعد. نأسف لعدم استمرارك معنا، فلقد شكلنا فريقاً

جيداً.

إليك نصيحة واحدة: لا تمس الأفيون ثانية على الإطلاق.

- تجنب ذلك، يارجل، تجنبه. فهو ذو تأثير خطر جداً عليك...

- بقيت في حالة جمود تام، بهذيان كامل! كدنا نحسدك عليه،

أليس كذلك؟

- أجل، نحسدك عليه، يارجل، نحسدك عليه!

- بمجمل القول، إذا غيرت رأيك، سنأخذ السيارة من جديد

خلال أسبوع لنعود إلى بغداد. اتفقنا؟ بعد أسبوع. في انتظار ذلك،

سَلِّم على والدك من قبلنا.

- أجل، يا رجل، قبل والدك من جهتنا. إنه مضحك، العجوز،  
مضحك...

اللعنة، كم ضحكنا وتسلينا!

سرت طوال ساعات كثيرة، مباشرة أمامي، كي أتأكد من عدم  
الوقوع عليهما ثانية، وأنا أسلك شوارع مجهولة وأقطع طرقاً بنيت على  
دعائم فوق طرقات أخرى وأحادي بنايات لا تُحصى بأحجار زوايا  
جعلت الطوابق الأخيرة غير منتهية كي تُضاف إليها أبنية أخرى على  
مدى السنين، ساعياً إلى أن أمحو من ذاكرتي أي معلم يتعلق بالمكان  
الذي تركاني فيه.

لماذا تحدثنا عن أبي؟ هل ظهر لهما؟ هل سمعاني أحاوره أثناء  
هذياني؟

على كل حال، أين هو؟ أدركت أنه لم يزُرني منذ أيام كثيرة.  
جلست بالقرب من فوهة أحد المجاريير ونزعت حذائي ودلّكت  
قدمي. لم يأت أبي. أعدت الكرة، عبثاً.

هل حرد عليّ بسبب الأفيون؟ هل أخفق في عبور البحر الأحمر؟  
كيف يتنقل الموتى؟ هل فقدته وأنا أعتلي المركب فوق المياه؟ هل  
خرّبت المخدرات إمكانية عودته؟

رجعت إلى مشيتي الهائمة، وأنا خجل.

كان أساتذتي قد وصفوا لي القاهرة بأنها مدينة شاسعة، وهذا ما  
كان بعيداً عن الصواب: ففي الواقع، تمتد القاهرة على مسافة عريضة

جداً، حتى إنني لا أستطيع أن أصل إلى حدود تلك الفساحة مطلقاً. حين يحط الإنسان رحاله في العاصمة المصرية، يجب أن يتخلى عن فكرة الهيمنة على المكان وأن يُضحى بهذا الشعور الريفي والموغل في القدم، وهو معرفة أين هو دائماً وإلى أين هو ذاهب ومن سيلتقي. كنت سكرأ بحريتي الجديدة، مندهشاً بأنني لم أعد أخشى هجوماً انتحارياً أو اعتداءً أو قصفاً، كنتُ سعيداً في أن أرفع ناظري نحو السماء حيث لا تحلق طائرات مروحية عسكرية، مغتبطاً بالمشي على أرض بلا أنقاض ولا حصى ولا مسامير ولا عوارض ولا عظام مشبوهة، كنتُ راضياً بالسير، رافعاً أنفي إلى الريح، لأكتشف القاهرة بقدمي.

كان صخبها يسحرني وتلوثها يُبهجنني فأتأمل طبقة الضباب الأصفر التي تتوج السطيحة شأن إكليل ثمين من الغبار الذهبي. تعرفت فيها إلى العطور الرفيعة والحسية والقوية التي تمتاز بها مدينة غنية. كنتُ أنظر، بنشوة، إلى الناس يخبون ويقودون سياراتهم ويشغلون ويتكاسلون. كنتُ أراقب ما حولي دون أن أشعر بأنني مراقبٌ. وبيضعة دولارات بقيتُ في جيبي، استطعت أن أكل؛ فبين صلواتي الست التي كنتُ أؤديها، بدقة، رحلت أجول في الطرقات؛ وفي المساء كنتُ أنهار تحت بوابة لأنام.

كنت تائهاً في القاهرة وفي غاية السعادة، في أن أضيع وقتي أيضاً. بعد أربعة أيام لم يعد معي إلا دولار واحد. كانت قطرات العرق

تغطي جبيني، وكشعرات تجعل شعر ذراعيّ ينتصب. سعد، ماذا أصابك؟ أنسيت المهمة التي أوكلتها إليك أمك؟

كانت دمائي قد بددت تأثيرات الأفيون المخدرة فأدركت أنني قد وضعت مشروعني في خطر. بحثت في كيسي، فوجدت العنوان، وقد سجل على قصاصة ورق، فسألت المارة كيف الوصول إلى هناك. وبعد إخفاقات كثيرة، بدّلت الدولار الذي هو معي مقابل بعض الأوراق النقدية المحلية وأمرت تكسي غير مرخص بإيصالي إلى هناك.

سار بسيارته مدة طويلة جداً، عبر مناطق كثيرة مجهولة، حتى خشيت أن أكون قد سلمتُ مصيري إلى محتل.

حين وضعني أمام لافتة «مفوضية الأمم المتحدة العليا للاجئين»، تنفست الصعداء ودفعت أجرته وقفزت إلى الرصيف.

أما كيف تخيلت المشهد؟ أعتقد أنني كنت أرى نفسي في أحلامي وأنا أضغط جرس منزل فخم وفسيح حيث يتسارع موظفون مهذبون ليدخلوني؛ استقبلني فوراً أمين سر الأمم المتحدة، وهو موظف عالي المستوى في مكتب ظليل، حدثته فيه عن قصتي وآلامي ثم منحوني وضع لاجئ؛ بعد ذلك، تعكر المشهد لأنني لم أكن أعرف ضبط إيقاعه؛ فلنقل إن نساءً لطيفات قدّمن لي وجبة، بل وجبتين ثم أقمّتُ في غرفة بسيطة لكنها أنيقة طوال بعض النداءات الهاتفية؛ أخيراً استقبلني ثانية أمين السر الرفيع للأمم المتحدة ليسلمني أوراقاً نظامية، وتأشيرة خروج، وكذلك بطاقة طائرة إلى لندن، وهو يعتذر مع ذلك

بسبب القيود المالية التي حالت دون إعطائي بطاقة في الدرجة الأولى.  
هذا ما حلمت به ألف مرة. سيرهن الواقع لي أنني عديم التخيل  
إلى أقصى الحدود. أجل، عديم التخيل، بعلامة صفر واضحة، إنني  
راسب! كنتُ على وشك أن أكتشف أنني لم أتمّ ذاكرتي لكنني نَمَيْتُ  
غبائي.

في الشارع حيث أوصلني السائق، كان هناك مئات من الزوج  
أمام الوكالة يتسكعون وينامون وينتظرون. قطعُ مرات كثيرة قارعة  
الطريق لأفهم ما يحدث. كانت أفريقيا الذليلة كلها تقف هناك،  
فمن ليبيرين وأثيوبيين، وصوماليين، وسودانيين، وسكان من دنكا  
في السودان ذي حوض عالٍ، واقفين على سيقان طويلة جداً ومن  
سيراليونيين ذوي الأعضاء المبتورة، وأسر بكاملها هربت من مذابح  
رواندا وبوروندي.

للحظة، اصطدمت بشاب زنجي ذي عينين واسعتين جداً.

- آه، عفواً.

نظر إليّ دون أن يفقه شيئاً. ألححت قائلاً:

- عفواً، لقد صدمتك.

فتح جفنيه. أشرتُ له نحو البناء.

- كيف الدخول لإجراء مقابلة؟ هل هناك رتل؟

انفجر ضاحكاً ولاحظت أن لثته ذات لون وردي وطرأوة لا

تصدّقان، وليس فيها أسنان إلا من طرف واحد.



صرخ قائلاً:

- أنت، وصلت توأ إلى القاهرة!

- أجل.

أمسكني من ذراعي، كأننا كنا نعرف بعضنا منذ الأزل وشرح لي ما ينتظرنني ونحن نتجول. فبالرغم من أنني كرهت ما أعلمني به، لكن العذوبة التي اتسمت بها روايته للمعلومات قد خففت غضبي: كان عليّ أن آخذ رقماً يسمح لي خلال عدة أيام أن أتسجل لأحصل على موعد، موعد، موعد يتم بعد ستة أشهر، ومنذ الآن حتى الموعد، لا يحق لي أن أستأجر مكاناً لأسكن فيه ولا أن أشتغل.

- عفواً؟

- كلاً. لا يحق لك أن تعمل.

- وماذا أفعل لأقتات؟

- كما يفعل الجميع، تشتغل.

- ولكن إن كان لا يحق لي أن أعمل؟

- ستعمل! عليك إذاً أن تشتغل كثيراً لتأكل قليلاً.

أشار وهو يضحك إلى مئات الأفارقة المتجمعين حولنا وأضاف

قائلاً:

- إن اليد العاملة ليست غالية الثمن، هناك المنافسة! ويتفاهم

أنصار الاسترقاق بشكلٍ مدهش مع اليائسين، فالجميع عديمو الذمم.

استمر في الضحك وقدم لي يده الغريبة ذات الأصابع الطويلة

جداً، بلون الشوكولا من فوق وبلون الأسمر الفاتح من جهة راحة اليد،  
كأنها لا تلبس إلا نصف قفاز.

- أدمى بوبكار. لكنك إذا كنت تحبني، تسميني بوب.

- مرحباً، يا بوب.

- هل أدركت أنني أسود اللون؟

اعترضت قائلاً:

- ليس في كل مكان وأنا أريه باطن يده.

رفع حاجبيه بدهشة قائلاً:

- يا لك من عربي غريب، أنت. منذ لحظة، اعتذرت. والآن، أنت

تمزح. إنك شخص غريب الأطوار.

- آسف لكوني مهذباً.

- هل عندك مكان تأوي إليه؟

- كلاً.

- أقترح عليك المسكن الشاغر الذي احتلته.

في ذاك المساء، أخذني بوبكار إلى بناية للهدم، على حافة أرض  
قفر، ليست ببعيدة عن مكان رمي النفايات، إنه خراب يعود إلى نصف  
قرن أقله، وضع هو وليبيريون آخرون فيه حقائبهم، وكذلك فرشاً  
أخذوها من مكان مهممل وموقداً بالغاز. كان قدراً، ذا رائحة كريهة،  
صغيراً وحاراً.

في الأيام التالية، شرع بوبكار بلعب كان يسليه كثيراً: أن يصبح

مرشدي ونحن نقطع القاهرة كما لو كان دليلاً سياحياً رسمياً. درّبني على حياة أجنبي في انتظار الأوراق النظامية.

- كم معك من المال؟

- لم يبقَ معي شيء، يا بوب، لا شيء البتة.

- إذاً يمكنك أن تصبح (جيغولو) (\*).

- عفواً؟

- أجل، أنت وسيم! في نهاية المطاف، بالنسبة إلى رجل أبيض... في الواقع، يجب أن أقول رجلاً ضارباً إلى الخضرة لأنني أجدكم، أنتم معشر البيض، أقرب إلى الخضار منه إلى البيض، أليس كذلك؟ لا سيما العربي في الشتاء... حسناً، إذاً أنت وسيم وعندك أسنان كثيرة، فإذا ما اغتسلت يمكنك أن تعجب. لو كنتُ مكانك لكسبت مالي بهذه الطريقة.

- انتظر! لن أمارس العهر...

- من يحدثك عن ذلك؟ أقترح عليك أن تكون (جيغولو) في

مرقص، أي في نادٍ للنساء. لست مجبراً على مضاجعتهم، أو على التظاهر بذلك، ما عليك إلا أن تجالسهن في المشرب. تسرق قبلة حين تسنح الفرصة، وتلمح إلى أنك تتمنى المزيد. بمعنى ما، تكون مرافقاً لنساء وحيدات. وهذا شيء لا غبار عليه.

---

(\*): Gigolo : شاب عشيق تتعده امرأة أكبر منه سناً (الترجمة).

- كيف تريدني أن أتوصل إلى ذلك؟ فلباسي رديء وإنني أثير الضجر، ولا أعرف أحداً.

استدار على نفسه وقام بمشاهدة رشيقة، شأن قط مغتبط.

- ليس هناك مشكلة، يا سعد: إذا قمتَ بدور (الجيجولو)، فسأصبح قوَّادك. مقابل خمسين بالمئة مما تريح، سأؤمن لك الملابس اللائقة والعناوين الجيدة.

- أنت تمزح؟

- كلاً.

- بلى! عشرة بالمئة، وليس خمسين.

- ثلاثون بالمئة.

- عشرون بالمئة. إنها كلمتي النهائية.

- عشرون بالمئة؟ هل تعرف قوَّاداً يأخذ عشرين بالمئة؟ سأكون

أرخص قوَّاد في العالم!

- بلا شك، وأنا، من جهتي، سأكون كذلك أرخص (جيجولو) في

العالم!

رنتَ ضحكة لتوقع على اتفاقنا.

اختفى بوبكار عدة ساعات، في فترة بعد الظهر وعاد يضم إليه منديلاً يحوي في طياته قطعة من الذهب.

- يا بوب، هل تملك ذهباً؟

- لقد سرقته.

- يا بوب!

- اطمئن، سرقة من سارق. إذاً، لستُ بمجرم لكنني نصير العدالة.

- تريدني أن أصدقك؟ من نهبتَ؟

- حفار القبور.

- المسكين...

- إنك تمزح؟ فهو نفسه يجرد الموتى.

- ماذا؟ هل يُدفن الموتى بأموالهم، هنا، في مصر؟

- كلاً، بذهبهم. انظر: إنها سن!

بعد ساعتين، في أحد الأسواق، حين ارتديت ملابس جديدة  
لأؤكد في المرأة من دقة القص والخياطة، أدركت حينذاك وأنا ألبس  
القماش حتى منخاريّ صحة المثل القائل: «لا رائحة للمال».

- طقم أسود فوق قميص أبيض مشقوق، يا سعد، تبدو محترفاً!

بعد ذلك صحبني بوب إلى حي شعبي في القاهرة حيث أشار

إليّ بمدخل تعلوه أنوار النيون الحمراء والياقوتية مُظهرة «الكهف»،  
مرفصاً.

- هيا لقد وصلنا. تنزل إلى حلبة الرقص، ثم تستند بمرفقيك إلى

المشرب وتنتظر أن تعرض عليك امرأة أن تشرب معها.

- تعالَ معي.

- هل تمزح؟ أنا، لا يتركونني أدخل. فهو ملهى للضاربين إلى

الخضرة.

ترددتُ. لأن جدة الوضع قد أخجلتني، فحاولتُ أن أكسب الوقت.

- «الكهف»... يا لها من تسمية غريبة لمرقص، أليس كذلك؟

- كلاً، ليس لمرقص للنساء.

- إن اللواتي يدخلن لا يبدوون شابات.

- لا تحلم، يا سعد، لقد كُتِبَ «مرقص»، وليس «جنة».

نظر إليّ مطولاً وهو يدير عينين كبيرتين بميناء ناصع البياض أكبر من القزحية وبلون الكستناء.

- هل غيرت رأيك؟

مرت أمامنا قزمة تبلغ الثمانين عاماً، بجفنين طلياً بالكحل وبالزرقه وبجسم بلا خصر ولا رقبة يكلل رأسها شعر مستعار أحمر يثير الدهشة، وهي تترنح على كعبين رفيفين جداً. على عتبة المرقص، استدارت ورمقتني بغمزة تشجعني بها على لقائها قريباً. تأوهت.

- وأسوأ ما في الأمر أنني لست متحمساً على الإطلاق.

أمسك بوب بخاصرته كي لا تنفجرا من الضحك: فبفضل مزاجه المنشرح، أقنعت نفسي أن ما يبدو ليس خطيراً؛ وبعد تنفس عريض، قطعت الشارع لأدخل «الكهف».

كانت الفتاة المسؤولة عن غرفة الملابس، وهي طويلة القامة، بارزة العظام تشبه طائر المالك الحزين، قد تفحصتني بوقاحة، وهي تُقدر كل ستمتر تقريباً من عناصر جسدي. وبعبوس متكبر، أشارت

إليّ أن الفحص كان مقنعاً وأرتني، بحركة من منخاريها، السلم الذي آخذه.

حين نزلتُ، هاجمتني عطور النساء المداومات اللواتي يتنافسن بالعطور السكرية والزهرية والمسك والعنبر والمسك الرومي الفاخر وعطر الباتشولي: في الدرجة الأخيرة، شعرت بأني سكران. كان «الكهف» يبسط حلبة رقص فسيحة، بأرض خشبية مستديرة، وطاولات وكراسٍ مُعدة للشرب وكذلك للراحة. وكانت لمبات قصيرة بعاكسات النور تنشر ضوءاً ضعيفاً ووردياً وخفيفاً بينما كان مشرب طويل يشغل جدار أعماق الصالة ويحمل بعض أنوار النيون القرمزية التي تُضيف إشعاعاتها الماجنة إلى زجاجات الكحول القوية فتظهر طابعاً غرامياً أقرب إلى العدوانية. ثمة صدفات بحرية وشهوانية بشموع بنية تكمل الإيحاء.

في فجوة جدارية، من اليسار، تعزف فرقة موسيقية أنغاماً مألوفة بحزم متكلف وآلي، وهي تتألف من خمسة موسيقيين مسنين، بقمصان وبناطيل داكنة اللون ويجلد كجلد المومياء وبشعر مصبوغ. لقد جذب وصولي الأنظار نحوي. كان ثمة خمسون امرأة غاويات ومبترجات، مرتبات الشعر، بخصر مشدود في أثواب مناسبة للرقص ويرفرن برموشهن وهن يتفحصنني. لا شك أنهن كلهن قد رأين النور بين ولادتي جدتي وأمي. أراحني هذا التفصيل. شعرت، رغماً عني، بنفحة حنان نحو هؤلاء النسوة اللواتي أتممن

قسماً من حياتهن، تصورتهن بأولاد وبأحفاد وبأزواج ميتين، معاقين أو لا يطاقون. لمحتهن، مترنحات، مشيرات للشفقة لكنهن فرحات بالرغم من حياة مملة، وفجأة غمرني التعاطف نحوهن.

- من أين جئت، أيها الوسيم الكئيب؟

لم تنتظر القزما المتوقدة كي تصطادني.

- من بغداد.

- يا لحسن المصادفة، إنني أدعى شهرزاد. تعال، سأقدم لك قدح

بوطة بالفواكه وكأس شاي.

أخذتني كغنيمة إلى طاولتها. علقت متدمرة دمية شقراء عجوز لم

تحسن إخفاء فيض سمرة الأجساد المؤلم في فستان «ساري» هندي،

هذه الأجساد التي تغذى بقطع الراحة والعسل قائلة:

- القبيحات هن اللواتي يتمتعن دائماً بقدر كبير من الجسارة.

منذ تلك اللحظة، رحت وأنا بساعات فترة بعد الظهر في

«الكهف». فبالرغم من أنني كنت أرقص قليلاً - وبشكل رديء، راحت

الزبونات يتهافتن على رفقتي. وعلى خلاف (جيغولو) آخرين كانوا

يؤدون دورهم أفضل مني - بغمزات فتاكة، وخطوات رقص ممتازة،

وتكلف مغر، ولطف دقيق - كنت مقدراً لعفويتي الهادئة وللطفي

ولذاكرتي التي تحتفظ بكل حديث ولأنني كنت بلا شك الرجل الوحيد

الذي لا أرغم ذاتي على الابتسامه لهن. في الواقع، كنت أشعر بالمتعة

من وجودي في نادٍ لصديقات قديمات.



فالنساء اللواتي كنَّ يرغبن فيّ أكثر مما أقدمه لهن نادرات. ففي عتمة «الكهف»، بعد ساعات من الاستعداد وهن يجعدن شعورهن، ويبتن أعناقهن بطوق الكلب، ويرسمن وجههن بالطلاء، ويشددن بطونهن بمشدات ثم يرتدين ملابس ضيقة تمنحن مظهراً متناسقاً، كنَّ يعلمن حق العلم أنهن يخلقن وهماً؛ فحين ينسلن إلى المرقص، يدخلن مسرحاً كل ما فيه زائف، أنا، وهنّ، والراقصون، ومغازلاتنا، والجمال الساحر؛ فحين ينسبن إلى الحلبة، يصبحن ممثلات، ممثلات لأنفسهن، يمثلن جمالهن ورشاقتهن وصباهن. ليس هناك واحدة تغامر بغباء بقطع المشهد كاشفة عن لحمها.

كان بوبكار مبتهجاً: كنت أحمل فتات طعام إلى ماوانا. أما رفاقنا الأفارقة فيعانون صعوبات هائلة للاستمرار في الحياة، لأنهم يخشون مغادرة الشقة إلى السطوح العالية المصبوبة. وليتجنبوا مراقبة الشرطة وتفتيشها، كانوا يفضلون أن يقبعوا بين كسوة خشب الأكاجو المنتزعة وبقايا الأرض الخشبية وكوم الحطام. أما بالنسبة إلى الشجعان الذين يغامرون في الخروج، فحين لا تطردهم العنصرية - الزوج القذرين - يستغلهم أرباب عمل مقيتين لا يعترفون لهم لا بحق الاستراحة ولا بدفع أجره مقبولة ولا بحق الاحتجاج، فلا حق لهم إلا حق السكوت. يُضاف إلى ذلك عائق يعود إليهم: وهو أنهم يرفضون تعلم العربية المصرية لأن ذلك قد يعني أنهم يقبلون البقاء في هذا البلد. انتهى الأمر ببوب إلى فرز القمامة، وكان هذا العمل يمنحه، بصعوبة، وجبة هزيلة.

في الليل، وقد يحدث أحياناً أن يشرب الأفارقة بيرة فيروchon  
 يروون لي «الأصل». نسمي «الأصل» القصة، التي يقطعها سعال  
 رديء والتي تشرح لماذا انتهى كل واحد منا هنا إلى هذا الدرك.  
 كانت «أصولهم» تثير الهلع في نفسي. وبالمقارنة، فإن طفولتي في  
 العراق وأحزاني وبؤسنا والفوضى التي هربتُ منها، يبدو كل ذلك  
 كحكاية الجنيات وكفيلم هندي. فعين أصغي إليهم، أرى فرق تايلور  
 العسكرية في ليبيريا الجديدة، تقتل النساء والشابات بعد أن تغتصبهن  
 وتُقطَع بالساطور أذرع المسنين وسيقانهم ثم تقتل الشبان برصاص  
 الكلاشنيكوف. كان بوب وحده صامتاً كالمعدن، لا يمكن اختراقه  
 حتى إنني لم أعرف قط إن كانت الأسنان التي تنقصه بسبب عنف ما  
 أو من سوء عناية.

وبالمقابل، كان «الكهف» يقدم لي مأوى تافهاً ومحبباً. أدركت،  
 بسرعة كبيرة، أن عليّ أن أتجنب إدخال تلك القصص الحزينة في  
 ثرثرتي مع السيدات المصريات؛ على كل حال، لم أكن أحتاج إلى  
 الحديث، كان يكفي أن أصغي إليهن، ومن حين إلى آخر، أحدثهن عن  
 أنفسهن.

في أحد أيام السبت حيث أديت رقصتي «مامبو» وثلاث رقصات  
 «تشا تشا تشا»، كنتُ على وشك أن أنزوي في ركن معتم، بين المشرب  
 والمراحيض الرجالية، خلعت حذائي، ودلّكت قدمي.

دوّى صوت إلى جانبي:

- حسناً، يا ابني، لم أكن أتوقع لقاءك في هذا النوع من الأماكن  
الحقيرة...

- يا أبي، أخيراً ها أنت هنا من جديد. أين كنت؟

- لا يحق لي أن أجيب عن تلك الأسئلة.

- كم أنا مسرور من رؤيتك بعد هذه الأسابيع! ألا تزعجك

مرافقتي هنا؟

- آه... أسمح لي، إن هذا يسليني... لأول مرة تصحبني إلى مكان

مسلٍ! لم تتح لي الظروف، وأنا حي، أن أدخل هذه الأماكن.

- طبعاً! لا توجد تلك الأماكن في العراق.

- ليس ذلك مؤكداً! هل الأمور جيدة؟

- خاملة. بقدر اهتمامي. يتركون لي البخشيش.

- سعد، يا لحمًا من لحمي، ودمًا من دمي...

- كلاً، يا أبي، لا أريد خطباً ولا موعظة. هنا، لا أرتكب أي سوء.

- كلاً، إنك لا ترتكب أي شر، إنك لا تفعل شيئاً. لا شيء البتة.

لا يمكنني أن أنتقد ما تفعل، لكنني أستطيع أن أسف بالضبط على أنك

لا تفعل شيئاً.

- إن مصيري معلق، يا أبي: أنتظر موعدي في مكتب الأمم

المتحدة. حتى ذاك الموعد، عليّ أن أكل، أليس كذلك؟ ثم إنني أرسل

حوالات إلى أمي، إلى بغداد.

- هذا صحيح... وقد استند بمرفقيه إلى المشرب، ومع أن كانت

النسوة كنَّ في وضع لا يسمح لهن بأن يرونه، فإنه لم يستطع أن يمتنع عن أن يأخذ أوضاعاً جذابة، أو أن يصقل شاربيه وقد برق نظره.

- آه، هيا، انظر إلى المرأة الضخمة، هناك، بشعرها البرتقالي. ألا تذكرك بالسيدة عزة باكير؟ شيء لا يُصدق! ألا تريد أن تذهب لتسألها إن كانت من تلك الأسرة؟ أتذكر أن للسيدة عزة باكير أختاً من أمها في مصر. اذهب واسألها.

- ماذا تريدني أن أقول لها؟ إن شبح والدي يجد أنك توحى إليه بالسيدة عزة باكير؟

- آه أجل، بكل تقاطيعها!

- يا أبي، ستظن أنني مجنون أو تعتقد أنني أغازلها.

- لن تلتهمك.

بالرغم من بعض التظاهر بالفضيلة، كان والدي يحب كثيراً أن يلاقيني في حلبة الرقص. حين أفكر في تلك الأشهر التي أمضيتها في «الكهف»، يصعب عليّ التعرف إلى ذاتي: ذلك أنني لا أجد في نفسي سعد الأمس ولا سعد اليوم، لكنني أجد كائناً موقناً لا علاقة له بتطلعاتي؛ لا يتأثر بجاذبية تلك السيدات المسنات اللواتي كنتُ أدعوهم إلى الرقص، بأدب وحزم وحرفية، كنت أعيش بالقرب من ذاتي. بما أنني قد قررت أن أقطع القاهرة كمحطة وقوف للذهاب إلى لندن، كنت أمضي حياتي كذلك فيها. كان يهمني موعد وحده.

أخيراً حان هذا الموعد. حين لمحت اسمي في «مفوضية الأمم

المتحدة العليا لشؤون اللاجئين» معلقاً في القوائم، بتاريخ، وساعة، ورقم المكتب، ظننت نفسي سأنهار من الفرح. نشطتني الثقة، سأنجح، وسأحصل على وضعية لاجئ.

في صباح الموعد تصرف بوبكار كمدرّب.

- املاً المركب، يا سعد، خذ أولاً الفظائع، أضف إليها بعض الأشياء، استعر مصائب من عندنا، مني ومن الرفاق، خذ كل شيء على عاتقك. ولأففي نظر موظفي الأمم المتحدة هناك دائماً أحد ما أكثر بؤساً منك.

- يا بوب، لا أريد أن أكذب.

- يا سعد، ليس الموضوع هنا أن تتسلم شهادة بأنك رجل شريف، ولكن وثيقة ضحية. يجب بخاصة ألا يحسبوك لاجئاً رديئاً، ولا مستغلاً.

- أعتقد أن قولي للحقيقة، يكفي لمنحي لقب لاجئ.

- سعد، لا تكن ساذجاً. إذا شرحتَ لموظفي الأمم المتحدة أنك تهرب من الفقر، وأنت تريد أن توفّق بعمل وترسل مالا إلى أسرتك كي تستمر في العيش، فهذا لا يثير اهتمامهم. إنهم يحتاجون إلى عرض، إلى فضائح سياسية، إلى القتل والقتل الجماعي، إلى دكتاتوريين يثيرون جيوشاً من الأنذال الذين يحركون الساطور أو الرشاش. فإذا قيل إننا نموت جوعاً، فهذا لا يكفي. فالموت بمنجله والمجاعة وعدم الأمان وغياب المستقبل، كل ذلك لا يُقنعهم!

- لن أغش بكلمة واحدة. إذا كنتُ قد غادرت العراق، فلأنني أبحث عن حياة مستقيمة وبدون تسويات.  
- إنك ترهقني. هيا، من الأفضل أن تعطيني العشرين بالمئة التي تخصني.

- خذ.

- ماذا؟ هل هذا كل شيء؟

- (جيغولو) في الحد الأدنى من الخدمة، كنتُ قد نبهتك إلى ذلك. (جيغولو) بلا طموح. لجني القطع النقدية الكبيرة يجب أن...  
- ولكن من قبل، كان السيد سعد سعد يدر مالاً أكثر! إلا أن السيد سعد سعد لا يخفض بنطاله، على علمي؟

- منذ أن سددتُ لك استثمارك، أتوقف بعد ثلاث زبونات وأصغي إلى الموسيقى.

- أعرف أنك لست موهوباً... ولكن ليس إلى هذه الدرجة!

- بوب، وأنت، لست كذلك موهوباً كقواد!

- أنا؟

- نعم. وإلاً لكنتَ سحبت حزامك وجلدتني حتى الموت.

- أشير إليك أنني أبدو مغفلاً إن كنت ألبس حزاماً فوق ملابسي!

مع ذلك، أنت على صواب، نبقي هواة، أنا وأنت.

أطلق زفرة ثم أضاف، بمرونة، وهو ينحني:

- اصغِ إليَّ أقله في تفصيل واحد. ارتدِّ لموعدك ملابس الفقراء  
وليس ملابس (الجيجولو). هل تقسم على ذلك؟

كي أدفع باب المكتب رقم ٢١ حيث ينتظرنني وراءه موظف  
الأمم المتحدة الذي سيقمر مصيري، أخطأتُ مرتين.

المرّة الأولى حين أوشكت على دق الباب، توقفت عن الحركة  
لأنني شعرت بأنني سأنهار. إنه الخوف! إنها خشية الهلع من المجابهة،  
وقلقٌ من الإخفاق... بلحظة، غطى العرق جسمي وتقطعت أنفاسي  
وكانت رائحتي كريهة. فبدون تردد، ركضت إلى المراحيض وتقيأت  
فظوري واستعملت لفافات الورق كي أنشّف جسمي.

أمام المرأة التي هي فوق المغسلة، رأيت سعداً ضارباً إلى  
البياض، بشفتين رخوتين، وجفنين تعبين، ثم، حين غسلت أصابعي،  
لمحت أبي يتسلل ورائي.

- سعد، يا لحمًا من لحمي ودما من دمي وغبار النجوم، كيف  
يمكنني أن أساعدك؟

- هل عندك دواء ضد الهلع؟

- أجل. صف لي بماذا تفكر.

- أفكر أنه، وراء الباب، ينتظرنني مصيري. فالمرأة التي ستطرح  
عليَّ أسئلة - وأعرف أنها امرأة من مضييفة الاستقبال - تلك المرأة هي  
ساحرة تمسك حياتي بين يديها. فبحسب ما ستفكر بي، تصبح جنية أو

ساحرة، طيبة أو قاسية، لأن باستطاعتها أن تحولني إلى محام إنكليزي أو إلى خنزير يغوص في قذارته.

- هيا. وقد قلت الآن ذلك، ستسير الأمور سيراً حسناً.

اختفى. رجعت إلى الممر الذي يقودني إلى موعدني.

بعد عدة ضربات على مصراع باب المكتب ٢١ تلقيت أمراً

بالدخول.

بينما كنت أتقدم، لم تحرك موظفة الأمم المتحدة ساكناً، ورأسها منحني على أظبايرها، أشارت إليّ بإصبعها إلى الكرسي الوحيد أمام مكتبها، ثم صنّفت، وهي تتنهد، كثيراً من الأوراق في أظباير مختلفة وكدّستها وأخذت مستندات جديدة وبعض الأوراق البيضاء ثم قربت قلمها من الحبر إلى فمها.

حينذاك، وقد استعدت أخيراً، قررت أن تنظر في حضوري ورفعت رأسها نحوي، بعينين نبيلتين قائمتين يتوج رأسها شعر كثيف متموج ينسدل حتى كتفها.

- الكنية، الاسم، الجنسية، تاريخ ومكان الولادة؟

حين جلستُ وجدت اسمها مكتوباً على لاصقة تظهر محفوظة

أوراقها الجلدية: دكتورة سيرسيه.



٧

ذكرتُ هويتي وأنا أبسط لها الأوراق التي أتيتُ بها. كان رأسها منحنيًا على الطرف، فنظرتُ إلى أوراقها بهيئة متحفظة، أقرب إلى الشك، كأنها مرغمة.

بثانية انتابني حدس وهو أنها لن تساعدني مطلقاً.  
ابتسمتُ فجأةً ففكرتُ أنني قد أخطأت: كلاً، ليست أمامي عدوة.  
بعد أن سجلتُ في إضبارتها معطياتي الأولية، رفعت رأسها وسألتني وقلمها عالٍ:

- ارو لي ماذا دفعك إلى مغادرة بلدك.

- بلدي؟

- أجل، فالعراق بلدك.

- لا يُخيل إليَّ أنني ولدت في بلد ولكن في فخ. «بلدي»، تبدو

لي هذه الصيغة غريبة. «بلدي»! لا أنتسب إلى العراق، لم يستقبلني ولا منحني مكاناً خاصاً؛ لم أكن سعيداً في العراق على الإطلاق أو حينئذٍ بالرغم عن العراق؛ لست متأكداً من أن العراق يحبني، كما أن محبتي أقل من محبته. إذاً «بلدي»... لا يلائمني. بالأحرى صدمني التعبير...

ففوجئت بتأييدها لي. أسندت ظهرها براحة أكبر إلى مقعدها  
وطلبت مني بصوت عذب أن أتابع:

- إنني أشك تماماً بأنك لم تعد تحبه، هذا البلد، كما أنك تترك  
فيه أناساً أحببتهم، أحياء كانوا أم أمواتاً. احك لي كل شيء بدقة، من  
فضلك. سنأخذ ما يكفيننا من الوقت.

لماذا أتشبت بفكرتي عنها بأنها عدوانية؟ لماذا أوحى إليّ، فيّ  
بداية هذا الاستجواب، الشعور بالذنب؟ لم أكن مذنباً! وما الذنب  
الذي اقترفته؟

حتى تلك الساعة، لم يكن هناك شيء يثير الاحتجاج، أو مشكوك  
فيه، بما أنها تمتنع عن التعليق، اطرد، يا سعد، هذا الشك، ولا تستسلم  
إلى عقدة الاضطهاد، هذا الفيروس الذي عدى به صدام حسين شعبه!  
انتصب وكن واثقاً وأجب.

إذا رويت لها طفولتي تحت حكم الدكتاتور.

وبدون أدنى تحفظ، سجلت، بحمية، ما كنت أقول؛ لقد شغفها  
حديثي. ثم تطرقت إلى الحظر؛ هنا تابعت التدوين لكن حاجبها  
تقطبا وقطعت جبينها ثانياً. أخيراً، وصفت بإسهاب الحرب وما سُمي  
بالسلام بعد الحرب وموت خطبتي ومصير أخواتي...

كلما أوغلت في سردي شعرت باهتمامها يقل. أما زلت أشعر  
بالوهم؟ يا سعد، لا تكن حذراً! تابع. لكنه بدا لي أنها لا تقدر وصفي  
للمشهد؛ وبالتالي، لأقنعها، ألححت كثيراً على البلبلة والاضطرابات

والفوضوية وعلى ذلك الاعوجاج الذي يجعل الحياة من الآن فصاعداً  
مستحيلة في بغداد. راحت ركبته تتحرك تحت المكتب.

أتممت قصتي بمقتل أبي وأزواج أخواتي بصعوبة لأن الدموع  
كانت توخر جفنيّ وتهز صوتي، لا سيما احتضار الطفلة سلمى.

سجلتُ وهي تركز على هذا الحدث الأخير عدة جمل ثم نظرت  
إليّ، وهي مستعدة لتلقي التالي. فسر لها سكوتي بأن الحكاية قد  
انتهت.

تنحنحتُ، ونظرتُ إلى السقف تبحث عن وحي - لم تجده -  
وتنحنحتُ ثانية، وحدقتُ إليّ.

بما أنها تأخرت في الحديث، قلت متعجباً:

- هل أنت طيبة؟

- كلاً، لماذا؟ هل أنت بحاجة إلى استشارة طيب؟

- لكن...

- بلى! أستطيع ان أرتب لك ذلك.

- شكراً، لا أحتاج إلى ذلك. أردت فقط أن أعرف...

- عفواً؟

- يا للغرابة. لمّ تشير بطاقتك بذلك «دكتورة سيرسيه» إن لم

تكوني طيبة؟

ابتسمت بارتياح.

- إنني دكتورة في علم الاجتماع. في الجامعة، ناقشتُ أطروحة،

وهي رسالة طويلة البحث تبلغ أكثر من ثلاث مئة صفحة وتؤهلني إلى حمل هذا اللقب.

غاصر كتفاي في جذعي وتكورت على الكرسي لأنني كنت خجلاً من نفسي. ماذا جرى لي، وأنا الطالب في كلية الحقوق، لأظهر سداجة كهذه؟ بسطت بلاهتي حرجي. اهدأ يا سعد، وركّز تفكيرك!  
- أين كان ذلك؟

- في الولايات المتحدة. جامعة كولومبيا.

- مع ذلك، فأنت لست أميركية؟

- أعتقد أننا لسنا هنا لتحدث مطولاً عني.

سكتُ. شعرت، من جديد، بأنني مخطئ.

بعد تنهد، بدت منها حركة ملل، وأخذت وقتاً لتفكر ثم نظرت إليّ.

- يا سيد سعد سعد، إنك تود الحصول على وضعية لاجئ

سياسي؟

- أجل.

- لماذا؟

- ألم تصغي إليّ طوال ساعة؟

- لماذا تطلب تلك الوضعية الآن؟

- عفواً؟

- كان عليك القيام بذلك في زمن صدام حسين.

- اعذريني، كنت أصغر سنًا حينذاك، ولم أكن مصممًا على الهرب من بلدي.

حركت رأسها برفق، ثم عبّرت بنبرة جافة:  
- يا للأسف.

- ماذا؟ ألن تنقلي إضبارتي؟  
- بلى.

- كما هي؟

- كما هي. لكنني أعرف النتيجة المنتظرة: سلبية.  
- عفواً؟

- يا سيد سعد سعد، أفضل أن أكون صريحة معك: لن تحصل بلا شك على وضعية لاجئ.  
- لماذا؟

- لأن العراق قد حرّر من الولايات المتحدة الأمريكية. لأن العراق بلدٌ حرٌّ اليوم. ولأن العراق يسير نحو الديمقراطية. لم يعد هناك مشكلة.

مكثت مصعوقاً. من غير المجدي المناقشة أكثر، أدركت الآن حدسي الأولي: لا تريد سيرسيه أن تصغي إلى ما أقوله لها! لم تكتب ذلك إلاّ بإهمال وريبة وأسف؛ والذين يعاينون تقريرها سيحذون حذوها ويقرأون بنظرة سريعة وريبة وأسف، وكشأنها سيعشقون البداية ويكرهون النهاية. ففي نظرهم، حرّر الغربيون العراق من نير دكتاتورته،

فهم يدينون الفوضى الناتجة، لكنهم لا يعتبرون أنفسهم مسؤولين عن ذلك، ويذهب بهم الأمر إلى أن يحكموا أن ذلك خطأنا، نحن، العراقيين، الذين لم نعرف أن نستعمل الحرية التي قدّموها لنا نحن العرب المتطرفين والمتوحشين والمنقسمين، فنحن أكثر ذنباً منهم. كيف لم أفكر في ذلك قبل الآن؟

كي لا أنفجر غضباً، استغرقتُ في تأمل كاحلي الأيسر وفكرت بوالدي.

- كم لي من الفرص؟

- يكاد لا يكون لك أية فرصة. فلنقل واحدة من عشرة آلاف.

- سأخذها! واحدة من مليون، سأخذها.

- افهم جيداً، يا سيد سعد، بالتعبير الإدارية، ابتدأت مراحل

المعاملة التقنية؛ لكنني أستشف الجواب وأريد أن أجنبك خيبة في حياة اتسمت بالبؤس. إن ما يحثني على تنبيهك هو دافع إنساني.

- دافع إنساني؟ هذا لطف منك في تحديده لي...

- أنت تُسيء فهمي لكنني لا أسخر منك، يا سيد سعد، ولا أحرص

على أن تُضيع وقتك ولا شبابك الثمين. لقد عانيت كثيراً من الآلام.

- هذا لطف منك. ما هي نصيحتك؟

- عد إلى بلدك، ارحل إلى العراق.

- أعود إلى العراق. لماذا؟ كي أنتظر الأميركيين والانكليز

يغادرونه، ثم أمل بأن يحتل دكتاتورٌ جديد البلد باسم الشعب و يقيم

تمثاله البرونزي في كل الشوارع العريضة، ويقتل معارضييه السياسيين، ليس كذلك؟ يجب أن أتأبر؟ يجب أن أحضر بعض مشاهد القتل أيضاً؟ يجب أن أصبر حتى يصبح الظلم صارخاً من جديد؟ يجب أن ينجح عسكري في إحداث انقلاب؟ وأن يجعل مسؤول أصولي السلطة خلية إرهابية؟ في رأيك، كم يقتضي ذلك من سنوات هناك؟ كم يلزم من الوقت كي ينجح نذل في القيام بذلك؟ خمس سنوات، عشر، خمس عشرة سنة؟ أعطني تقديراً ما كي أبرمج موعدي القادم هنا!

أهملت تعليقي الساخر وتابعت بنبرة عذبة:

- لا تكن متشائماً، ستتحسن الأحوال، وتلك قناعتي. لا تستسلم إلى ياس موقت. ابقَ مؤمناً ببلدك، ثق بالذين حرروه، ثق بقدرته في البناء من جديد بفضل مساعدتنا.

اجتاحني رغبة في أن أصرخ قائلاً:

«وهل يدفعون لك راتباً لتفوهي بتلك الترهات؟» لكنني أدركتُ إلى مدى كبير أنها كانت صادقة، برفضها سماعي وبرغبتها في رفع معنوياتي في آن واحد. كنتُ منهياراً، فسمعت نفسي أدمدم مستاءً:  
- لن أعود إلى العراق، مطلقاً.

مدت لي يدها، وشكرتني على زيارتي، مكررة على مسامعي أن الإضبارة ستُرفع من لجنة إلى لجنة بشكل أبلغ فيه بعد بضعة أشهر بالجواب.

تسمرتُ في مكاني، مترنحاً حين وجدت شمس الشارع.

- إذاً ماذا أفعل، أنا، كي أذهب إلى إنكلترا؟

بعد عدة ساعات، وقد حل الليل، وأنا مرهق من التعب، جلستُ على ضفاف النيل، تحت جدران صغيرة لفيلا فاخرة حيث تُقام حفلة راقصة على النور الذهبي للمشاعل؛ فمن موقعي، رحت أستشف من خلال الزرع بزّات بيضاء ومغشاة بالفضة كانت تدور حول نفسها على اهتزاز الطبول وجنون الزغاريد. كيف يمكن للمرء أن يبدو غير مكترثٍ على هذا النحو؟

لم يكن لي مكان في هذا العالم.

عند قدمي، راحت مياه النيل تمتد، بطيئة، هادئة، لامبالية.

لماذا لا أقفز؟ هل يمكن الانتحار في النيل؟

- كلاً، يا ابني، إنه قليل العمق. ولن يأخذك التيار بعيداً.

كان أبي قد لحق بي. ختمتُ كلامي بحزن قائلاً:

- إذاً الوضع سيئ...

- إذاً كل شيء على ما يرام!

جلس أبي بالقرب مني وهو يربت كتفي، كان متضايقاً ومرتبكاً وحنجرته تتمتم جملاً يهملها على الفور. وكعادته، يرى نفسه أخرق وهو يؤدي دور المعزي مادام يخشى أن يفقد خفته التي يتحرك فيها على هواه.

- يا أبي، لقد قتلوك والآن يقتلونني.



- كلاً، إنهم يقتلون أمملك. وهذا يقتل. ولكن بشكل أخف.  
حاول أبي أن ييصق بالماء، دون أن يتوصل إلى ذلك، ثم تابع  
قائلاً:

- في الوقت نفسه، يجب أن نقر أن أملك كان غيبياً، اعترف بذلك.  
بعد إذلالني، لم أقبل هذه النبوة المتعالية. هزني الغضب.  
- بالنسبة إليهم، كل شيء في مغطس واحد: لم يكتسحوا بلدنا،  
لقد أنقذونا؛ لم يخلقوا الفوضى في بلدنا، فهم يتعشرون بعراقيين غير  
قادرين على تلقي السلام. كنت أظن أن شأني مع منصفين؛ أدرك  
الآن أنني أتعامل مع غزاة. يا أبي، إنهم يكرهونني وسيكرهون دائماً  
الأشخاص الذين هم على شاكلي: فطلبي أن أكون لاجئاً يعني أنني  
تقيأت على عملهم، أنني أهينهم، وأشتهم، وأضعهم وجهاً لوجه أمام  
أخطائهم فأصبح، بالنسبة إليهم، غير محتمل.  
حرّك أبي قدميه من فوق الموج.

- اسمع، يا ابني، لن نمضي الليل في التأوه هكذا. إن كان ثمة  
مشكلة، فهناك حل.

- الحل هو أن أغرق في النيل!  
- يمكنك أن تقتل نفسك بسكين يقطع السمن.  
ضحك ثم أضاف:  
- أو تغامر بشرب كمية كبيرة من مغلي البابونج.

ضرب على فخذه قائلاً:

- إلا إذا شنقت نفسك بخيط العنكبوت.

بحركة، أوقفت هذيانه قائلاً:

- أتجد ذلك مسلياً؟

- أنا، أجل. وأنت؟ حسناً، يا سعد، لنبسط الأمور، هناك مخرجان:

إما أن تعود إلى البلد، وإما تتجاوز ذلك.

- العودة؟ إطلاقاً. هذا يعني الاستسلام للإخفاق.

- حسناً، كما ترى! أنت تعرفه، الحل! نتابع.

- نحن؟

- أجل، سأرافك.

في منتصف الليل، لحقت ببوب في المقر، وانزلت حتى فراشه

دون أن أوقظ الليبريين الآخرين. ففي العتمة، أعلمته بإخفاقي وبرغبتني

في أن أخط الطريق.

- ها نحن متساويان، يا سعد. لقد رفضوا طلبي كلاجئ.

- متى؟

- العام الماضي. لقد أخفيت ذلك عنك كي لا أثبط همتك.

- ماذا؟ أنت أيضاً؟ أسرتك تقتل تحت ناظريك، والعذابات

الجسدية، وفمك المجدوع، كل ذلك لا...

- يدعون أنني لا أملك أي إثبات مكتوب عن مولدي ولا عن

جنسيتي.

- بكلمة أخرى، يتهمونك بالكذب!

- هذا يلائمهم. لا يرون البتة ماذا قد تكسب أميركا بإيواء بوبكار بلا أي مؤهل، ولا شهادة علمية.

حك رأسه بإصبع قوية كأن هذه الحركة تساعده في إخراج أفضل الأفكار من رأسه.

- أنت تعرف، يا سعد، أن الدكتاتورية واضحة، أقله، ولعبتها مكشوفة: نعرف أن هناك سلطة مركزية، مطلقة، تمارس استبدادها بدون عقاب أو محاسبة. في الغرب، الوضع أشد مكرراً: ليس ثمة مستبد ولكن دوائر رسمية مسدودة وهناك أنظمة أطول من كل أدلة الهواتف وقوانين أعدها أشخاص طيبو النيات. حين تصل، تجد الأجوبة العبثية ذاتها! لا أحد يصدقك، لا مكان لك، ليس لحياتك أهمية. إذا تخلصت من حرصك على إرضاء الطاغية، تكتشف أنك لا تلائم النظام: فات الوقت، لست مطابقاً للأوصاف، تنقصك عناصر رسمية. هل ولدت؟ كلا، بما أنه ليس لديك شهادة ميلاد. أنت من أصل ليبيري؟ أثبت ذلك، وإلا ابقَ حيث أنت!

- تعالَ معي إلى لندن.

- كنت أفكر في الرحيل إلى القدس. يبدو أن الناس الذين هم على شاكلتي يتوصلون إلى العثور على عمل، ثم بعد أعوام كثيرة، ينتزعون وضعاً قانونياً لهم. عندي ابن عم عرض عليّ أن أعمل في غسل الأواني في مطعم. تعالَ معي.

- انس ذلك. إن عربياً ير حل ليقيم في إسرائيل، شأن سمكة تذهب لتسمر في الصحراء. الأفضل أن تبغني إلى لندن. حتى الصباح، بقينا نعد الخطط. تأثر كثيراً من عرضي له بالسفر معي، وانتهى الأمر ببوبكار إلى أن تبني وجهتي. ختم حديثه قائلاً:

- حسناً، أعطني مهلة عدة أيام. فسأبحث عما يمكن فعله. المهم، هو أن نضع رجلاً في أوروبا. بعد ذلك، سنتدبر أمرنا. حتى ذلك الحين، كن أكثر نشاطاً لتبسم لتلك السيدات، في «الكهف»، فسنحتاج إلى المال.

في الأيام التالية، لم أجد بوب إلا مساءً للعشاء - وجبتنا الوحيدة - في أسفل المقر. بينما كان يقطع القاهرة بحثاً عن وسيلة، رحّت أبذل قصارى جهدي لأستحق البخشيش إما أوفر عدداً وإما أعلى ثمناً. أخيراً بعد شهر من العمل المكثف، برز بوب أمامي عند باب المرقص.

- لقد نجحتُ: وجدت الوسيلة! اتبعني. كان واهناً ومضطرباً، وهو يدير حوله نظرة رعب ثم يضحك فجأة، وهو يجرنني في جولة لا تنتهي وصلنا إثرها أمام ملعب كرة قدم تحيط به مدرجات تستقبل آلافاً كثيرة من المتفرجين. - ها قد وصلنا.

- ماذا؟

- إلى طريقة هربنا.

بحثتُ حولي عما يمكن أن يبعث هذا الأمل في بوب. ضحك ضحكة حادة، يعتصرها الألم، شأن ضحكة رجل لم ينم بشكل كافٍ وبالتالي أعصابه متعبة.

- اشرح لي، يا بوب، من فضلك.

أشار بيديه ذي اللونين إلى اللوحة الضخمة التي تحيط بمدخل الملعب.

وسط لوحة كرتونية بعشرة أمتار على أربعة، صُوِّرت تسع راقصات للروك، بعيون فاحمة، وشعر أشعث، بملابس سوداء شأن «مراهقات عند دفان الموتى» وهنّ يزدريتنا من علياء صورتهن ويرسلنَ ألسنتهن الخبيثة، بينما كان بالقرب من اللوحة صور مُلصقة على الجدران تعلن عن «حفلات فنية بيعت جميع التذاكر المخصصة لها» و«إضافية» كُتبت بأحرف غوطية كبيرة ذات لمعان معدني تعلن شأن بداهة صاعقة عن «حوريات البحر».

٨

هناك أحلام تبقينا نائمين وأحلام تجعلنا يقظين.

فرغبتني في الرحيل قد أمدتني بنشاط لا ينضب، كما منحنتني قوة ثابتة ومتجددة، تفوقني، قادرة على تجاوز كل الحدود، بما فيها حد الحس السليم.

لماذا تركتُ مصر بدلاً من أن أقيم فيها؟

لو حطمت متاعي هناك، ولو تخلّيت لنهر النيل عن رغباتي في الغرب لاستطعت أن أبنى مركزاً متيناً ولجّبت نفسي سنوات من العذاب والهوان.

لماذا؟

لم يكن أسهل من التّأرجح من بغداد إلى القاهرة، من عاصمة عربية إلى عاصمة عربية أخرى.

لماذا؟

حين نسترجع حياتنا، تبدو لنا مدويّة بالسؤال «لماذا» الذي لم نكن نسمعه، وحافلة بمفارق طرق لم نكن نلمح فيها إلا خطوطاً

مستقيمة. دخلت مدينة الفراعنة وأنا مصمم على الخروج منها حتى إن احتمال البقاء فيها لم يراودني. شكراً، يا صدام حسين! شكراً مرة أخرى للدكاتور المقيت الذي استمر في التأثير عليّ بالرغم من أن يده لم تعد تستطيع أن تمسكني. فمنذ طفولتي، باعني الساحر كمية هائلة من العروبة والقوة العربية والنضال العربي والفخر العربي حتى إن هذا الشعار قد أثار اشمزازي. فحين هربت من العراق ثم من مصر، لم أكن أرفض بلدي وحده والبلد المجاور له تقريباً، لكنني كنتُ أرفض جزءاً من ذاتي وذلك الخفقان الذي أراد صدام تمجيده: إنها الروح العربية. فحيث أجد تلك المثاليات والشعارات، بل بصماتها أو أصداءها البعيدة لا أستبينُ إلا الكذب والسيطرة والحيل والغش؛ كنتُ أكره العالم العربي، دون أن أعبر عن ذلك.

لكنني لم أتخيل أنني بمجرد أن أصل إلى العالم غير العربي، حتى أصبح العربي الأذنى من الجميع. يظن الإنسان أنه يهرب من سجن فإذا هو يحمل القضبان معه. لكن، لذلك حكاية أخرى سأرويها فيما بعد... لقد وفق بوبكار، معتمداً على مهارته، حين ربط مصيرنا بحوريات البحر. فبفضلهنّ، سيمكننا أن نبحر ونقترب من الهدف. مع ذلك اكتشفنا أن معاشرتهنّ، وهذا ما سنراه لاحقاً، تشكل مغامرة لا تخلو من المخاطر...

من يجهل، على وجه الكرة الأرضية، حوريات البحر؟ فشهرتهن قد تجاوزت بسرعة كبيرة موطنهن - وهو السويد - حتى إن أحداً لم

يعد يعرف الآن من أين أتيت؛ وهكذا فإن أغنيتهن الشهيرة بالإنكليزية «Herbal Tea» أي الشاي الحشيشي، وهي تمجيد للمخدرات، قد أصبحت ذات شهرة عالمية.

ابتدأت الشيطانات بعرض حفلتهم بثلاثة قروش تحت اسم «أطفال شياطين»، بعد ذلك رفعن السعر إلى خمسة قروش تحت تسمية «فطيرة حورية البحر» وهن يشرحن أن تلك الفطيرة مزورة شأن كل الفطائر النادرة، مثل فطيرة القنبرة التي تحوي على ٨٠٪ من لحم الخنزير و ٢٠٪ من لحم القنبرة؛ أما نحن، فهناك ٨٠٪ من الخنزيرة و ٢٠٪ من «المغنية». أخيراً وقد تجددن تماماً، سمّين فرقتهن «حوريات البحر».

إن تلك الحوريات لا يمثلن الأسطورة القديمة؛ فليس ثمة أي شيء مشترك مع النساء - السمكات، ولا يوجد أي شبه مع تلك الجميلات ذوات الأنداء العارية والعيون المتقدمة والشعر الطويل المسترسل الذي يغطي أردافاً رشيقة تنتهي بذنب من الصدف، تلك المخلوقات المشؤومة والتي، كما يبدو، تُغرق البحارة بعد أن تكون قد أغرتهم. إضافة إلى ذلك، إن حوريات البحر في الماضي لا توحى كما توحى حوريات اليوم، بتلك الإنذارات الكهربائية، والبواري الناعبة التي تندفع بالصراخ إثر اقتحام النار أو دخول السارق.

إن كل من يحضر حفلة لتلك الحوريات يدرك أنهن يبررن اسمهن خاصة بحدة أصواتهن. يرفعن مكبرات الصوت إلى أقصى



درجة وينمين القبح ويرششن لعابهن في الميكرفون مما يجعل كل كلمة غير مسموعة ويُضخمن أصوات آلاتهن الموسيقية المعدنية حتى يصبح التشويه لا يُطاق ويستسلمن على المسرح إلى إتقان هستيري حيث يُفضلن، وقد لبسن ثياباً اقتطعت من علب أطعمة محفوظة، أن يضربن بغيتاراتهن بدلاً من أن يعزفن عليها، كما يفضلن أن يصرخن عوضاً عن أن يغنين، ويضاعفن التواءاتهن البذيئة بدل الرقص. إنهن من الشياطين وهن يقفن ساخرات ومتهكمات. فلا يأخذن أي قسط من الراحة كأنهن جيش دبابات، يفرضن أنفسهن بسحق الجمهور الذي ليس أمامه إلا حلان في هذا المشهد الذي لا يتوجه إلى آذانه - فإما أن يُكسرها - لكن نتيجة تحمله: أو يهرب، أو يستسلم. فيكون الخلاص في أن يدخل في حالة ذعر وغيوبة.

في المساء الذي بدأت عملي فيه معهن، لآخر حفلة لهن في القاهرة وبعد عدة إغماءات أثناء الدقائق العشر الأولى وبعد إخراج خمس مراهقات وطأتهن الأقدام، أخذ العرض إيقاعه في الغليان. ما إن أهانت الحوريات، الحانقات، المشاهدين بوصفهم بالقذارة والانحطاط، وقد سيطرن عليهم، حتى رحن يرددن الأغاني غيباً، بشكل متقطع. فرأيت هذه المشاركة رائعة بقدر عدم فهمها: كيف يتعرف المشاهدون على نغم وسط هذا الصخب؟ هل يميزون الكلمات خلف تلك الزمجات المبحوحة؟ اكتشفتُ سر المعجبين، فلتلك الكائنات قدرات لا توجد عند الناس العاديين، إنهم أفراد وحيدون يستطيعون

أن يجدوا جهازاً يسجل أصوات الحوريات دون أن ينفجر والعقول الوحيدة القادرة على حفظ نص غير متجانس، إنهم الزبائن الوحيدون الذين يدفعون ثمن بطاقتهم غالباً كي لا يروا لأنهم يتحركون بعيون مغمضة تحت الألواح الخشبية وهم لا يسمعون لأن قوة الصوت تخرق طبلة الأذان. كيف كانوا يتوصلون إلى التموج وضرب الأيدي ورفع الأذرع في الهواء، بينما كانوا محتشدين ومحشورين شأن حبات الأرز الدبق؟ وما هي المتعة التي يشعرون بها بخلط أصواتهم كلها معاً؟ من الأفضل الغناء تحت قصف القنابل...

كان العرض يستحق هذا التقدير المتناقض: فوضى تامة! لا تُحتَمَل من أولها إلى آخرها ولا ينقصها الذوق الفاسد وتحوي تجانساً مستحيلًا: لم يكن ثمة شيء جميل، لا للبصر ولا للسمع، ولا للشم أيضاً. لأنه، بسرعة كبيرة، كان ينبعث من المغنيات ومن الجمهور رائحة حامضة لأباطٍ تقطر عرفاً. في نهاية العرض، راح الجمهور يطلب المزيد من الحوريات، ويعبر عن إعجابه، ويصفق لهن بلا انقطاع، وفق الحقيقة المعروفة وهي إذا كانت الطبيعة تهلع من الفراغ فالجمهور يخاف من الصمت.

أتممت عملي ذاك المساء: وهو أن أمنع المعجبين من القفز إلى خشبة المسرح. لذلك، وجب عليّ أن أقف بالقرب من مكبرات الصوت الضخمة، لا شك أنها المكبرات الأكبر حجماً والأشد قدرة المخصصة للعروض الهائلة التي صُنِّعت في كوكبنا. فبالرغم من

الشمع في أذنيّ والقبعة على رأسي، أنهيت الحفلة وقد صُمت أذناي  
وكنْتُ سكران.

إن قلبي الذي ضاعف إيقاع الطبول ضرباته، قد أرسل إليّ الدماء  
في أسفل البطن فكان يثير فيّ الغرائز، رغماً عن إرادتي، لممارسة  
الجنس.

حين تفرق المتفرجون، تضخم السكون وتورم فأصبح مُصماً  
شأن الضجيج.

لاقيت بوب، وأنا أترنح، في الجهة الثانية من المسرح والذي  
أوكلت إليه مهمة شأن مهمتي، أي المحافظة على الأمن. تحول لون  
وجهه الذي كان عادة بلون الشوكولا إلى لون ضارب إلى الأخضر  
وراح يتهزز من ساق فوق الأخرى، وقد أدخل يده في بنطاله الرياضي،  
شأن فتى يود أن يبول. حين سألته عن أخباره، لاحظتُ أنني لا أسمع  
صوتي؛ فوجئت حين أجابني وهو يحرك شفثيه الغليظتين اللتين لا  
تبعثان أي رنين.

كنا كلانا أصميين.

لهذا السبب كان منتج فرقة الحوريات قد اضطر أن يستخدم كل  
مساء أشخاصاً غير نظاميين: فالعمل يحطم المستخدم. لا يوجد أحد  
يريد أن يفقد إحدى حواسه من أجل بضعة دولارات وكان يعرف أن  
عاملاً بلا أوراق نظامية ويدفع له أجرأ زهيداً، يقبل العمل ولا يرفع عليه  
بعد ذلك دعوى.

في غرف ملابس الملعب، اقتلع بوب لوحاً وطبشورة اكتشفها  
صدفة سمحت لنا بالتواصل.

خرش بكتابته «هل نتابع؟».

هزرت رأسي بالموافقة. ليس وارداً ترك العمل. إذا بقينا في  
موكب الحوريات، سيمكننا أن نعبر في شاحنة، بعد مصر، إلى ليبيا، ثم  
إلى تونس. لا شك أننا نجد في أحد البلدين مكباً إلى أوروبا.

اتفق بوب إذاً باتصاله مع زنجي عملاق من جامايكا، كي نستطيع  
أن ننام بين الجدران.

بدأنا، في اليوم التالي، نسمع قليلاً، مما أوكل إلينا أعمال  
الانتقال. كانت ست شاحنات من الوزن الثقيل تنقل المعدات  
الكهربائية للحوريات - أدوات الإشراف والبث والمكبرات الصوتية -  
ولقد استقبل رجال الجولة بحماسة قوانا الإضافية لفك الأجهزة ونقلها  
وترتيب العناصر.

حوالي الساعة الخامسة من بعد الظهر، استيقظت الحوريات،  
وخرجن من قوافلهن، واندفعن إلى الخيمة التي تشكل غرفة الطعام.

فبالرغم من أنه لم يكن لنا الحق بالاقتراب منهن - تُحدد عقودهن  
أنه لا يُسمح لأحد من العمال، باستثناء المنتج والمدير، بالتحدث  
معهن - أحسست أن هؤلاء النساء وقد تجردن من زينتهن ومن لباسهن  
التنكري، قد ظهرن مختلفات عما كنَّ عليه في الليلة السابقة. إنهن

هادئات وجميلات ومتزنات، يسعين لاستعادة نشاطهن وذلك بشرب القهوة وعصير الفواكه.

شرح لنا الجاماياكي حينذاك كيف تعمل تلك المؤسسة الصناعية، التي تدعي فيها الحوريات أنهن نجوم فنية، لم يكن في الواقع إلا أدوات تتبدل فيما بينها. رون، مدير الأعمال - المنتج، والمبتكر للمشهد، قد أخذ أولئك الفتيات الرصينات، والموسيقىات الجيدات، ثم دربهن على تقليد مؤسسات «الأطفال الشياطين»، وهن ثلاث عاهرات فعلاً، ماجنات ومتغطرسات ومجنونات تماماً والآن يتناولن المخدرات، آمنات، في جزر فيدجي دون أن يعلم الجمهور بذلك. إذا ضببت الشابات الرقيات تصرفاتهن على سلوك تلك المنحطات. ما إن يدخل أبسط مراقب غريب إلى الدائرة، حتى تقوم أولئك الفتيات اللواتي وظفن للعمل، ببذل جهد كبير كي يتصرفن كعاهرات: فيرغمن أنفسهن على إلقاء نظرات ماجنة إلى الذكور ويظهرن في حالة اندفاع جنسي مستمر فيتكلمن بسوقية ويأكلن شأن الخنزيرات.

- بمجرد أن تنهار واحدة نفسياً حتى يستبدلها رون ولا يلاحظ الجمهور من ذلك شيئاً. فتلك البائسات لا يتحملن الوضع طويلاً. بالرغم من كتل الشمع في آذانهن، والعناية الطبية وفترات علاج بالصمت، فقد أصيبت أقدامهن بالصمم تماماً. مع ذلك بقيت اثنتان منهن لأنهما يشكلان وجوهاً تصلح دائماً للمقابلات الإعلامية: بما

أنهما لا تسمعان شيئاً فإن ذلك يساعدهما على أن تظهرها وقحتين، وعلى أن تجيبا بترهات على الصحفيين. فكانت الصحافة تعشق ذلك. أما نحن، أنا وبوب، فلقد شعرنا، في اليومين التاليين، بالآلام حادة في الرأس وبعض فقدان للتوازن. واضطررنا إلى الاختباء بين القطع الكهربائية لنهرب من المراقبة الجمركية على الحدود الليبية، وهذا ما وافقنا؛ لأننا وقد التفطنا بإسفنج الشاحنات الذي يحمي من التصادم، استطعنا أن ننام ونرتاح.

في طرابلس، ساعدنا الحظ في أن نقيم هناك أسبوعين قُدمت فيهما ثلاثة عروض. كان بوب يخفي طوال النهار ليقوم اتصالات بينما كنتُ أؤدي شغلي كعامل مساعد للجمايكي. في نهاية العرض الثالث، لحق بي بوب في موقعي وهو متحمس، وبالرغم من صممنا الموقت، أعلن لي بالحركات وبتحريك مبالغ فيه من شفتيه الغليظتين، أنه قد حصل على قناة.

بينما كانت قافلتنا بشاحناتها من الوزن الثقيل تسير بمحاذاة شاطئ المتوسط وكادت تصل إلى الحدود التونسية، قفزنا أنا وبوب من الشاحنة وتدحرجنا في الحفر ونحن نوجه تحية وداع إلى الحوريات ثم تركنا الموكب يتابع، بسرعة الحلزون، جولته المدوية.

ففي اللحظة التي كنا فيها على وشك الخروج ثانية إلى الشارع، ظهرت سيارة بيضاء يقودها رون وقد طوى سقف سيارته الفخمة محاولاً إيها إلى سيارة مكشوفة أنيقة.

استنكر بوب قائلاً:

- يا له من أبله، انظر إلى لون وجهه!

كان قميصه مفتوحاً يكشف صدرًا مغطى بالشعر وقد قُصَّ بالمقص. وكان رون يعرض اسمراراً مذهباً غير واقعي، كما تبدو غير واقعية كثافة شعره وسواده وكذلك نظاراته السوداء وان بإطارهما المنقط واللتان تحولانه إلى شاب يلهو وهو يعيش على أطراف أحواض السباحة ويتغذى بأكواب العصير الملونة.

همست قائلاً:

- هذا طبيعي. فهو لم يحضر عرضاً كاملاً للهوريات. إنه ليس مجنوناً! يُقيم بعيداً، في الكواليس، محتمياً من الأصوات، متابِعاً العرض على شاشة فيديو للمراقبة.

بحسب التعليمات التي تلقيناها، علينا أن نلتحق بمرافق زوارة الذي تنطلق منه، كل أسبوع، ثلاثة مراكب محملة بركاب غير نظاميين. ألح بوب، طوال الطريق، كي نبقى حذرين وأن نمشي خافضين رأسينا، تحت ملابسنا القطنية، لانلفت الأنظار ولا يمكن معرفتنا، شأن مزارعين من المنطقة.

قبل أن نصل إلى زوارة، لمحنا مخيماً مؤقتاً، عبارة عن قرية من الستائر والقش والكرتون. إنها مدينة من الصفائح أعدها بسرعة مسافرون غير نظاميين. اقترحت على الفور الاقتراب منهم.

صرخ بوب قائلاً:

- أنت مجنون.

- بلى، سيمدوننا بمعلومات.

- هل تعتقد أن سوق العشب التي يتلعبها الجاموس تتساءل فيما

بينها إذا كان للبقرة نفس طيب؟

- بوب، لا أريد مثلاً أفريقيًا، من فضلك. يكفيني أبي في كل ما هو

غامض. ماذا تريد أن تقول؟

- لن يخبرنا هؤلاء التائهون بشيء. فهم أعداؤنا بقدر ما هم

ينافسوننا ليجروا. وبمجملة القول، من الخطر أن نرمي بأنفسنا في

شدة الذئب.

- أي ذئب؟

- القذافي. يتلقى رئيس ليبيا أوامر من الغرب. إنهم يضغطون

عليه ليلعب دور خفراء الشواطئ ويضعف المراقبة ويُنزل رجال

الشرطة كي يطردها الساعين إلى السفر. يجب أن تبقى أوروبا قلعة

منيعه، تحميها أسوارها من الأمواج. وبما أن النهار يميل، فلننم بعيداً،

في الحفر.

قطعنا الليل بطريقة غير مريحة، وقد تكورنا بين تلعة وأدغال من

الشوك.

لكنني، في الصباح، لم أندم على ذلك. فقد كان بوب على

صواب! في الساعة السابعة، توقفت سيارات أمام المخيم، واندفع

منها رجال راحوا، بدون عنف ولكن بلا مراعاة يجلون المخيم وهم



ينقلون السجناء في شاحنات عسكرية. بعد ذلك، يُعادون إلى بلادهم أو يوضعون في مركز احتجاز.

- شكراً، يا بوب.

- إنني حزين عليهم لكنني سعيد بالنسبة إلينا. سنجد مكاناً على سطح السفن الآتية قريباً. حتى إنني قد أستطيع أن أساوم على الثمن لأن المهريين سيكونون حانقين ومتوترين.

أدركت فجأة أننا حقاً على وشك الرحيل.

- كم تكلف المسافة؟

- لا تهتم بذلك.

- أجب.

- حتى الآن، تكلف ألفي دولارٍ للشخص.

جعلني النبأ أنهار.

- لن نستطيع أن ندفع ذلك على الإطلاق.

وقد تأكد بوب من أن لا أحد يرانا، أسند فخذيته إلى الأرض وخلع حذاءه الأيمن؛ ثم رفع النعل الأسفل، وسحب منه حزمة أوراق مالية.

- أجرنا. ألفا دولارٍ لكل واحد.

- ماذا؟ هل كسبنا كل هذا المبلغ؟

- أنت تمزح؟ اسمع. بعد أول حفلة في طرابلس، كانت

الحوريات يمشين منهكات حتى إنني فتشت في حقيبة يد إحداهن بينما كانت تستحم. ففي رأيي، لم تلاحظ ذلك لأنها لم تشتك.

- بوب!

- عجباً، إنها تصرف ذلك في فترة بعد ظهر واحدة لتشتري تنانير قصيرة جداً تصل حتى مؤخرتها.

- يا بوب!

كان ذلك ثمن صممنا. رحنا نذهب من مخبأ إلى آخر، بانتظار اللحظة الملائمة، ووجد بوب في طرابلس جهة الاتصال التي أشاروا بها إليه. ساوم على ثمن سفرنا. أخيراً تلقينا تاريخ الرحيل العظيم.

- يوم الجمعة مساءً حين حلول الظلام.

كان بوب مبتهجاً. أما أنا، فقد أدركت أنني سأغامر من جديد بالصعود إلى مركب.

انفردت كي أجنب رفيقي مخاوفي، متذرعاً بالغسيل بالقرب من النهر.

هناك، على ضفة مستنقع ضيق، بين بعض قضبان القصب الأخضر الغض، خلعت ملابسي وقمت بتنظيف ثيابنا.

لم يتأخر أبي في اللحاق بي.

- آه، ها أنت هنا! كنتُ أتساءل إن لم تكن الحوريات قد أربعنك.

- لقد أحسنت الظن، يا ولدي. عندنا، نحن الموتى، الحوريات

ذاتهنّ اللواتي يعادل قبحهنّ صحبهنّ، في مناطق المملكة الأقل ارتياداً؛

لم أكن راغباً في رؤية رؤوس الغيلان. إذاً، تتطوع ثانية في البحرية؟

- آه، لا تحدثني عن ذلك.

- أنت تخشى أن تتوَعك صحتك قليلاً؟

- أتمنى أن أكون مريضاً جداً، بل مريضاً حتى فقدان الوعي،

مريضاً لدرجة أن أتخبط في الغيبوبة: هكذا لا أعي شيئاً من حولي.

- معك حق، يا ابني. يحدث أحياناً أن قليلاً من الألم قد لا يطاق

أكثر من الألم الشديد. ما هي وجهتكم؟

- لمبادوزا. إنها جزيرة صغيرة تقع في جنوب إيطاليا. فما إن تطأ

أقدامنا أرضها حتى نكون قد صرنا في أوروبا.

يوم الجمعة مساءً، ذهبنا إلى مكان الموعد، وهو خليج صغير ففر

غير بعيد عن المرفأ. حين رأيت ضيق المركب وعدد الراغبين في السفر

على الصخور، اعتقدت أن ثمة خطأً.

- بوب، اسرع، فلتتدافع إلى الأمام، إننا كثيرون جداً، وسيضطر

المهربون إلى الاختيار.

راح بوب يدفع الناس بمرفقيه فوصلنا بين العشرة الأوائل لنمد

مالنا إلى الرجال المشبهين الذين ينظمون رحلتنا ثم قفزنا إلى الزورق

الصغير. فبشكل غير متظر، لم أشعر بالاطمئنان إلا بعد أن تركت

اليابسة.

لكن عمليات الإبحار تتابعت.

راح ضيق المكان يزداد، كما شرع المسافرون غير النظاميين

المكდسين على المقاعد يحتجون، ثم يشتمون هؤلاء الذين على

الأرض فيجيبهم الآخرون بعنف كبير. طقطع الخشب. أثناء تلك

الملاسة الكلامية، كان الأقوياء النظاميون والهادثون والمتصلبون يساعدون زبائنهم في الصعود. راح رأس المركب شيئاً فشيئاً يزداد غوصه في الأمواج.

قبل أن يستقر آخر راكب، أدركنا أننا سنقوم برحلة تعد خمسين شخصاً على مركب قد صُنع لعشرة ركاب. كاد الخجل يعترينا لأننا تجاسرنا على الاحتجاج. طأطأت رأسي، وتعلقت أصابعي المتشنجة على حافة المركب. هكذا لم يكن عليّ أن أتحمل فقط البحر ولكن الاختلاط بكل هؤلاء الناس ومحادثاتهم. وتلك بشائر سيئة للرحلة.

- كما ترى، يا بوب، في هذا الحيز، لسنا مرصوفين أكثر من المعجبين بالحدوريات أثناء الحفلة، لكن لهذا أثراً آخر.

تأوه بوب قائلاً:

- لا تقلق، يا سعد.

إثر جوابه، شممت رائحة مقرزة.

قلت على سبيل المزاح:

-بالإضافة إلى ذلك، تنبعث رائحة كريهة. أنت تحجز لنا بطاقات

بتعرفة درجة رجال الأعمال ونشم رائحة منفرة!

- تفوح مني، يا سعد، تلك الرائحة التتنة. إنني خائف.

تدافعت بكتفي حتى أكون أمامه؛ تحت ضوء القمر، لم أرَ إلا

عينين وجلتين، وقطرات العرق تسيل من جبينه وتلقيت في وجهي نفسه الثقيل، والذي زاد القلق من ثقله ومن حموضته.

- أنت لا تحب الماء، يا بوب؟

- لا أعرف السباحة.

وقد رأيته بهذا الهلع، توقفت عن التفكير بذاتي وبمخاوفي  
وسعيت إلى مواساته.

- لماذا ستسبح؟ لا أعتقد أنك تحتاج إلى أن تكون في الماء  
لتدفعنا. رأيتُ محركاً تنبعث منه رائحة قوية لزيت الغاز.

- زيت الغاز؟ إذا لم نغرق، من الممكن أن نحترق!

- أجل، يمكن أن ننجح في العمليتين: أن نشوى أولاً، ثم يغرق  
رمادنا. سنشكل وجبة رائعة من اللحم المشوي للسمك. أيلانمك  
ذلك، كبرنامج؟

انطلق المركب.

أرغمت ذاتي تلك الليلة على ألا أفكر: ألا أتقيأ وألا أفقد الوعي  
وأن أهتم ببوب الذي كان يرتعش كورقة. فلشدة ما شرحت له أن  
الرحلة البحرية تسير على أفضل ما يُرام، وأن هذا المركب يعمل بشكل  
رائع، انتهى بي الأمر أن اقتنعت بذلك.

بالطبع، لا مجال للنوم، لأنه لم يكن لنا مكان للوقوف دون أن  
نتلقى ثلاث أذرع على الأضلاع، أما أن نتمدد فيستحيل ذلك.

عند الفجر، ميزتُ بشكل أفضل أي موكب نشكل: هناك كثير من  
الزواج - من نساء ورجال وأطفال -، معظمهم من بنغلادش، وهناك  
بعض المصريين قد أتوا من الزقازيق، في دلتا النيل. كان الجميع -

تقريباً- يخشون البحر والماء. وكلهم يعانون العطش والجوع. وكلما ارتفعت الشمس إلى وسط السماء راحوا يهابون الحرارة.

كان البحار يثبت نظره نحو الأفق، غير مبالي بالصراخ والمخاوف، وكذلك وبالتهديدات ومحافظاً على إيقاعه في الرحلة البحرية.

وسط فترة بعد الظهر، صاح صوت:

- هناك! هناك! يوجد شخص ما.

خرج البحار عن صمته وعن صرامته وطلب توضيحات ثم اتجه نحو النقطة.

ميزنا على الأمواج رجلاً جريحاً، بتياب ممزقة نتفاً، وقد تعلق بشبكة صيد لسماك الطون. نجح في رفع ذراع ضعيفة.

صرخت قائلاً:

- إنه حيّ. لا يزال حياً.

وكجواب مباشر، وجه البحار المركب إلى الاتجاه المعاكس، مسترجعاً محوره السابق. سيلف حول الرجل دون أن ينتشله.

احتججت.

بدا البحار كمن لم يسمعي ثم، بما أنني ألححت، انتهى به الأمر

أن صرخ في وجهي:

- سد فمك، الآن! إنني هنا لأنقلكم إلى لمبادوزا. لا وقت لي

لأقوم بدور المنقذين.

- لكن قوانين البحر...

- قوانين البحر، ماذا تعرف عنها، أنت، العراقي؟ إذا رأيتُ بحاراً في البحر، أنقذه. ولكن، حتى الآن، لم يرَ أحد مطلقاً بحاراً معلقاً بشبكة صيد الطون. إن الغبي الذي رأيته هو شخص غبيّ مثلك، إنه غبي وقع من مركب شأن المركب الذي أنت عليه، غبيّ دفع مالا إلى شخص آخر غيري لينقله إلى لمبادوزا. إنني لست مسؤولاً عنه ولا دخل لي به. والآن، إذا كنتَ غير مسرور، تغطس للحاق به. اتفقنا؟

دَسَّ بوب رأسه في عنقي وأوحى إليّ بعدوبة:

- أعتقد أنك موافق.

- ولكن...

- لا تثير حنقه أكثر من ذلك، من فضلك. لخاطري.

استمرت الرحلة واستطعنا أن نفهم بشكل أفضل ما حدث بلا شك. كلما تقدمنا، كنا نلمح أشكالاً مشبوهة تعوم على سطح الماء؛ إذا استطعنا أن نتبين أولى الأشكال من أحذية وحقائب وثياب، ثمة بعض الكوم كانت تشبه بشراً؛ بعد ذلك، لم يعد هناك مجال للشك: كانت جثث نساء ورجال وأطفال تعوم حولنا. من المؤكد أن سفينة قد غرقت وألقت بحمولتها لتغرق في عرض البحر.

على مركبنا الصغير، تشنجت الرقاب وخرجت بعض التأوهات من الحناجر، لكن لا أحد قد علّق على ذلك. شكّل صمتنا رد فعلنا الوحيد. ربما أملنا بسكوتنا أن نحذف ما كان يضايق عيوننا، وبرفضنا أن نصوغ الهول المريع بكلمات فقد نقلت تأثيره، بل واقعيته؟

كما لو فهم ما يخلق البلبل في نفوسنا، رفع بحارنا ذقنه، بزهو  
وتعالٍ وتصميم. عرف من الآن فصاعداً أن الخوف يكمننا، وأنا لم نعد  
نناقش أوامرهِ وسيكون، حتى تطأ أقدامنا اليابسة، بطلنا.

كان خيالي يعدو. كيف يفرق المركب؟ ولماذا يفرق؟ كنت  
أنفحص الأفق بحثاً عن رصيف صخري، كنت أكرس رقبتني لأتأكد من  
أن السماء لا تُغطي بالغيوم، وأعرض وجهي لهواء البحر كي أكتشف  
إذا كانت النفحات التي تضربه بشدة آتية من مجرد دفعنا أو من الرياح  
التي تهب من بعيد.

عند حلول الليل، أوقف البحار المحرك ونبهنا إلى أنه يرغب  
في النوم، وأنا سننطلق ثانية عند الفجر. عملنا، من أجله، ما لا يمكن  
أن نقوم به لأي واحد منا: أفسحنا له مكاناً ليتمدد على الأرض بينما،  
حشرنا أنفسنا أكثر من أي وقت، وبقينا واقفين.

انقضى الليل، بطيئاً. وقد نمت واقفاً، رحْتُ أستيقظ بلا انقطاع.  
شعرت بالمركب يميل على جنبه؛ ما إن أفتح عيني حتى يستقيم وضعه؛  
فبمجرد أن أكف عن مراقبته، يتمايل؛ في شبه وعيي الكابوسي، ظننت  
نفسي مسؤولاً عن مصيرنا، فكنْتُ حارساً مثيراً للسخرية يناضل ضد  
الغرق بقوة جفنيه وحدهما.

عند الفجر، هدر المحرك. أما بحارنا، وقد انتعش، شق الأمواج  
من جديد.

فجأة، قطب وجهه وراح يشتم.



- اللعنة! إنهم هناك.

تفحص الأفق بناظوره وقد أعطى أوامر للراكب الأقرب منه.  
شوه القلق تقاطيعه؛ فكانت شفتاه تتمتان؛ وجفناه يرتجفان؛ مديراً  
رأسه يمناً ويسرة، فبدا كأنه يبحث عن حل على الجوانب.

ثم ترك ناظوره وأخذ نفساً وحدجنا معلناً لنا:

- تغيير الاتجاه. نحن ذاهبون إلى مالطة. ثمة كثير جداً من  
المراكب المشبوهة حول لمبادوزا. فخفر الشواطئ يبدون حماسة في  
عملهم.

احتج بعض الركاب من بيننا، اما أنا فلم أناقش في ذلك. كنت  
أعرف قرارات هذا الرجل التي لا تتزعزع لأنني كنتُ قد قبلت أن أعهد  
إليه بمصري.

تمتم بوب ليطمئننا:

- سواء لمبادوزا أو مالطة، فالأمران سيان.

- كلاً، يا بوب. لا تنتمي مالطة إلى الأسرة الأوروبية. ليس بعد.

- هل أنت متأكد من ذلك؟

- لست متأكداً من شيء. لكنني لا أظن ذلك. على كل حال،

يجب أن نترك مالطة لنرحل إلى قارة أوروبا، كما كان علينا أن نغادر  
لمبادوزا.

- ربما سيكون ذلك أسهل؟

- ربما. ليس هناك من رحلة بحرية دون توقف في مرفأ، أليس كذلك؟

بما أننا كنا نعي وجودنا في مأزق، ولا حول ولا قوة لنا في اتخاذ القرار، كنا مرغمين على التفاؤل، فهو الفعل الوحيد الذي لا يزال بعد متوقفاً على إرادتنا.

حوّل المركب اتجاهه. راح بحارنا، بفترات منتظمة، يراقب إذا كان أحد يلاحقه من خفر الشواطئ: بعد ساعات كثيرة، انفرجت أساريه.

حين حل الليل، وجب علينا إعادة مسعى الليلة السابقة وهو أن نفسح له مكاناً لينام، وأن نتحمل أن نراه يشرب ويأكل بينما كان معظمنا قد أكلوا كل مؤونتهم، وأن نبقي هادئين في المركب الذي يترنح. لحسن الحظ، بدأ التعب والارهاق يزيلان نشاطنا ويضعفان قدراتنا على القلق.

أعادت شمس شاحبة وكسولة وكثيية النشاط إلى قبطاننا. تأفف، وتمطط وأقسم وبصق ثم شغل محركه - أعلن لنا في طفرة مزاج حسن قائلاً:

- سنكون في الماطة هذا المساء.

شجعنا النبأ على أن نتحمل بضع ساعات أخرى من الوضعية المرهقة. كانت بعض النساء وأطفالهن في وضعية مرضية سيئة.

حينذاك قرر الجميع مساعدتهم مظهرين غبطة حقيقية: راحوا يمزحون ويغنون ويضحكون ويداعبونهم.

شعرنا بأن هذا العذاب على وشك أن ينتهي.

ظهرت مالطة، جذابة، ضخمة بمنازلها كأنها أحجار الماس يحملها تاج من الصخور. ليس ثمة شك: إننا في أوروبا. اختلج قلبي. كان قبطاننا بلا ملاحيه يحك رأسه. شرح لنا أنه يعرف شاطئاً حيث نزل من المركب. هذا الشاطئ مأهولٌ طوال النهار. سمعنا، بالرغم عنا، توقف المحرك ووجدنا أنفسنا ثانية وبصمت، فوق المحيط. وجب علينا أن ننتظر.

بدالي الغروب لا ينتهي. والشمس تغوص في البحر لكن المشهد قد استغرق وقتاً لا حد له كي يبرد ويفقد ألوانه ويمحو معالمه.

في سواد الليل انطلق قبطاننا بمركبه.

فما إن تقدم كيلومتراً حتى دوت الصفارات. اندفعت ثلاثة مراكب نحونا، مسلحة بأنوار كاشفة في مقدمتها. أطلق القبطان مسبة وحاول الدوران ثم أدرك أنه مطوق. صرخ نحونا بملء رئتيه:  
- خفر السواحل! سيوقفوننا.

تخلّى عن مركز قيادته وشق مجموعتنا ليقم بيننا.

- إنني راكب غير نظامي مثلكم. لم أكن القبطان بتاتاً. قولوا إن القبطان قد وقع في الماء في نهاية بعد الظهر. إنكم لا تعرفونني، لم

تروني. لا تفوهوا ببلاغات، هل فهمتم؟ لا تشوا بي. لأنني مهدد بالسجن، أما أنتم، فلستم بالمهددين.

هجمت المراكب السريعة لتنقض علينا.

التفتُ على الفور نحو بوب وسألته:

- ونحن، ماذا يهددنا؟

- لا أعرف شيئاً، أنا... يطردوننا. يرسلوننا إلى بلادنا.

- كيف سيعرفون من أين أتينا؟

- من أوراقنا الثبوتية.

لمعت الفكرة في ذهني وكذلك القرار في آن واحد.

- بوب، لنرم أوراقنا في البحر.

- أنت مجنون.

- فلنرم أوراقنا في البحر. هكذا، يجهلون بلدنا الأصلي ولا

يستطيعون مطلقاً أن ينفوننا...

- أخيراً، يا سعد، هل تدرك ما أنت فاعله؟ ليس هناك أوراق على

الإطلاق!

- بوب، أنظر. أنا، أرميها.

طارت محفظتي فوق سطح المركب وراحت تبتلعها الأمواج.

لم يلحظ أحد ذلك.

- والآن، هيا يا بوب، بسرعة!

تردد بوب. كان يُمسك بثبوتيات هويته بيده، مرتجفاً، واهناً. راح

الركاب حولنا يصرخون قلقهم، كل بلغته. ألقى واحد منهم بنفسه في الماء.

كانت الزوارق تصرخ بأوامر من خلال مكبرات الصوت. بدأت الحزم الضوئية تُثبت على وجوهنا.

إذا لم تقم بذلك فوراً، يا بوب، فسرونك ويكون الوقت قد فات. عض بوب على شفثيه وأطلق صرخة وأرسل أوراقه من على سطح المركب.

في تلك اللحظة، ربط مشبك مركبنا وقفز شرطيان بيننا. صرخت امرأة كما لو كان قراصنة قد هاجمونا.

كانت العنكبوت تدعم، بلا كلال، حياكة الشبكة التي مدتها بين  
 قضبان النافذة وزاوية الجدار.  
 لقد انتقلنا معاً أنا وهي، مساء أمس الأول حين وصلتُ إلى  
 مالطة.

كانت تتابع عملها، باسطة قوائمها بأناقة وحذر، كأنها تدرك  
 رهافة تلك القوائم النحيلة، وهي تقوم، هنا وهناك، بتقوية خيوطها.  
 كان عدد وفير من البعوض والذباب الكبير منه والصغير قد التصق في  
 نسيجها المخرم اللعين. تلك وجبة طعامها التي تخبئها لأيام الجوع  
 الكبيرة القادمة، لأنها الآن ذو مزاج للبناء.  
 كنتُ أحسدها.

لماذا، أسوة بها، لم أعتد مركز الحجز؟ لماذا أعتبر نفسي في  
 السجن حيث كانت العنكبوت تشعر بأنها قادرة على تأسيس بيتها؟  
 إنها واقعية، بلا مناقشة، فهي لا تحلم بأماكن أخرى، تبني هنا حياتها  
 الجديدة، أما أنا فأقضم أظفاري متدمراً ومحتجاً وممتنعاً عن أن أحيا

وباحثاً عما يرضيني في أماكن أخرى، في الماضي أو في المستقبل، وليس في الحاضر مطلقاً، أتحنن كل يوم الفرصة التي قد تسمح لي بالهرب. كانت العنكبوت، العنيدة، قادرة على أن تقيم شبكتها وتتغذى وتؤسس أسرة في أي مكان؛ أما أنا، فلقد قررت ذلك في لندن، ولا مكان آخر. إذا كان الذكاء يعتمد على قدرة التلاؤم، فإن العنكبوت أذكى مني ألف مرة.

في الخارج، نبه جرسُ المحتجزين إلى وجبة استثنائية: كان الصليب الأحمر يُدللنا في ذاك الثلاثاء. من الباحة حيث تجتمع الناس عشرات، أشار بوب إليّ كي ألقاهم. هزرت رأسي، سلباً. ليس لي رغبة في تكبير قطع الدواجن لاسيما حين يرمى إليه الحَب.

جلست على فراشي وتركتُ العنكبوت لعدة ثوانٍ كي أراقب باطني قديمي. كانت تأليلي قد نمت على هواها، تخلط من الآن فصاعداً ظلالها الرمادية بنسيج جلدي. ربما عليّ أن أهتم بتسميتها لأتخلص منها؟

وإذا ما سميتُ هذه التالولة العراق؟ وتلك صدّام حسين. فقد تكون الثالثة الأمم المتحدة. لنحاول: العراق، صدّام حسين، الأمم المتحدة.

أعدتُ تسميتها مرات كثيرة لأرى إن كان ذلك يُحدث أثراً لديها: يبدو أن لا واحدة قد سمعني، كما لم تنكمش أية واحدة مطلقاً. -يا لحماً من لحمي ودماً من دمي ويا عرق النجوم، كيف يمكنك

أن تعتقد أن الأشياء بهذه البساطة؟ ليس لديك فكرة بالتعقيد الذي يكونك.

- يا أبي، لقد وجدته! خشيتُ أن تبحث عني في جزيرة لمبادوزا.

- يا ابني، لست بحاجة إلى أن ترسل إليَّ خط عرضك وطولك

كي ألحق بك، عندي وسائل أخرى.

- إنني أتساءل ما هي تلك الوسائل.

- لا يحق لنا الكشف عنها.

- هل ثمة وكالة معلومات عند الموتى؟ لوحة ما تمثل

خريطة العالم تحددون عليها على شكل بقع مضيئة الأحياء الذين يهتمونكم.

- إنك ترتكب خطأ حين تفترض أنني أصل من الخارج، عن

طريق الجو أو عن طريق الأرض كما لو كنتُ أركب أو قطاراً.

- مع ذلك، لا بد من أن تصل من مكان ما! من عالم مواز، هل هو

تحتنا؟ هل هو فوقنا؟ أو بالقرب منا؟

- هذا المكان هو في داخلك، يا سعد. إنني أجيء من جسدك

ومن قلبك ومن نزواتك. فأنت ابني وأنا متأصل فيك، في ذكرياتك

بقدر ما أنا في جيناتك.

أشار إلى العنكبوت.

- إنها ظريفة تلك العنكبوت، أليس كذلك؟

- هل تعرفها؟



- عندي واحدة مطبوعة في أعماق دماغي، في جزء الزواحف؛  
فبفضلها، استقررت حيث ولدت، في العراق، وسعيت إلى العيش  
هناك.

- النتيجة: أنت ميت!

- في مكان آخر، لانتهيت بالموت أيضاً.

- طبعاً ولكن فيما بعد.

- مم؟ أجل... ربما فيما بعد...

- كيف يمكنك أن تتخذ كمثال لك عنكبوتاً تقبل أن تعيش في

سجن؟

- آه نعم، الحرية... أنت، تحب ذلك كثيراً؟ أما أنا، فليس بكل

هذا المقدار...

بما أنني رفعتُ كتفي، ألح أبي قائلاً:

- الحرية، تساوي ذهباً، طبعاً، لكن هل هي القيمة الأولى؟

يمكن أن يفضل الإنسان الحياة على الحرية. إن عنكبوتي الحضرية

على صواب إذا كان هدفها أن تصنع بيتها وتقيم أودها وتلد أطفالاً ثم

تربيهم.

- إن أصهارك وأحفادك قد ماتوا، يا سيد عنكبوت، كما اتشحت

بناتك بالحداد وهن شابات، يا سيد عنكبوت، وذلك بسبب المكان

الذي نسجت فيه بيتك. أما أنا فلا أريد أن أقدم لأطفالي الفوضى

والبلبل.

سكت ونظر من النافذة التي تقطعها القضبان إلى هيئة برتقالية اللون، تطير بجنون، نحو الشمس.

- ربما، في نهاية الأمر، أنت على صواب، يا سعد، فليس ثمة العناكب فقط، هناك أيضاً الفراشات...

اختفت الفراشة فجأة، وقد ابتلعته نفحة هواء. ابتسم والدي قائلاً:

- فراشة حملتها الريح...

- أما أنا، فالأمواج هي التي حملتني...

جلس أبي على السرير أمامي، وقد أصبح فجأة جدياً، وحدث

إليّ بشدة:

- ما هو مخططك من الآن فصاعداً؟

- عندي مخططات كثيرة.

كنتُ على وشك أن أشرح له مخططاتي حين ظهر رجل مضطرب بطقم بني على باب غرفتي. دون أن يلاحظ أبي، ناداني قائلاً:

- ينتظرونك للمقابلة.

- أخيراً!

رفع الرجل عينيه إلى السماء وأمرني باللحاق به. همست لأبي

بأذنه:

- عندي موعد مع المرحلة الأولى من مخططي.

- حسناً، يا ابني، ستروي لي ذلك فيما بعد.

اختفى أبي، وهو يغمز لي بعينه.

صحبني ذو البزة الكاكي إلى بناء إداري طويل يلاصق المركز المغلق. تركت بسرور الباحة ذات الشبك حيث وُضع المسافرون غير النظاميين بالمئات، وهم يخبطون نعالهم، عاطلين من العمل. دق على باب أحمر، لم ينتظر جواباً، فتح المصراع و صفقه خلفي.

كانت كتلة لحم تنتظرنني في أعماق الغرفة المعتمة. من خلال بعض خيوط النور التي تركتها المصاريع المخفضة تمر، كان محدثي يُشبه ضفدعاً هائلاً أكثر مما يشبه إنساناً. كان قابعاً في الظل الرطب، وقد تكور على نفسه، فبدأ كتلة مدورة متراصة، مستعدة للقفز، وقد أسند قنطار وزنه القلق إلى كرسي صغير منخفض يثن تحته. كان الضفدع يتعل حذاءين وبنطالاً أزرق وقميصاً أبيض يمكن أن تُقتطع منه أسرع كثيرة لمركب. كان جلده السميك يفرز قطرات من العرق.

تركني، أنا، فريسته، أقرب.

بينما كنت أتقدم، لم يتحرك فيه شيء إلا جبينه بين الفينة والفينة ليسط تجعيداً فوق عينيه الجاحظتين. كانت إحدى يديه تدقق برخاوة على ملامس من البلاستيك. اكتشفت، وأنا على مترين منه، رأسه الأقرع المؤلف من جلد سميك ولَمَاع، وعليه آثار حبوب قديمة. خاطبني بالإنكليزية لأنني طلبت التحدث بها.

- من أنت؟

- أنا؟ ...

- اسمك؟

- اسم والدك؟

- هل تفهم ما أقول؟ هل تفهم الإنكليزية؟

- نعم.

- إذاً أجب عن أسئلتني. اذكر هويتك.

- لا أدري.

- من أين جئت؟ من أي بلد؟ من أية مدينة؟

- لم أعد أتذكر... على المركب، حين كدنا أن نغرق... حين سقط

القبطان في الماء... هناك... بالنسبة إليّ، الصدمة... فقدت ذاكرتي.

- طبعاً، طبعاً. ماذا كنتَ تفعل على ظهر هذا المركب.

- أجهل ذلك.

كان يشغل حيزاً ضخماً جداً حتى إن الأشياء التي كان يستعملها

من قلم حبر، وسجل، وحاسوب قد بدت لعباً بين يديه. لو لم يعلنوا لي

أنه موظف رئيسي، ولو لم أقطع الممر الإداري للبناء الرسمي للوصول

إليه، لما أخذته على محمل الجد ولظننت، وأنا أحلم، أنني أزور عملاقاً

ينتظر أصدقاءه ليلعبوا كالأطفال بإعداد وليمة وهمية.

- إلى أين كنتَ ذاهباً؟

- مم...

- وتريدُ أن أصدقك؟

صمتُ.

بدا لي نظره غريباً. ثابتاً بغرابة. متفحصاً بغرابة.

تمتت شفثاه بقرف:

- وتريد أن أصدقك؟

سكوت. يجب ألا أفكر. إن تبريري يعني قبولي أن أكون مخطئاً.

يجب أن أضع نفسي خارج المناقشة، في منطقة لا يصل فيها إليّ.

تابع قائلاً:

- أتصور أنك تدعي الآن فقدان ذاكرتك، وتطلب طبيياً نفسياً

لمعالجتك.

- كلاً، أمل أن تعود الأمور من تلقاء ذاتها.

- أجل، هكذا! بخاصة لا تريد طبيياً نفسياً، كي لا نكتشف حيلتك

الفضة،

إنك ملفق حكايات!

- عندك حق: أحتاج إلى طبيب نفسي. أحضروا واحداً.

رمشت عيناه. أتيت على تسجيل نقطة لمصلحتي. استفدت من

ذلك كي أحاول أن أسجل نقاطاً أخرى:

- إذا كانت لي امرأة وأولاد، فسيتلقون. إن كان لي بيت، فمن

الأفضل أن أجد أثره بأسرع ما يمكن. استدعوا طبيياً، من فضلكم.

تذمر.

لقد فهمت! كان أعور. فنظرته الغريبة ناتجة من أنه لا يرى إلا بعين واحدة.

- هل عندك زوجة وأولاد؟

عينٌ واحدة، أجل، ولكن أيهما؟

- أكرر: هل عندك زوجة وأولاد؟

ربما العين اليسرى؟ كلاً، اليمنى. أجل، اليمنى. كانت تبدو اليسرى كثيبة، بطيئة النظر، بلا بريق، بيضاء جداً وبنية جداً معاً، أقرب إلى لون الحليب. أجل، لا بد من أن تكون العين اليسرى من الزجاج. تمالكت زمام نفسي لأجيب:

- ربما قد أتوصل، بصدمات كهربائية، إلى أن أستعيد ذاكرتي،

أليس كذلك؟

تردد، متسائلاً للمرة الأولى إذا كنت صادقاً.

من جهتي، كنتُ منجذباً. أرغمت ذاتي على ألا أتعلق بالكرة التي كانت تتفحصني، لكنني لم أستطع الامتناع عن فحص العين الأخرى، الكاذبة.

- كيف تريدني أن أصدق فقدان ذاكرة يلائمك كثيراً؟

- إنني... إنني أسف... أرجو معذرتي.

- أنت تعرف تمام المعرفة أنه إذا لم يكن لدينا أي عنصر للتحقق

من الهوية، فلن نستطيع أن نعيدك إلى بلدك.

- أرجو معذرتي.

- الأمر هكذا. أرجو معذرتي، اسخر مني. ما يهملك هو ألا تعود إلى بلدك على الإطلاق.
- أريد أن أعود إلى بيتي.
- بالضبط، أين يقع؟
- في لندن، ربما. لست أدري. أرجو معذرتي.
- صرخ غاضباً:
- كفّ عن الاعتذار.
- إنني آسف، أرجو معذرتي.
- إنه يُعيد الكرة!
- آه، عفواً، إيه... أرجو معذرتي.
- بلع لعابه كي لا ينفجر غضباً ثم أبعده حاسوبه من أمامه.
- اخرج.
- شكراً، سيدي.
- سنلتقي ثانية، أيها الشاب. لم أفرغ من شأنك. لن أتركك ما دامت ذاكرتك لم تعد.
- آه شكراً، سيدي.
- كان بالغ القناعة في أنني أمثل حتى إنني رأيت اللحظة التي سيصنعني فيها لكنه تمالك نفسه وأشار إليّ بالخروج ثم عاد ليغوص في إضبارة ما.

بعد عشر دقائق لقيت بوبكار في مركز الاحتجاز. شرحت له  
المقابلة ناصحاً إياه باتخاذ المنحى الذي سلكته.  
- يا سعد، لن يصدقوني، بعدك.

- لا أهمية لذلك! يا بوب، المهم لا يكون في تصديقنا ولكن في  
الآن نخطئ مطلقاً. ليس الموضوع في أن نتجح في تمثيل دور، علينا  
أن نمنع ظهور الحقيقة. ما داموا يجهلون من أين جئنا، فلن يستطيعوا  
اتخاذ أي إجراء ضدنا. بدءاً من الآن، يجب علينا أن نحذر الناس  
جميعاً. إنني على يقين من أنهم يضعون أجهزة ميكرو في زنزاناتنا،  
ويشون وشاة بيننا كي يعرفوا بهدوء ما نخفي عنهم. الخلاصة: أولاً،  
أنا وأنت لا نعرف بعضنا إلا منذ الرحلة البحرية، ثانياً، لا نتحدث إلا  
بالإنكليزية. اتفقنا؟

- موافق، قبل بوب ذلك مرغماً لأنه لم تكن تعجبه الخطط التي  
ليست من صنيعه.

بعد انقضاء أسابيع كثيرة، كان لنا موعد مع العملاق.  
كان موعد بوب يوم الجمعة وموعدي الثلاثاء.  
كل الثلاثاء، كنت أنتصب أمام ذاك الجبل ذي العين الوحيدة.  
كان يسألني الغول، كل الثلاثاء:  
- من أنت؟  
كنت أجيب كل الثلاثاء:  
- لم أعد أتذكر شيئاً.



كل ثلاثاء، كان ينتهي به الأمر بأن يشير إليّ نحو الباب مع هذا التعليق الذي لا يتغير:

- أنت تعرف أنني لا أصدقك، ولن أصدقك مطلقاً ولن تترك هذا المركز قبل أن تبصق لي الحقيقة.

خلال تلك المبادلات الطقسية، جرب العملاق بعض الحيل. هكذا، ذات مرة، وجه لي الكلام بغتة بعد صمت قائلاً:

- هل تحلم؟

- نعم.

- بأية لغة؟

كدت أن أجيبه «بالعربية»، لكنني ضبطت نفسي، في آخر لحظة، حككت رأسي ونظفت ظفراً من أظفاري ثم قلت:

- لست أدري. بلغة أفهمها.

تنهد، وقد خاب أمله لأنه لم يستطع أن يحرجنني.

في مناسبة تالية، اقترب من علبة معدنية، ضغط زراً وفجأة خرّت مكبرات الصوت في الغرفة.

- هذا ما سيساعدك على أن تلتقط ذكرياتك، سيدي العزيز.

ستوالى رسائل بلغات كثيرة، ستقول لي أية رسالة فهمت، لا بل أية رسائل لم تفهم كل كلماتها.

وسط اصطلاحات غريبة، تعرفت إلى اللغة التركية، والفارسية،

والعبرية لكنني لم أحرك ساكناً: لا نفع في أن أشير إلى جيران بلدي.  
حين سمعت العربية، رفعت ذراعي.

ضغطت على زر «توقف».

تمتت قائلاً:

- أعرف هذه اللغة.

- العربية، أنت عربي؟

- أفهم العربية لأنني تعلمتها.

- إنها لغتك الأم.

- لا أظن ذلك. أتذكر أنهم ثبتوها في ذهني، تلك اللغة. أجل.

أعرف قرآني بهذه اللغة.

- بأية لغة تصلي؟

- بالعربية.

- آه، أنت إذاً تتكلم العربية!

- برداءة. إنني مسلم صالح، درست لغة النبي في المدرسة. على

كل حال، لقد تعلمت في المدرسة الإنكليزية والإسبانية وقليلاً من

الروسية، أتذكر ذلك. إن العناصر الشخصية هي التي نسيتها.

أعاد وضع الشريط الذي يعدد الاصطلاحات، وهو مغتاض.

بعد ساعة لم أعد أسمع شيئاً، وأعتقد أنه هو أيضاً لم يعد يسمع

شيئاً.

انتهى بي الأمر أن سألته:

- كم لغة يجب علينا أن نسمع؟

- خمساً وثمانين لغة.

حدث في يوم آخر، أثناء مقابلتنا، أن ادعى الغول أنه مضطر إلى أن يتركني وحدي نصف ساعة؛ في انتظاره، اقترح عليّ أن أفتح التلفاز. بما أنني قبلت بسرور، أجلسني أمام جهاز، وأمدني بجهاز التحكم ووعدني بعودته القريبة.

ماذا يحسبني؟ أيظن أنني في منتهى الغباء؟ كنت أعرف أنه جالس في الغرفة المجاورة يراقبني ليعرف أية لغة قد أختار.

توقفت، عمداً، على أولى البرامج التي وجدتها باللغة الإنكليزية؛ بالرغم من الضجر العميق الذي غامرني، بقيت أتظاهر بالنشوة أمام برنامج يُبثُّ عن الحيوانات وضبطت نفسي كي لا أبحث عن قناة بلدي أو عن أية قناة عربية.

بعد قليل، نقل الحرس سريراً آخر إلى غرفتنا الصغيرة جداً وظهر رجل في الثلاثين من عمره طويل القامة بلحية لا تنتهي ادعى أنه أفغاني وسيشغل السرير.

ففي نظري وفي نظر بوب، كان بالبداهة جاسوساً علينا. إلا أن نتيجة حضوره جعلت حياتنا أبسط مما كانت عليه؛ رحنا نثرثر قليلاً، أقل من قبل ونغفل الإجابة عن الأسئلة وننسى أن نطرح أسئلة. شرعنا في الانزلاق إلى عالم المسافرين غير النظاميين وهو عالم يشكل الخوف إسمنته: لا أحد يفضي بمكونات ذاته والجميع حذرون؛ بدا

كل واحد مشبوهاً، من يرتدي البزة العسكرية ومن لا يرتديها؛ يقتصر الصنف الثاني على وظيفتين، فإما أن يكون شيئاً وإما منافساً، يستطيع إما أن يشي بي وإما أن يسرق مني مكاني. لم يعد هناك رحمة ولا تعاطف ولا مساعدة، كل واحد يبحث عن مصلحته الخاصة لأن الله يُقيم في البلد الأجنبي!

في مالطة، كان هناك فرد واحد، قبطاننا، يعرف أصولنا؛ لكننا كنا واثقين من سكوته لأنه يخشى هو ذاته في كل لحظة أن يكشف عن حقيقة تجارته. كان مهربُ المسافرين يفضل أن يعيش متكاسلاً بضعة أشهر في هذا المركز ثم يتحمل إعادته إلى ليبيا، من أن يُدان بتهمة تهريب الناس فيُسجن سنين كثيرة.

- فلتتحمل، يا بوب، لتتحمل عدة أسابيع. حسب ما فهمتُ، ستدخل مالطة قريباً في الأسرة الأوروبية. أتصور ذلك؟ ببعض الحظ، حين يُفرجون عنا، سنكون حينذاك على أرض أوروبية.

- كم يستغرق ذلك من الوقت، يا سعد، كم يستغرق ذلك؟

في ذاك الثلاثاء، كان العملاق ينام في سرير عسكري، في أعماق الغرفة، تحت الشبايك المغلقة، حين دخلت إلى مكتبه.

تنحنحت كي أشير إلى حضوري. فلم تبدُ منه حركة.

اقتربت ولاحظت، من نَفْسِه البطيء، ومن ارتخاء تقاطيعه، أنه

مستغرق في نوم عميق.

انتهزت تلك الفرصة واتجهت نحو الطاولة حيث تفحصت ما

عليها. في إناء، وسط أقلام الحبر، والمساطر والأقلام، لاحظت بيكاراً.  
- لم لا؟

بدون تردد، اختلسته ودسته في جيبتي.  
في الحال، وقد ارتفع شخير هائل إلى أعلى شأن موجة، ضاقت  
أنفاس الغول وسعل ثم استيقظ وهو يزجر وفرك رأسه، ف شعر بحضور  
أحد ما في الغرفة.

- من أنت؟ من هناك؟

أجبتة مماًزحاً:

- لا أحد.

انتصب على مؤخرته وفحص بعينه الوحيدة مكان الغرفة حيث  
انطلق الصوت واكتشفتني.

- آه، لا أحد، إنه أنت.

شعرت برغبة في الضحك لا تقاوم؛ مع ذلك فقد أكدت قولي.

- نعم، لا أحد، إنه أنا.

نهض وترنح حتى كرسية الصغير.

- أنت تعرف أنني لا أحبك، يا لا أحد.

- وكذلك أنا أيضاً، لا أحبك مطلقاً.

- حسناً، فلنبداً استجوابنا.

بينما كان يحاول أن يركز فخذيه الضخمتين على الكرسي  
الضييق، لمحت فجأة، بالقرب من حاسوبه، شيئاً فلت من بحثي السابق

وهو مجموعة مفاتيح. بمجرد رؤية قياساتها المختلفة، أيقنت أن ثمة ما يفتح كل أبواب مركز الاحتجاز التي تعترضني.

التقطت عينه نظري، فأحس الخطر لكن يدي كانت قد أمسكت بمجموعة المفاتيح. رحّت أهدأها في الهواء وأنا أقفز، متصراً. أخذ يئن، والعرق يقطر من جبينه.

- كلاً، دع هذه!

- بلى.

- يا لا أحد، أعد لي تلك المفاتيح. سأفقد مكاني.

- لو تعرف كم أسخر من ذلك! وظيفتك! وأنت، ماذا تقدم لي؟

مكاناً في طائرة إلى الموت مباشرة. لا علاقة لي بمشاكلك!

بينما كنتُ أتفاخر مرحاً، اندفع نحو الباب. حين أدركت تصرفه، ركضت إلى هناك بدوري. فات الوقت! كان قد تمركز على المصراع. هددته قائلاً:

- دعني أخرج.

وقف بتضخم بين المخرج وبينني، هائلاً، لا يمكن اختراقه.

- يا لا أحد، لن تمر!

- دعني أخرج وإلا فسأقوم بحركة لا أرغب في القيام بها.

- أتضربني! فكر، يا ضعيف الإدراك. لو نفختُ عليك، لذهبتُ

تتحطم على الجدران. هل أنت في وعيك، يا لا أحد؟ هل تدرك أنك،

أمامي، لا وزن لك؟

أرسلت له ضربة ظننت أنها على أعضائه الحساسة، لكن وسط كتلة شحم بهذا الحجم، ضاعت يدي وضربت لحماً مرصوفاً، بلاستيكيًا، وقفزت، فتحمل الحركة دون أن يرد.

- يا لا أحد، توقف فوراً وإلا رددت لك ضربتك!

- دعني أخرج. للمرة الأخيرة.

انفجر ضاحكاً. في تلك اللحظة، وقد أنهكتُ، أمسكت البيكار، وفتحته وغرزت رأسه في العين الحية.

صرخ الغول.

غرزته بكل قواي.

فراح يصرخ بشدة.

انبثق الدم قوياً شأن صراخه.

غرزته وتركت رأس البيكار يقف وحده وسط العين المبقورة.

هد الغول الألم، فسقط أرضاً. فتحت الباب وأطلقت ساقبي

للريح.

أعطتني الأحداث التي تلت أنها قد حدثت في عدة ثوان...

لم أصادف عوائق كثيرة، فاندفعت خارج القلعة. كان الطريق

حجرياً، يحميه نبات مزهر يعرش على الجدران، وينحدر نحو المرفأ:

سلكته دون أن أصادف أحداً ما. على الرصيف، بمعجزة، كان مركب

ينتظرنني. قفزت فيه بجرأة وأعطى القبطان الأمر بالرحيل.

على قمة الأسوار، ظهر الغول مضرجاً بالدماء وهو يزعق. وقد  
استنفر العساكر والحرس، فوجه مدافع مرفأ «لا فاليت» نحو سفيتي.  
حدث انفجار.

رأيتُ كرة المدفع تصل إليّ، اقتنعتُ، في ثانية، أنني سأوقفها  
شأن كرة لعب. بسطت يديّ ثم...  
أيقظتني الصدمة من نومي.

كانت الزنزانة، حولي، تقبع في هدوء الليل المالطي. والأفغاني  
يشخر في فراشه، أما بوب، فعلى عادته، ينام وهو يصفر من أنفه.  
لقد رأيتُ حلماً مرعباً.

وقد اقتربت من النافذة، تأملت القمر الرابط الجأش. ظهر أبي  
إلى جانبي ونظر إليّ بعدوبة، منتظراً أن أبوح بمكنونات نفسي.  
- أبي، هل تعتقد أن للأحلام معنى؟

- طبعاً، يا ابني. لا تعلمنا الأحلام بما سيحدث لكن بما يحدث.  
إنها أبعد من أن تدلنا على المستقبل، لكنها تكشف لنا الحاضر، بدقة  
لا تملكها أية فكرة. إن أحلامك تنبئك بما أنت عليه، لا سيما بعد يوم  
أضناك، وكسرك، وقطّعتك، وأرغمك على قوانين أو واجبات. فحياة  
اليقظة تغرقنا لأنها تشتتنا وتكيفنا؛ والحلم وحده يوقظ ما نحن عليه.

- إنك رائع، عندك نظرية عن كل شيء.

- هذا ما يختص به المثقفون. إن لم يقولوا دائماً الحقيقة، فإن لهم

دائماً الخيال. إذأ، يا ابني، هل حلمت؟



- أجل.

- ماذا يُعلمك هذا الحلم؟

- حككت رأسي، وأنا أفكر بأعمال العنف التي تخيلها فكري.

- لا أعرف.

- انتبه، يا ابني، إنك تكرر! «لا أعرف». إنك تثير قلقي! «لا

أعرف». احذر الكذب الذي يكرره الناس، فإن هذا الكذب ينتهي إلى أن يصبح واقعاً.

إذا ما مثل الإنسان دور النذل كثيراً، يصبح ندلاً.

أدار رأسه فالتقى بشبكة العنكبوت.

- هل لاحظت أن رفيقتي ميتة؟

- العنكبوت؟

- أجل. ميتة.

بما أن ضوء القمر القوي كان يرسل نوراً رمادياً، واضحاً، أقرب

إلى نور جِراحي في الزنزانة، بحثتُ عنها بعينيَّ بين شبكتها، ثم على

الجدار، ثم على الأرض. عبثاً.

- ولكن لا، يا أبي، لقد انتقلتُ إلى مكان آخر.

- ماتت بعد الظهر هذا. حتى إنني أستطيع أن أكشف لك عن

مكان جثتها.

أشار إلى حافة النافذة إلى شكل ملتبس يشبه الخنجر المعقوف،

في غمد من النحاس البرونزي. كان الحيوان ذو العينين الصفراوين

والمشدودتين، والمشير للقلق، يتفحص، تحت الضوء الزئبقي الذي يسقط من السماء، مركز الاحتجاز وأبنيته المتوازية السطوح وباحته وأسلاكه الشائكة وجدرانه ونوافذه البارزة، وبوابته بحرسها.

- هو ذا قبر عنكبوتك.

- عظاية؟

- أجل. في نهاية الأمر، معك حق، وهي مخطئة: لم يكن البقاء

هنا بالفكرة الصائبة.

ما إن رحمت أتعجب من هذا التصريح حتى اختفى والدي.

على الفور، أيقظت بوب وأنا أهز ذراعه، ثم همست له، وأنا

مستعجل ومحموم ومصمم، بأقرب ما يمكن من أذنه كي لا يسمعنا

الأفغاني:

- يا بوب، لقد استسلمتُ. بمنهجي، لن ننجح مطلقاً.

تشاء بوب ثم تمتم، وهو مسرور من تحولي:

- إنني موافق.

- تغيير الخطة، يا بوب! يجب أن نهرب...

كان الليل يزأر.

ممزقاً الهواء شأن أنين إنساني والهواء يصفر ويزمجر فوق  
المحيط المعتم، بينما راحت المياه تضرب هيكل السفينة.  
انتصب المركب وهو يثن ويتمايل ويسعى إلى أن يضبط توازنه  
بينما منعه من ذلك مؤامرة من العناصر الطبيعية.  
كنأ مهاجمين من كل الجهات.

صاح بوب في أذني: - إنني خائف، يا سعد، خائف جداً.  
كان الموت يوشك بالبداهة أن يقتحمنا. والبحر بعد أن سخر منا  
بابتسامة هازئة مكشراً عن أسنانه المليئة بلعاب الزبد، قد أرسل إلينا من  
أعماق الظلام جيشه المؤلف من عساكر لا تُحصى من الأمواج الفضة،  
والعنيفة، وهي أبعد من أن تحملنا، تبغي هلاكنا، كما أنها أقسى من  
الخناجر وهي تهاجم جوانبنا، وتسدد ضربات إلى هيكل السفينة فتهد  
مركبنا شأنه شأن سدادة.

أجبت بوب وأنا أصرخ ملء رئتي كي أطمئنه:

- من المتوقع أن نقرب من جزيرة صقلية.

أضأت مصباح جيبي وبحثت في الظلام. عبثاً. كانت الشواطئ

المرئية قبل العاصفة، قد اختفت الآن.

فجأة ارتفع المركب، كأنه قد تحرر بحركة من خاصرتيه، فطار ثم

راح يغور في قعر موجة، وهو يعطينا انطباعاً بأنه قد وجد ثانية طريقه،

فقفز إلى الأمام. واستعدت الأمل.

كان جزء المركب الخلفي يغرز وكذلك المقدمة. سحقنا صفة

ماء على ظهر المركب، فطرحنا أرضاً، نحن المئة راكبٍ غير النظامي

الذين عهدنا بحياتنا إلى هذا المركب الهزيل. دَوَّتْ شذرات صراخ

يائس بالرغم من الضجيج. بينما كنا نتعلق بأي شيء ممكن من حبال

ودرابزين وآلات بحرية وأيدٍ وسيول الماء الباردة التي تتدحرج مدوية

على السطح، عنيفة، مندفعة ومستعدة أن تأخذ معها، خارج المركب،

هؤلاء الذين قد لا يقاومونها.

تعلقت بدرجة، وقد أمسكت بوب باليد الأخرى، تمسكنا

بالأرض. خلفنا الموجة الهادرة والضخمة قد حملت معها كثيراً من

الركاب.

بصقت الماء ذا المذاق المالح والدموي.

تقطع المركب، كأن هيكله قد تصلب ضد الأمواج.

كانت الريح العنيفة لا تتوقف، وهي تحاول أن تطرحنا على

ميسرة المركب، ثم تحاول ثانية على الميمنة، بقوة وسرعة وارتجال، وهي تدور حوله لتحطمه بحركة مفاجئة.

دوّت طقطقة: تحطمت السارية. فانهارت على سطح المركب. صرخ كثير من الضحايا أماً، وقد جرحوا، وصرعتهم الضربة؛ كما قذفت بعضهم، فغرقوا على الفور. ولمنع الذين نجوا من أن يرافوا بالباقيين، تكسرت بعض الأمواج البحرية بيننا. حدثت صدمة في دفة القيادة وضربة في الصالب.

حين انسابت آخر موجة، كانت قد نظفت جوانب المركب. لم يبق منا إلا عشرون. راح المركب الآن يهتز كقطعة من الفلين. لم يعد القبطان الموجود في المؤخرة يسيطر على الأمواج التي تهاجمنا، فلفائف الموج قد ابتلعت. ما هي النتيجة؟ كنا نهوي نحو العدم، بدا أن حثفنا لا مفر منه.

كنا نتأرجح. نتقدم. كانت الأعماق والقمم تتتابع. فجأة لمعت فرجة في السماء المظلمة. تباعدت الغيوم تاركة ضوء القمر يمر منها. في الأفق، كما بمحاذاة الرمل، ثمة عينا سرطان غائر، إنهما منارتان تدوران وتراقباننا.

صرخت قائلاً:

- الشاطئ! إننا في عرض بحر صقلية.

للأسف، لم يكن أحد مستعداً لسماعي. كان الباقون على قيد الحياة، المترنحون، يركزون ما تبقى لهم من قوى على النقطة الصلبة

التي تعلقوا بها، في حال جاءتهم هجمة جديدة، كي لا يُجرفوا إلى قعر المياه. حتى بوب، لم يرفع رأسه، حين بشرته بالنبأ السعيد.

ألححت قائلاً:

- أرى الأرض، يا بوب، لسنا ببعيدين.

أطلق وهو يجهد بالبكاء:

- سنموت! لا أريد أن أموت...

أمدني يأسه بنشاط جديد. تحديث الحذر، فذهبت إلى المؤخرة وأمسكت بدفة القيادة التي تحركت، وحدها، من اليمين إلى اليسار، بلا انتظام.

أمسكت بحزم المقبض، ووجهت رأس المركب نحو الأرض وسط لامبالاة مطلقة من رفاقي. فإذا كان القبطان لم ينفعنا في شيء وسط العاصفة، فإنني سأفترقه لأرسو بالمركب. ما العمل؟ وكيف العمل؟ لا أهمية لذلك. يجب الاستمرار والتحكم بالقيادة.

كانت الجبال المعقودة هناك. والمركب يهتز كصندوق مليء جداً. سعل المحرك: هل سيتوقف؟ كلاً. انطلق ثانية. وهو يهدر بقوة أكبر.

استمر البحر يكشر عن أسنانه لكن الريح دفعتنا نحو الصخور التي تحرس الشاطئ. وجب عليّ تحريك دفة القيادة.

كان المركب يعاني تحطم قفصه. فجأة، ثمة طقطقة من العنف لا تُطاق. كانت كتلة قد صدمتنا. دُفعت فوراً إلى طرف السطح:

شق البحر خلفي فتحات في المركب؛ انزلق تحتي سطح المركب الخشبي.

حين وصلت إلى الماء وجدته بارداً وقاسياً كصخرة. قُدِّف بوب في إثري، فراح يزعق ويرتجف، بصوت مخنوق وحاد وهو يمسك برقبتي.

بدأت أسيح. تقدمت ببطء وبصعوبة، وكان بوب يثقل عليّ في كل لحظة.

تابعت السباحة إلى أن انفك ذراعاً بوب عن كتفيّ. قلقْتُ، فالتفتُ حينذاك، في الوقت الملائم لأراه يتعد بعينين هلعتين، فات الوقت لأمسكه.

بعد ذلك، لم أعد أتذكر شيئاً...

في الصباح، بدا البحر شأن حيوان ضخم نائم، منهك. حين فتحت عينيّ، لم أر إلا الهدوء الذي عم السماء والمياه والأرض بعد التنظيف الذي قامت به العاصفة وشعرت في أعماق أعماقي هذا الارتياح الأساسي. إنه مكافأة.

بعد ذلك تفحصت جسدي، دون أن أتحرك، وأنا ممدّد على الرمل، لأنأكد بالفكر ثم بعضلاتي أن كل جزء من جسدي يعمل. وقد اطمأننتُ، انتصبتُ وتأملتُ المكان الذي قذفتني إليه الأمواج. لقد سقطتُ في خليج صغيّر مستدير ترصعه صخور سوداء ورمل محمر،

إنه شاطئ طبيعي يحصره في الأسفل منحدر مخضوضر بشجيرات  
وبصنوبر يلتوي بينها درب.

- بوب؟

استدرت، فلقاً: أين كان؟ قفزتُ على قدميَّ لكن ألماً مزق معدتي  
وطرحني أرضاً. هل كنتُ جريحاً؟ بأصابعي جسست معدتي، وجوانبي  
وعضلات بطني دون أن ألاحظ شيئاً غريباً. نهضت حينئذٍ. عاد الألم  
أقل صعقاً وأكثر تحديداً: كنتُ جائعاً. كان الخليج الصغير يدور حولي  
ويتمايل شأنه شأن خيول خشبية اختل توازنها: بسبب لساني الضخم  
واليابس في سقف فمي الملتهب، أدركت أنني ظمآن.

تركت نفسي، وأنا قلق، أنهار على الأرض. كانت صورة بوب،  
الهلع، وقد حملته الأمواج تعود إلى خاطري. ماذا حدث له، صديقي  
بوبكار الذي لا يعرف أن يسبح؟ كررت السؤال ألف مرة على نفسي  
كي أتجنب أن أعطي لذاتي الجواب الذي هو في منتهى البدهة.

- بوب! بوب!

ناديت في اتجاه البحر، ثم في اتجاه الجبل. فلم يأتِ أي رنين  
ليجيب عن ندائي، ولا حتى الصدى وضاع صوتي بقلقه، في البعيد غير  
المتناهي للأمواج أو لأدغال الأشواك.

كانت الشمس، وهي ترتفع في السماء، قد أخذت تدفع الكون.  
في البدء، اعتبرت هذا الإحساس لذيذاً؛ أصبحت الحرارة بعد ذلك  
قوية جداً، يُضاف إليها اليأس والتعب، حتى إنني قد فقدت الوعي.



ثمة أحد راح يداعب خديّ.

سمعت أولاً الصوت، عذباً أنثوياً بالرغم من قتامته، يكاد يكون أجش، يلفظ كلمات إيطالية كأنه يقطع حبات عقد من اللالكى المزخرفة. كانت النبرة بمخملها وبحريها ذي المذاق الفاكهي توحى بحبة دراق ناضجة.

بعد ذلك، ركزت تفكيري على اليد التي تلامس جلدي من الوجه أو من الرقبة، بأصابع طويلة يقظة، ملساء وحساسة. ثم تعرف منخاراي على عطر، إنها رائحة قمح فاتر، رائحة وجه شاحب وشعر طويل أشقر.

فتحت جفنيّ ورأيت امرأة بشعر كثيف ذهبي تبسم لي بفم رائع الجمال، فشفثاها الورديتان بشكل مرهف تحيطان ببياض الأسنان النقي.

وجهت لي جملاً بالإيطالية، ثم بلغة أخرى، أخيراً غامرت بالإنكليزية.

- نهارك سعيد، كيف حالك؟

- ضعيفاً.

- ماذا حدث لك؟

إن رواية ما حدث لي قد بدا لي طويلاً جداً، وشاقاً حتى إنني اكتفيت بالتنهد وأنا أشيح بوجهي. من الأفضل أن أخفي الانفعال الذي اجتاحني.

ألحت قائلة: - هل تهتَ وأنت تسبح؟ هل جئتَ من خليج صغير آخر؟ من زورق صغير؟ أم من مركب؟ هل أصبتَ بتوعك؟ أين ملابسك؟

أثارت هذه الجملة الأخيرة انتباهي. رفعت رأسي وأنا أشنَج رقبتي التي تؤلمني واكتشفت الوضع: كنتُ عارياً كدودة! أطلقت، في الحال، تأوهاً ودرتُ على بطني. ليس وارداً أن أتصرف بشكل يخلو من الحياء أمام امرأة، لا سيما تلك المرأة الرائعة. ضحكك واستدارت، فرحة، كي تجعلني أشعر بالراحة قائلة: - لا تكن مرتبكاً، إنني معتادة شواطئ العراء.

بسرعة! ليس هناك دقيقة أضيعها. قبل أن يستقر سوء التفاهم بيننا. وجب عليّ أن أشرح لها مغامرتي.

وقد أدرت رأسي نحوها، بدأت أروي رحلتي من مالطة إلى صقلية وكيف ساءت الأحوال الجوية والعاصفة والغرق. أحسستُ في البدء، أنها لا تصدقني مطلقاً، ولكن حين شرعتُ في وصف مرحلة اختراق المركب للمنارتين، أظهرتُ فضولاً مبالغتاً، وما إن لفظت آخر كلماتي، حتى أمسكتُ بهاتفها الجوال واتصلت بأشخاص كثيرين أعطتهم، كما بدا لي، معلومات إن لم نقل أوامر بنبرة حازمة، وبسرعة في الكلام، في طقطقة من الحروف.

أحدثت فيتوريا - وهذا كان اسمها - في تلك اللحظة. فهمت ذلك فيما بعد - مخطط الإنقاذ: أخذ قرويون مركبهم ليتشلوا غرقى

ربما لا يزالون على قيد الحياة، خرج الأولاد من المدرسة ليقطعوا الشاطئ، كما أعد أصدقاؤها غرفاً للناجين. بعد عدة ساعات، وصلت الإسعافات الرسمية - من الدرك وحرس الشواطئ وشرطة الجمارك. دخل الجميع بدورهم في المعمة. أثناء ذلك، انتُشِل ثلاثة رجال وطفل وامرأتان وقُدّم لهم الطعام.

في تلك اللحظة، لم أستطع أن أفرق بين ما تقوم به فيتوريا بدافع إنساني أو من أجلي وحدي لأنني لم أفكر إلا في أن أستريح في انتظار أنباء عن بوب.

مدت لي منشفة شاطئ، وساعدتني على السير حتى سيارتها في أعلى الطريق وصحبتني عبر تعرجات طريق مظلل حتى قرية صغيرة حيث تسكن في شقة فوق مدرسة كانت فيها المعلمة الوحيدة والشابة. بعد عدة ساعات من النوم، بهرتني ثانية رؤيتها على السطح المزهر وهي تقدم لي عصير فواكه. فإذا كان شعر بعض الناس يوحي بأنه قد نبت شعرة تلو شعرة، فإن شعرها يبدو قد انبثق على شكل خصل تنساب بقوة وصحة وغازاة. أما عيناها فبلون الكستناء، نيتان أحياناً ومخضرتان في أشعة الشمس وهما تتأملانني بود أقرب إلى الحنان. فبالرغم من إشرافة الابتسامة، كان في ذلك الوجه حذر رئيسي وتحفظ تظهره الذقن الصغيرة والثنية الخفيفة تحت الفم والشفتان الرقيقتان أكثر من كونهما منفرجتين، لا ترتفعان مطلقاً، ولا تبدوان ساذجتين بتاتاً، بل حازمتين. كانت فيتوريا طويلة القامة جداً حتى يخال المرء

أن ساقها المنتصبين ستباعدان ظلها. كانت ممشوقة القوام، تحمل على صدرها الضيق علامات ثدين أكثر من كونهما ضرعين، وكان في هذا الجمال الصارخ شيء من المراهقة، أو من الخشئ، على مشارف الجنسين. وكانت جاذبيتها الخلافة وحركاتها تقنعني بأنه ليس أمامي ملاك أشقر، ذهبي، عابر، ولكنني أمام امرأة، أي ملاك لم يكتمل.

- من أين أنت؟

- لم أعد أتذكر، يا فيتوريا.

- طبعاً... ستقوله لي فيما بعد. ما اسمك؟

- لم أعد أتذكره. كيف تريد أن تسميني؟

- بما أنني قد وجدتك عارياً على الشاطئ، شأن نوسيك التي

اكتشفت أوليس عارياً بين أغصان القصب، فسأسميك أوليس.

- أوليس؟ هذا يلائمني.

خلال يومين، استرجعت قواي. مع ذلك، لم أستطع الامتناع عن

التفكير في كل لحظة ببوبكار، متسائلاً إن كان قد خرج سالماً، وهل هو

من الناجين بمعجزة، إذا...

أفضيت إلى فيتوريا بمخاوفي التي، بعد أن تلقت وصف ريفي،

استفسرت عنه من المختار ومن القسيس ومن أصدقائها هؤلاء الذين،

وفق عادات الضيافة في صقلية، إن كانوا قد فتحوا أبوابهم لغريق. لا

أحد من هؤلاء الذين أنقذوا يتفق مع وصفي.

اقترحت عليّ، يوم الأحد، أن أذهب إلى القديس الذي يُتلى عن

أرواح الموتى في البحر وأن أزور قبل ذلك المكان الذي عرضوا فيه  
الجثث التي انتشلوها، أو التي رست على الصخور الضخمة.  
حين دخلت من الباب ورأيت العشرين نعشاً مفتوحاً من الصنوبر  
الأبيض، وقد وضعتُ على الأرض، اقتنعتُ على الفور أن بوب موجود  
في واحد منها.

وبالفعل، كان في العلبة الثالثة في الصف الأيسر صديقي بوبكار  
ينتظرنني، بعينيه المغلقتين، وبجلده الذي تأكله الملح، وبيديه الكبيرتين  
المضمومتين على شرف نظيف، يكاد المكان بين الألواح الخشبية  
يتسع له بسبب طول قامته.

صرخت وأنا أقع على ركبتيّ:

- بوب!

دون أن أفكر، قبلتُ رفيقي على فمه، كأني أريد أن أعيده إلى  
الحياة وأبعثه وأتي بهذا الصبي النحيل والفرح الذي مرَّ بسرعة كبيرة  
على الأرض. هدني الألم، فصرخت:

- لماذا؟ لماذا؟

اندفع نحوي ضباط، وقد سمعوني أتأوه، بأصواتهم وأقلامهم  
بأيديهم، كي أمدهم بالسجل المدني عن الميت. لمحتُ فيتوريا، وأنا  
رافع رأسي، وقد اختبأت وراء أكتافهم وهي تشير إليّ إشارة سالبة  
برأسها.

سألني موظف: - هل تعرفه؟

- هل يمكنك أن تذكر اسمه وتاريخ ومكان ولادته؟ أله أسرة؟

أين؟

نظرت إلى بوب وفكرت: «من المفروض، يا صديقي بوب، أنه لا يحق لي أن أكلّمك»، ثم قَطَبْتُ جبينني وحككت رأسي، وغيرتُ تقاطيع وجهي بحركات كثيرة قبل أن أقول بتلعثم:

- كلاً، اعذروني. لقد اختلط عليّ الأمر. ظننت أنه... كلاً، أرجو

معذرتي، ثمة خطأ.

ساعدتني فيتوريا على النهوض، واعتذرت عني إلى الموظفين،

ثم بمجرد أن صرنا في الخارج، دست يدها في يدي قائلة:

- هل ترغب في البكاء؟

- إنني لا أبكي على الإطلاق.

- تعال. لن نذهب إلى القديس.

دفعتني داخل سيارتها وانطلقت بسرعة كبيرة، فوصلت إلى

مطلٍ يشرف على البحر وكذلك على جزء من الجزيرة. ببطء، تقدمتُ

بسيارتها بين أشجار الصنوبر الواقية من الشمس، والسرو، ثم وقفت

في الظل.

قطعتِ الكهرباء عن السيارة وأمرتني قائلة:

- ابكِ الآن، إذا أردت.

- لا أستطيع البكاء. لا أبكي بتاتاً.

- إذاً قبلني.

أخذ فمي بعنف شفيتها، وهناك، على مقعد السيارة، وسط الزيزان، بينما كان يقرع جرس الموتى، تطارحنا الغرام للمرة الأولى.

كانت فيتوريا، بالرغم من أصلها الصقلي، قد بقيت في صقلية، لكنها كانت، مثلي، كائناً قد قطع الروابط مع ماضيه لأنها هربت من سلالة مربكة. لم يكن جدها فقط فاشيين مشهورين، مقربين من الدكتاتور موسوليني في أسوأ الأمور وليس في أفضلها مطلقاً، ولكن والديها قد اشتهرا، بدورهما، بتطرفهما: كانا يساريين بقدر ما كان والداهما يمينيين، وأعضاء في السرايا الإرهابية في السنوات ١٩٧٠ عن قناعة، ولتجنبنا السمعة الوراثية الفاشية، قاما باغتيالات قاتلة دانهما التاريخ. قُتل الأب برصاصة خلال جولة ردعية، وماتت الأم بعد فترة قصيرة في السجن من نزف دماغي.

ربتها عماتها وأعمامها الذين كانوا يتخلصون من هذا الحمل المربك بأن يرسلها كل واحد منهم إلى الآخر. كبرت فيتوريا في العزلة وفي ازدياد الأعراف. صارت معلمة لتعطي معنى لحياتها ولتبني من جديد طفولة وذلك بمساعدة تلاميذها على بناء شخصيتهم.

لكنها كانت تعرف أن مزاجها الذي يماثل مزاج والديها وجديها والذي سبب موتهم، يمكن أن يقودها إلى أقصى الحدود. كانت كريمة، وقد عملت في الدفاع عن المسافرين غير النظاميين الذين يرسون في شواطئ الجزيرة، فكانت تحب عملها السياسي بقدر ما كانت تخشاه.

فتتصرف وهي تلوم نفسها على ذلك. في الحقيقة، كانت تتحدى ذاتها، فتخجل مما كان عليها أن تفتخر به.

ذات صباح، بعد شهر تماماً من موت بوب، لاقاني والذي حين كنتُ فجرأ، مشغولاً بنظافتي.

- سعد، يا لحمأ من لحمي ويا دمأ من دمي ويا عرق النجوم، كم أنا متأثر ومطمئن لمعرفة أنك هنا، بالقرب من امرأة جميلة ومُحِبَّة. لو كان لا يزال في استطاعتي أن أصنع دمعة فرح، لذرقتها.

- لقد جئتَ في الوقت المناسب. عندي سؤال لك: كيف تعيشون هناك، من حيث أنت قادم؟

- لم نعد نعيش، فنحن أموات.

- ولكن ماذا بعد؟

- يا ابني، من المحظر علينا أن نبوح بأدنى إشارة.

- هل هذا أمر؟

- إنه من الحس السليم! يجب أن يحيط السر بالموت. فليس

للأحياء أية معرفة في ذلك طوال حياتهم، لأنه، مهما حدث، فسيجتازون العتبة عندما تحين ساعتهم. إن هذا لأفضل، صدقني.

- لماذا؟ هل هو فظيع بلد الموتى؟

- إن حيلك كي تجعلني أثرثر فجة، يا عزيزي سعد. تصور نتائج

معلومة... إذا أكدت لك أن هناك سيئاً، فستُصاب بخيبة وتقع في المرض النفسي المسمى (النورستانيا)، وبالتالي ستنسى أن تعيش.



بالمقابل، إذا ادعيتُ أن هناك حسناً، فستتمنى أن تموت. إن ما يحمي حياتك، هو أن واقع موتك يبقى خفياً. وما يقوي وجودك ويدعمه، هو الجهل.

- هل رأيتَ بوب؟

- ما من جواب.

- لماذا لا يأتي لرؤيتي؟

- رحل إلى مكان آخر.

- إلى أين؟

- ما من جواب، يا ابني. لكن رحيله يمثل إنجازاً وإنني سعيد من

أجله. عليك أن تبتهج بذلك، نظراً لصداقتك له.

- لن أراه مطلقاً حتى نهايتي الخاصة؟

- كلاً.

- وبعد ذلك؟

- ما من جواب.

- كيف يحدث أنني أراك وتحديثي وترافقني ولماذا ليس هو؟

- لقد أقر لي بأنني روح معذبة غير قادرة على ترك الأرض.

حين ذكر ذلك، بدا راضياً عن نفسه، شأنه كمن انتزع، بعد نضال

مرير، لقباً أو وساماً يُحسد عليهما.

- هل أنا مصدر قلقك، يا أبي؟

- عفواً؟

- أنا الذي أحتجرك.

- مم... أفترض أننا يمكن أن نفكر هكذا.

- ولكن ذات يوم، بدورك، سترحل؟

- لا تحاول أن تزلقني بالجواب. فمع ميت وبعكس الأحياء، هذا

لا ينجح!

سكتُ. لاحظ وجهي المُقَطَّب وعينيَّ الحزيتين، فرجع أمامي.

- ماذا تريد أن تقول له، يا ابني؟

- هل ستري بوب؟

- ربما، لا أستطيع أن أعدك بشيء. حسناً؟ إذا اقتضى الحال، ماذا

عليَّ أن أردد عليه؟

- أطلبُ منه العفو.

- ماذا؟

- أطلبُ منه العفو، لأنني لم أكن قادراً على إنقاذه. ولأنني لم

أدرك، وهو حي، أنه كان صديقي. إنني خجل من نفسي..

انحنى أبي وأراد تقبيلي، لكنه تردد فوضع يده على كتفي.

- سأنقل رسالتك، يا ابني، وإن كنتُ أفكر أن بوب لن يعلم شيئاً

كان يعرفه. بالمقابل، ستستطيع أنت هذا المساء أن تبكي.

- أن أبكي؟ يا أبي، إنني لا أبكي مطلقاً.

- هل تراهن؟

- إنني لا أبكي مطلقاً!

- أتحداك! تراهن على أي شيء؟ كم؟

كيف عرف ذلك؟ فما إن اختفى، وأنا أفكر بكلماتي إلى بوب، حتى بدأت عيناى توخزاني واهتز جذعي من الشهقات، فطفحت دموعي حتى منتصف الليل.

بفضل تدخل فيتوريا، لم يُعتَبَر الناجون من مركبنا المميت بمسافرين غير نظاميين ولكن كغرقى. وهذا يغير كل شيء في نظر أهل صقلية. فبدلاً من أن ينقلونا إلى مركز احتجاز، شأن مركز مالطة، مع ركاب آخرين غير نظاميين أوقفهم حرس الشواطئ، أعطي لنا الحق في أن نتجول بكل حرية. وأفضل من ذلك، راحت قرية فيتوريا تعتز باستقبالنا بحسب أعراف الضيافة الأسطورية للجزر: قُدم لكل واحد منا مكان متواضع ينام فيه، وتلقينا معونة صغيرة من المال كما كنا نُعالج مجاناً. جمع القسيس مؤناً من رعيته ليوزعها علينا كما استغلت فيتوريا، المعلمة، غرفة من مقر العمدة ابتدأت تعلمنا فيها اللغة الإيطالية.

للأسف، لقد تحطم اندفاعي. طالما لاحظت أن الإيطاليين يعاملوننا معاملة جيدة، لكنني كنتُ أسيء معاملتهم، فلا أرد جميلهم وصرت سكوتاً، غامضاً، حذراً، مستعداً أن أعض الشخص الذي يُقدم لي يده ليساعدني.

إثر فحص لضميري، وأنا خجل من نفسي، لمتُ ذاتي ليس لأنني تركت بلدي وأتلفتُ أوراقى الثبوتية وفقدت صديقي ولكن لأنني

لم أعد أتحمل أحداً؛ بينما بقي هدفي أن أجد مكاني في المجتمع الأوروبي، رفضت ما قُدم لي وفضلت أن أغوص وأن أهوي. لا شك أن المرحلة القادمة هي الجنون!

كانت فيتوريا وحدها، بفضل اهتمامها الغريب بي، قد جعلت رأسي خارج الماء ومنعتني من أن أغرق في الانهيار العصبي. أحياناً كانت تنجح في ذلك؛ فإثر حرارة ابتسامتها، أعود لأصبح سعد السريع والسعيد والمقدام الذي قام بتلك الرحلة؛ إلا أنها ما إن تتركني عدة ساعات حتى أرزح تحت الأفكار الحزينة ويشل مزاجي الكئيب قلبي وعملي ويمنعني من أن أستمر في الحياة.

بعد علاقتنا الجنسية تحت الصنوبر إثر موت بوب، خجلت من نفسي خجلاً كبيراً حتى إنني طلبت منها ألا تعاود الكرة. على الإطلاق.  
- لا أريد أن أستغل معاً حسن ضيافتك وجسدك.

- ولكن...

- أرجوك. سأفقد بذلك احترامي لنفسي.

احتجتُ بعنف لأنها أحببت كثيراً تلك اللحظة؛ ثم، بعد أن أكدت لها، أنني في أعماقي أود معاودة الكرة، سعت إلى مغازلات جديدة ادعتُ أنني لم أفهمها. فحين أصبحت تلك المحاولات مباشرة، هددتها بترك سقفها إذا حدث ذلك ثانية. انتهى بها الأمر أن قبلتُ نذر عفتي.

ليس الماضي بلداً يتركه الإنسان بسهولة خلفه. كنتُ أعوم.

فقدت السيطرة على نفسي. بالرغم من إعجابي باللغة الإيطالية التي كانت تعلمني إياها فيتوريا، فإن استعمال كلمات مختلفة لتشير إلى أشياء قديمة تجعل تلك الكلمات أقل واقعية وأقل شرعية، بلا مذاق ولا تاريخ ولا ذكريات. فالعالم الذي تحدده لغة جديدة لم يكن له حضور صريح وأكد شأن ما له في لغتي الأم.

لا شك أنني كنت قد تركت صقلية بسرعة كبرى لو لم أفتح، بمحض الصدفة، ذات يوم دفترًا مكتوبًا بخط اليد لفيتوريا، فرحت أقلب صفحاته بشكل آلي. كان نوعاً من مذكرات، غير مؤرخ، حيث تسجل خواطرها. قرأته بسرعة فمزقتني المفاجأة: لم أتعرف على فيتوريا المفعمة بالحياة والإرادة، والنشاط والتي تخصص ساعة ونصف ساعة كل صباح لرياضتها مع رفيقة في القرية، اكتشفتُ فيه شخصية أشد قتامة، تتحدث عن جسدها السقيم وعن الجهود التي تقتضيها منها المهام اليومية وعن خوفها من المستقبل. كان نصاً مرصعاً ببداية فقرات كالتالية: «الموت هو ريفيقي. أنا وأنا أفكر فيه، وأعتقد أنه، إذا ما تقادم وضعي، فسيمكنني أن أرتاح دائماً على كتفه وأتعزى عن الحياة إلى الأبد» أو تلك الجملة: «كلما تضاءلت حياتي وزحفتُ، شكرتُ الطبيعة على أنها قد ابتكرت الموت. حين أشعر بأنني مفعمة بالقرف والغضب أو الألم، يبقى لي الموت».

في المساء، رجوت فيتوريا أن تغفر لي تطفلي وأن تشرح لي ما

قرأتُ.

صعقتني الحقيقة دون انتظار: كانت فيتوريا مصابة بمرض لا شفاء منه وهو انحلال عصبي. كانت رياضة الصباح تخفي في الواقع جلسة يومية لتدليك طبي تؤخر تفاقم العاهة لكنها لا تشفيها. لم تكن فيتوريا تتعلق بأي وهم: فبسرعة تقدم المرض، يقل أملها في الحياة لأنه لم يتجاوز أي مصاب بهذا المرض الأربعين من العمر مطلقاً.

- سترحل من الآن فصاعداً، يا أوليس.

- كلاً.

- بلى، ستركني كما تركني الآخرون. بمجمل القول، كلمة تركي مبالغ فيها، بما أننا لا نعيش معاً كزوجين.

حينذاك طلبت منها أن نذهب بالسيارة إلى المطل، تحت أشجار الصنوبر، حيث تطارحنا الغرام بعد موت بوب، وقد أخذت المبادرة، هذه المرة، لمواساتها وأنا أخذها بين ذراعيّ.

منذ ذلك اليوم، لم أعد أفكر بالرحيل ولكنني أصبحت عشيق فيتوريا النظامي. رمتني الشفقة على درب الحب. في الأسابيع التالية، عشنا غراماً في منتهى الوله، بين الحزن والنشوة، ونحن نقفز من الألم إلى المتعة. كنا طوال ساعات ننعم بالكسل تحت الشراشف بعد تعاطي الغرام. كثيراً ما كانت تفضي لي بمكنونات نفسها. لماذا؟ لأنها كانت تحتاج إلى ذلك. ولأنني لم أكن أنبس بينت شفة.

كانت رغبتني فيها تدفعني إلى أن أقبلها وأن أداعبها وأن أنفذ إليها ولكنني أرفض تبادل الاعترافات. وقد أثقلت على قلبي بلاطة من

رصاص، لم أكن أتخيل قط ما كنتُ أستطيع أن أروي لها. هكذا كنتُ أتصرف كعاشق لائق لكنه أخرس.

قررت فيتوريا أن تنظم حفلة، بمناسبة ذكرى وصولي إلى تلك الجزيرة.

في ذاك الصباح، كان جسدها الحار يلتصق بجسدي، ويدها تداعب صدري وبصوت موسيقي، سألتني:

- إذًا، يا أوليس، ألم يحزن الوقت لتبوح لي باسمك الحقيقي؟

- مم...م

- أعرف، ستدعي من جديد أنك لم تعد تتذكر شيئاً. احترمت تلك الكذبة لكنني أعتقد الآن، بعد عام، أنه يحق لي معرفة الحقيقة، ليس كذلك؟

فتحت عينيّ واسعتين وتأملتُها وأعجبتُ بكمال تقاطيعها وتاهت أصابعي في شعرها اللامتناهي وفكرت أنني، موضوعياً، يجب أن أكون أسعد رجل على الأرض. إلا أن كلمات أخرى خرجت من فمي:

- أوليس يلائمني كثيراً. لقد تألفت معه.

قلت ذلك بنبرة جافة وباردة وبلا انفعال. ارتعشت رموشها.

- كان بودي أن تفتح لي قلبك، يا أوليس، وأن تثق بي وأن تصف لي ماضيك.

- ماذا قد يُغيّر ذلك في علاقتنا؟

- سيتيح لي ذلك أن أحبك بشكل أفضل.

- طريقتك الحالية تلائمني.

- قد يُثبت ذلك أنك تحبني.

أدرت رأسي نحو النافذة؛ بدأ الحديث لا يروق لي. دون أن ترفع  
نبرتها، وبالحرارة العذبة عينها، ألحت قائلة:

- أجل، هذا سيثبت أنك تحبني وهو ما لم تقله لي مطلقاً. وأخيراً  
حين تروي قصتك تهب ذاتك بقدر ما أعطيتُ نفسي. ما رأيك في  
ذلك؟

تمتتم بقرقرة غير مفهومة. نقرتُ أذني ثم ختمت قولها وهي  
تقفز بنشاط خارج السرير:

- فكر في ذلك، يا أوليس. وأجبني هذا المساء.

كي لا أفكر في ذلك، استغرقت في مراقبة دُرة، خلف النافذة شبه  
المفتوحة، قد استقرت على شرفتنا وقررتُ أن تبني فيه عشها.  
ثم نهضتُ لأستحم. وأنا أنشف رجليّ، شعرت بحضور. ظهر  
لي أبي بمزاج لعوب.

- يا ابني، يا ابني، يا ابني! لورأت أمك هذا! إنكما تشكلمان زوجين  
رائعين، أنت وهي. إنك أسمر بقدر ما هي شقراء. يجب حبسكما في  
المتحف في قفص للإشادة بالجنس البشري.

- لا تتحمس، يا أبي. لم أرك بهذا التشجيع حين كنتُ أعاشر  
ليلي.

- هذا ليس صحيحاً! كنت أحب بهذا القدر ليلي! حقاً! إنها فتاة



استثنائية، مبدعة، ذكية، تدخن بطريقة لا يدخن بها أحد. لكنك تألمت كثيراً منذ ذاك الحين حتى إنني أعتبط اليوم أكثر.

- فيما يخص ليلي، هل التقيتها في مملكة الموتى؟

- كلاً، مطلقاً.

- هذا مشير للفضول.

- أجل، هذا غريب. يجب أن نحدد أنها ماتت قبلي.

- هل يغير ذلك شيئاً؟

- ربما. لست أدري.

أشار إلى علبة نحاسية خضراء على منضدة الزينة وغمز بعينه.

- تهانني على الخاتم!

- أي خاتم؟

وفق تعليماته، فتحت الغطاء ووجدت خاتمي خطوبة.

إن السعادة التي ننتظرها تُفسد أحياناً تلك التي نعيشها.  
 كنتُ قد قلت « نعم » عن ضعف، ليلة خطوبتنا. إلا أنني، وإن  
 عشت لحظات بسيطة، هائلة بصحبة فيتوريا، لكنني تمنيتُ دائماً  
 الرحيل. لم يكن البقاء في صقلية في مخططي. فلندن هاجسي ولندن  
 تجذبني. لسبب عنيد لا أفهم جذوره، لقد أعطيت موعداً لنفسي في  
 إنكلترا. فكل ما أقوم به قبل ذلك لا وجود له إلا بشكل نصفي، «في  
 انتظار ذلك».

وإن ظهرتُ في نظر الجميع كخطيب فيتوريا، كنتُ أعرف أنني لم  
 أكن إلا شبحاً له وأنا في ذكرى لها، في تلك الساعة، تشكل حضوراً من  
 لحم لكنها ستأخذ قريباً كيانها الحقيقي، كيانها النهائي، وهو الغياب.  
 غالباً ما أستشف الألم الذي سأسببه لها، فأبدي رقة، رقة  
 متناهية؛ وفي الساعة التي تليها، أتمالك نفسي لأنني أدرك أن كل  
 تلك المحبة تجعل رحيلي لها أكثر غموضاً وأعظم ألماً؛ فأبدو  
 حينذاك قاسياً، في منتهى القسوة. بمجمل القول، بقدر ما كنت

أقرب مما يظنه بعضهم زواجي وأنا أعرف أنه رحيلي، صعب عليّ أن أجد تصرفاً ملائماً.

أتساءل أحياناً إن لم تكن فيتوريا قد استشفت مشروعياً. ففي الصمت بعد تعاطي الغرام، بالرغم من أعضائنا المتشابكة، كانت عيناها تتأملانني شأن لغز ويبدو رأسها مضطرباً من أسئلة تحبسها شفتاها. فيدها تداعبني بطريقة غامضة، بحثاً عن نقطة تستند إليها لتنتقل الكلمة.

فهمتُ، منذ البدء، أن الحزن يربطنا أكثر مما يفعل الفرح. لم تكن السعادة تجمعنا بل التعاسة: لقد طارحتها الغرام لأقتل حزني على بوب، ولم أستمر في ترددي إلى سريرها إلا هرباً من أفكاري السوداء، هكذا، منذ اليوم الأول حين أنقذتني فيتوريا على ضفاف الخليج الصغير، اعتبرتها كملجأ ضد العاصفة؛ استقبلتني، من جهتها، لتكسر عزلتها وتحدي التقليديين وتحطم التقاليد العائلية التي تجمع أشخاصاً في منتهى التماثل وبخاصة لتبادل جسمها الذي يتألم بجسم يتمتع. من طرفينا، أُخيل إليّ أن لهواناً أسباباً سلبية أكثر منها إيجابية؛ «كنا نتحاب كي لا...»؛ شأن غريقين، تدفعنا قوة الكآبة، كنا نتحاب كي لا نفكر وكي لا نضيع الوقت. كلانا ينتظر شيئاً آخر عما يستطيع كل واحد منا أن يعطيه للآخر.

حين أصبحت على يقين من معرفتي للكلمات التي تعبر عن فكري، جمعت أشياءي القلائل - منها غطاء والدتي الذي وجدته بعد

سنة أشهر من الغرق، وقد رمته الأمواج على رأس صخرة -، خربشت  
نصاً ووضعته على السرير، بشكل مرثي جداً.

«فيتوريا،

بعض قصص الحب تستمد جمالها من كونها موقفة؛ فإذا ما طُلب  
من تلك القصص المزيد فإنها تكذب وتعبس وتصبح دميمة. شأن خيول  
وحشية لا تركض بسرعة إلا لفترة قصيرة، فهي تتألق في العدو الطليق  
لكن أنفاسها تتقطع ما إن يُثقل كاهلها.

هكذا تنساب علاقتنا، رائعة إذا تعرفنا فيها على نزوة، وتصبح  
عرجاء تتعثر إذا أردنا أن ندفعها نحو الزواج. إنني سعيد حين أضاجعك؛  
وحين أتصور أنني سأقاسمك حياتي، أخجل من اغتصابي مكان الرجل  
الذي سيحبك حباً تاماً ولن يحب سواك.

لأنني أحب امرأة، وليس أنت. تدعى ليلي. توفيت.

وما العمل؟ إنني آسف، يا فيتوريا، فتلك الشابة ليلي، وإن  
رحلت، تبقى فيَّ بشكل قوي، فهي حاضرة حتى إنها لا تزال تجعلني  
أسير حبها. لستُ أنا الذي أملك قدرة شد الرباط بيننا أو حله، إنها هي.  
إلا أنني ظننت حين التقيتك أنني قد أستطيع فك ذلك الحبل. وهذا  
خطأ. فليلي هي التي تقرر دائماً.

سأرحل، يا فيتوريا. فإذا كنتِ متعتي، فإن ليلي قدرتي.

إنني متعلق بك بقدر ما أستطيع التعلق بامرأة جميلة وذكية  
وكريمة، أشتهيها وأحترمها وأعزها.

إذا رحلت غداً، نكون قد عشنا أجمل ذكرياتنا. أما إذا بقيتُ،  
فسنكتشف أننا لسنا بزوجين كاملين وأن ملذاتنا، في الوقت الحاضر،  
تخفي نقائصنا. لأنني لستُ سوى عابر، لكن عام سعادتنا لن يمر،  
سيتوهج شأن منارة لينير حياتنا؛ فحيث قد أقيم، تستقر التعاسة لأن  
الإنسان لا يستطيع، إلا إذا كان فناً عظيماً، أن يجعل الموقت والعابر  
خالدين.

سامحيني على الدموع التي ستسببها تلك الكلمة لكنني أفضل أن  
تبكي بسبب غيابي عن أن تبكي بسبب حضوري. إنني أحبك بقدر ما  
أستطيع أن أحب، وبالطبع ليس بالقدر الذي تستحقينه.  
المخلص لك، بالرغم من كل شيء، إلى الأبد.  
سعد سعد.

للمرة الأولى - والأخيرة - أفضيت إليها باسمي.  
نظرتُ إلى مرآة غرفة النوم، لأتأكد من أن مظهري يصلح للسفر  
بإيقاف سيارة على الطريق العام وركوبها مجاناً ثم سرحت شعري.  
استغل أبي تلك الفرصة ليخرج من إطار المرأة.  
- لمَ الرحيل، يا ابني؟ إن كان الأمر هو العيش، مجرد العيش،  
يمكنك أن تعيش هنا. .  
- ربما أريد أكثر من ذلك.

- ماذا؟

- لا أعرف.

- إن كانت الغاية أن تكون محبوباً، فهنا أنت محبوب. إن حب

السفر عندك يتحول إلى عبثية ولا معنى. أخشى أن تكون قد أسأت  
الاعتقاد وذلك بتفضيلك أوهاماً على كل واقع.

- أريد أن أذهب حيث تقبع رغبتني، في لندن. ثم إنني لا أتحمل

شيئاً مما تحمله لي الصدفة. لقد حددت لنفسني هدفاً ولن أرتاح قبل أن  
أبلغه، ليس لي محطات توقف بعد الآن.

- حسناً، على كل حال، سأتبعك. أضف بعض المرهم المثبت

على الجانب الأيمن.

- شكراً.

بعد عدة ساعات، بفضل سيارتين متابعيتين ساعدتاني على قطع

الطريق، وصلتُ إلى مرفأ «بالرمو».

كان عليّ أن أجد طريقة لمغادرة صقلية دون تقديم أوراق لم

أعد أملكها، ودون أن أنفق كذلك بعض الأورو الذي تصدق به عليّ  
القرويون.

وأنا أضرب نعليّ على رصيف المرفأ، وأضعاف الملاحظات،

سعيت إلى إعداد خطة. بينما كنت أدرس حمولة مركب عبور، دوى  
صوت خلفي:

- أنت، أيها الشاب، تبحث عن نقل مباشر ومجاني، أليس كذلك؟

حين استدرت، اكتشفت عملاقاً أسود، إنه كتلة من اللحم ومن العضلات يلتصق بها بنطال من النايلون المذهب وقميص بلا أكمام وردي اللون ويحمل في ذراعه اليسرى أربع ساعات فخمة وزائفة من الذهب، ثلاث منها مستديرة وواحدة مربعة. وقد استرخى على مربوط سفينة راسية، راح يبتسم لي بأسنان متباعدة جداً.

فكرت بوصولي إلى القاهرة، كما تذكرت جدالي مع بوبكار أمام مكتب الأمم المتحدة، لم أستطع الامتناع عن التفكير في أن القدر قد أرسل لي، جالساً على الرصيف، تجسداً لبوب. بادلت العملاق ابتسامته دون أن أخاتل في جوابي.

- لقد أصبت.

- آه!

- هل لديك مخطط؟

- أجل.

- ما هو؟

- لا أرى لماذا أعطيك إياه.

- باسم الصداقة.

- لست بصديقي.

- ليس حتى الآن.

- ولا أرى كيف ولماذا تصبح صديقي.

- أتراهن؟

فوجئ من جسارتي الهادئة، فانفجر ضاحكاً. اقترحت عليه أن أصبحه لتتعشى وأنا أحد «أدعوك»؛ أجب عن دعوتي أن لديه دائماً متسعاً من الوقت يخصصه لأصدقاء المستقبل.

كان لوبولد - وهذا اسمه - آتياً من ساحل العاج. فبعد محن تختلف عن مصائبي، ولكنها تعادلها تعقيداً، أراد الوصول إلى باريس. أعلن لي منذ الصحن الثاني قائلاً:  
- إنني فيلسوف.

- هل أنت مجاز في الفلسفة؟  
- كلاً، ما العمل؟ لم يكن عندي وقت للتعلم. كان عليّ أن أقيم أود العائلة. حتى لو ركضت في كل مكان، لم أكن أتوصل إلى ذلك.  
- إذاً، لماذا تدعي أنك فيلسوف؟  
أجاب قائلاً:

- لأن على المرء أن يكون فيلسوفاً ليعيش الحياة التي أعيشها. كنتُ، في الماضي، في شاطئ العاج، شأني اليوم، بلا أوراق نظامية. حلمي هو أن أصبح فيلسوفاً في باريس.  
- تُعلم الفلسفة في باريس؟

- ولكن ماذا تروي لي، بحكاياتك التي ترددها على الدوام عن الدروس في المدرسة، وفي الجامعة! فيلسوف في باريس يعني أن أمارس فلسفتي على الطريق المُعبَّد في باريس وكذلك على الشارع المبلط.



- تحت الجسور، على سبيل المثال؟

- تماماً.

- مع المتشردين؟

- أخيراً، فهمت! لأنّ هؤلاء المتشردين، إذا لم يصلوا إلى قمة

الفلسفة، فهذا يعني أنني لم أفقه شيئاً من الفلسفة.

واقفته. تابع ليوبولد أكله وحديثه بنهم لا ينضب.

- كما ترى، أريد أن أجد مجرد مكان صغير مريح في فرنسا،

لكنتي لا أريد أن أصبح فرنسياً ولا أوروبياً، إلا من أجل الأوراق. لأنني

بصراحة، لن أستطيع مطلقاً أن أتفهم العقلية.

- العقلية الأوروبية؟

- أجل. إنني بالغ اللطف، في منتهى الشراهة والسذاجة. أنا أحب

الحياة، أحب السلام. إنني أعجز، شأنهم، عن أن أعشق الحرب.

- أنت تمزح؟

- كن ثاقب الفكر، أيها الصديق. يعشق الأوروبيون المذابح،

ويطيرون حباً بالقنابل وبرائحة البارود. والبرهان؟ إنهم يشنون حرباً،

كل ثلاثين سنة ويعانون من أن يصبروا مدة أطول بدون حرب. حتى في

زمن السلم، لا يحبون إلا الموسيقى العسكرية؛ فحين يقرع الطبل وينفخ

البوق بأناشيدهم الوطنية، تغرورق عيونهم بالدموع، بل يسترسلون في

البكاء وتتدفق مشاعرهم، كما لو كانوا يسمعونهم أغنية حب. كلاً،

هذا واضح، إنهم يحبون الحرب والقتال والغزو. وأسوأ ما في الأمر،

هل تعرف لماذا يشن الأوروبيون الحرب، ويقتلون، ويقتلون؟ بسبب الملل. لأنه ليست لهم مثل علينا. إنهم يشنون الحروب لينجوا من الضجر، يشنون الحروب ليفلتوا من اليأس، يشنون الحروب ليتجددوا. - إنك تبالغ. تعيش أوروبا بسلام منذ ستين عاماً.

- بالضبط! لقد ابتعدوا كثيراً عن الحرب: اليوم شبانهم على مشارف الانتحار، والمراهقون يبحثون عن الطرق ليقتلوا أنفسهم. - كلاً، لقد تغيروا. إنهم الآن في وضع أفضل.

- أجل، تحسنت الأمور لأن عندهم السينما، والتلفاز اللذين ييثان لهما يوماً جرعتهما الصغيرة من الهول والجثث والدماء والجرحى المنقولين والانفجارات والأبنية المتهدمة والجنود الواقعين في الكمائن وأهالي الجنود يبكون ولكن بعزة وكرامة. إن كل ذلك يحافظ على صحتهم، فهي تدابير تساعدهم في انتظار المجزرة الجميلة القادمة.

- قد يدهشني أن تلتقي بأوروبي مقتنع بالصورة التي تخطها عنه. - طبعاً! لا يعرف الأوروبيون أنهم هكذا. لماذا؟ كي يدرس الإنسان نفسه، اخترعوا المرأة المشوّهة: إنهم المثقفون. اختراع عبقري: المرأة التي تعطيهم صورة تختلف عن صورتهم عن أنفسهم! إنه الانعكاس الذي يُتيح لهم أن يروا أنفسهم دون أن يروا ذواتهم! إن الأوروبيين يعشقون المثقفين، فيقدمون لهم المجد والثروة والنفوذ كي يؤمن لهم هؤلاء المثقفون الانطباع بأنهم ليسوا كما هم، لكن

العكس: مسالمون، دعاة الفلسفة الإنسانية، ينادون بالتآخي، مثاليون. يا له من عمل مقدس، هذا العمل الذي يقوم به المثقفون! برواتب جيدة، وبنفع كبير. لو كنت غير راغب في أن أكون فيلسوفاً في باريس، لأحببت أن أعمل مثقفاً. يستطيع الأوروبيون، بفضل مفكريهم، أن يعيشوا مرتاحين في عالم مزدوج: يتحدثون عن السلام ويشنون الحرب، يخلقون العقلانية ويقتلون بالباع وبالذراع ويتكرونها حقوق الإنسان ويجمعون أكبر عدد من السرقات والاستيلاء على ممتلكات الغير والمجازر من كل التاريخ الإنساني. يا له من شعب غريب، الأوروبيون، أيها الصاحب، إنهم شعب عجيب، شعب لا يتواصل رأسه مع يديه.

- ومع ذلك، فهناك تريد أن تعيش، أيها الصاحب؟

- أجل.

طوال ثلاثة أيام وثلاث ليالٍ، لم نفترق، أنا وليوبولد.

حوالي منتصف الليل، وقد هاج ليوبولد من النقاشات المملة والمشروبات، راحت الدماء تغلي في عروقه ولم يعد يستطيع البقاء في مكانه وشعر بحاجة لإغراء النساء. حينذاك، لا شيء يستطيع منعه من الحديث عن كل ما يُظهر أفضاً ونهوداً. والأغرب من ذلك هو أن ليوبولد، تحت ملابسه ذات الألوان الصارخة من وردية حمراء إلى صفراء فاقعة، بسلاسله، وأساوره البراقة ومجموعة طرفه التي يلبسها المغنون الشعبيون وحذاءيه المذهبين وقبعته الفضية، فكل هيئته تأخذ

مظهر راهبة إذا ما قارناه بأكبر المتكبرين البرازيليين الرديثين. كان يغري السائحات ويتوصل دائماً إلى أن ينال مراده. حين يترك فريسته العابرة، يعود إليّ بعينين قرمزيتين، وبرأس ملتهب.

- هل تعرف ما أنا فاعل؟ سنغوص في هؤلاء الأوروبيين، ونجعلهم يحملون أطفالاً، نحن الزوج والعرب والآسيويين لأننا نضاجع أكثر منهم وأفضل منهم ولأننا نحب الأطفال ونصنع منهم بشكل متزايد. سيأتي يوم، لن يبقى فيه كثير من الأوروبيين.

- بلى، لكن سنكون أنا وأنت. أو بالأحرى أولادك غير الشرعيين بما أنك مصمم على إعادة إعمار الكوكب بالسكان.

- أبنائي وبناتي في كل مكان؟ تعتقد أن الوضع سيكون أفضل!  
- حين أسمعك تروي كل تلك السخافات، لست في منتهى الثقة من ذلك.

كلما تقدم ليوبولد في النظريات التي ينشئها عن هؤلاء الأوروبيين الذين يجذبونه راح يُفضي إليّ، قطعة فقطعة، بخطته في الهرب. كي نترك صقلية، كان علينا أن نصعد إلى مركب عبور؛ لكننا، كي نتجنب أن ندفع أجرة أو أن نبرز أوراقاً ثبوتية لا نملكها، يلزمنا سيارة سائحين نجد فيها مكاناً نختبيج فيه. لذا، رحنا نمضي أيامنا نتفحص مجموعة المسافرين، ونحن نفتش عن الزمرة التي تتيح لنا تحقيق مخططنا.

- الطريقة المثلى تكون بإيقاف سويسريين صغار.

- عفواً؟

- سويسريون صغار. أسرة، كل فرد من أفرادها أشقر، غنية، تلبس كتاناً أبيض وتنقل في سيارة بحجم الشاحنة، الأسرة المثالية التي يبتسم فيها الوالدان. والأطفال نظيفون دائماً، تتمتع تلك الأسرة بسلسلة امتيازات، فللرضيع هاتف جوال وللجنين بطاقة اعتماد بلاتينية. لا يُضايق الشرطة هؤلاء الناس الذين هم خارج المجتمع ومشاكله حتى إنهم لا يتصورون الضربات الدنيئة مطلقاً. أوجد لنا سويسريين صغاراً! لكن حذارٍ: سويسريون صغار وليسوا بسويسريين! لأنه، فلنفرض أننا نبقى محبوسين في صندوق، في أوروبا، في سويسرة لا أحد يرغب فينا. يُغلقون حدودهم بالبحيرات والجبال والجمارك والكلاب ورجال الشرطة، بكل شيء! لاحظ، ليست بقية الدول أكثر تسامحاً حين تُمس حدودها.

أجبت قائلاً:

- إن السهر على أرض البلاد تصرف عاقل حين لا يكون للمرء إلا بلد واحد.

- في القرون الأخيرة، ذهب الأوروبيون قليلاً إلى كل أصقاع الدنيا، فأسسوا تجارات، في أماكن كثيرة وحلّقوا في أماكن كثيرة إلى حد ما وحفروا في أماكن كثيرة وبنوا في أماكن كثيرة وتكاثروا في أماكن كثيرة واستعمروا أماكن كثيرة. والآن، ينزعجون إذا ما جئنا عندهم؟ لكنني لا أصدق ما تسمعه أذناي! أرضهم، جاؤوا يوسعونها

عندنا بلا حياء، أليس كذلك؟ هم الذين بدأوا فبتغيير أماكن الحدود. والآن، جاء دورنا، وعليهم أن يعتادوا ذلك، لأننا جميعاً سنأتي عندهم من أفارقة وعرب وآسيويين ومن أميركا اللاتينية. أما أنا، بعكسهم، لن أجتاز الحدود بأسلحة وبعنود أو بالرسالة النبيلة وهي تغيير لغتهم وقوانينهم ودينهم. كلاً، لن أغزو ولا أريد أن أبدل شيئاً، كل ما أبغيه هو أن أجد مجرد مكان صغير أركن إليه. انظر، أليس هؤلاء سويسريين صغاراً؟

أراني أسرة أنيقة أوقفت في المرآب سيارتين ضخمتين للاستجمام.

- هناك، يمكن أن تجد مكاناً.

- ألا تأتي؟ ربما هناك مكان لاثنين.

- كلاً، لن أتحرك.

- ماذا؟ أَلن تعمل فيلسوفاً في باريس.

- بلى، بلى. ليس فوراً. إنني الآن أعمل فيلسوفاً في باليرما. أساعد

الناس الذين على شاكلتك. أشعر بأنني أكثر نفعاً هنا.

- ولكن...

- اسمع، يا صديقي، لا يوجد في الجنس البشري إلا نوعان من

الناس: هؤلاء الذين يلومون أنفسهم والذين يلومون الآخرين على

سلوكهم. أنت تنتمي إلى النوع الأول؛ تندفع ولا تلوم إلا نفسك إذا

ما أخفقت. أما أنا، فلسوء الحظ، أضخّم قطع النوع الأخير، رجال

الحقد، هؤلاء الذين يتتقدون الأرض بأسرها. أتحدث كثيراً لكنني أتصرف قليلاً.

- إذا أسكت، خذ كيسك واتبعني.

- دعني وشأني! اقفز في صندوق السويسريين الصغار. لا تتأخر وإلا ضاع كل شيء.

أدركت أنه على صواب: لو أطلت الانتظار، فإن مركب العبور سينقل السيارات.

- ليوبولد، لماذا ساعدتني؟

- لأنك صديقي. ثم لأنك قدمت لي الشراب والطعام طوال أيام كثيرة.

- ليوبولد، أعتقد أنك لن ترحل.

- آه، لقد فهمت هذا! هل تعرف أنك حقاً صديقي، أنت؟

بعد نظرة على ليوبولد وساعاته الزائفة، وحليه اللماعة وملابسه التي تظهر علامات هذا العالم الذي يعشقه ويكرهه والذي، بلا شك، لن يلحق به مطلقاً، قفزت إلى أقرب سيارة وانزلت إلى المؤخرة، بين المقعد الأمامي وكرسي الأطفال وكومت فوقى بعض حقائب السفر الخفيفة التي أخفتني. انتظرت.

صعد موظف إلى العربة ووجهها نحو معبر الإرساء، وصفها في مكان الاصطفاف الذي يشغل بطن السفينة المعدني.

مكثت ساعات بدون حراك ثم، بعد ضجة كالتى تحدثها الطناجر

وصوت الصفارات التي تمزق الفضاء، راحت الأرض تتحرك تحتي.

انطلق مركب العبور متوجهاً نحو نابولي.

تتابعت في رأسي بسرعة جنونية من الصلوات والاعتبارات

العلمية عن حجم هيكل السفينة، وقدرته على مقاومة العواصف.  
بمجمّل القول، كنتُ مذعوراً.



في نابولي، يكفي أن يدور المرء حول المحطة لينفذ إلى الشبكات والمبادلات التجارية غير القانونية. فإذا بحث أحد عن مخدرات، وجدها حول المحطة؛ وإذا فتش عن مومسات، يحاذيهن حول المحطة؛ وإذا أراد رجلاً مأجورين أو مجانيين، يمكن مغازلتهم حول المحطة؛ وإذا بحث أحد عن عمل بدون ترخيص، أمكنه أن يقع على أرباب عمل وعمال حول المحطة. حقاً، لم تكن محطة نابولي بالجنة، لكنها تتيح الوصول، بدون بطاقة، إلى الجحيم: هناك، كانت الإناث قبيحات والذكور متعيين والأعمال مُذلة، وأرباب العمل وقحين، والأجور هزيلة شأن هياكل عظمية والمخدرات قاتلة. كان المرء يجد كل شيء في محطة نابولي، ولكن كل شيء منحط، كل شيء فاسد، كل شيء يقرضه العدم والاضمحلال.

بعد عدة أيام قمت فيها بتحقيق سري، التقيت هناك بمهربي العبور الذين كانوا هم أيضاً يجرون أحميتهم اللماعة بين البنايات والذين لم يتأخروا عن شرح شروطهم.

مقابل أجر عادي من أربعة شهور إلى ستة، كانوا يؤمّنون النقل حتى بحر الشمال، يقطعون بلدين هما إيطاليا وفرنسا، كذلك يجتازون حدود دولتين: الحدود الفرنسية والبلجيكية. بعد ذلك، يجب على المرء أن يدبر أموره هناك باتصالات أخرى للوصول إلى إنكلترا. نادراً ما كان الراغبون في الهرب، بيننا، لا يزالون يملكون هذا المبلغ. لم يكن ثمة مشكلة! إذا لم يكن لدينا المال، فإن مهربي العبور يعرضون كسبه. كانوا يقدمون، شأن وكالة للسفر، «مجموعة تركيب كاملة»: أي عدة أشهر من العمل مقابل نقل موعود.

لم أتأخر في الشك بأنّ المافيا كانت تحوم خلف هؤلاء الرجال الذين يحاذوننا.

- إن المافيا، وهي دائماً تواكب العصر وترقب أسواقاً جديدة، قد استشفت أن ثمة مالاً يمكن كسبه من المسافرين غير النظاميين. تلك هي عبقرية التجارة، يا ابني: وهي أن تفهم أنه من الممكن كسب الذهب من الفقراء بقدر الأغنياء.

ظهر لي والدي وأنا أدلك كاحليّ، وقد جلست على شبك للتهوية في شارع صغير ذي رائحة نتنة.

- ماذا عليّ أن أفعل، يا أبي؟

- يا ابني، تطلب مني نصائح؟ هل تُصغي إليها؟ بصراحة، يا للوقاحة! تتصرف وفق هواك طوال أعوام ولا تستشيرني إلا وأنت على حافة الهاوية... إنني أرفض الجواب.

- أنت ترفض الجواب؟ هذا يعني أنك توافقني.

بعد دراسة المقترحات وملاحظة أنها متساوية القيمة - فإما أن التنافسين عقدوا اتفاقاً سرياً فيما بينهم كي لا يكسر أحد الأسعار، وإما أن المافيا تضبط كل شيء،-، إنني ارتبطت بواحد منهم.

طوال أسابيع كثيرة، اشتغلت إذاً عند بائع حدائد، والخاصة أنه كان بائع حدائد غربياً. فللرجل عمل رسمي لكن نشاطه الرئيسي يجري خارج القوانين. فحين يحل الظلام، كان رؤساء العمال يكسرون مدخل الورشات أو يختفي رجالان موثوق بهما، قبل ساعات كثيرة، فيقطعان صفارات الإنذار وآلات التصوير والخطوط الهاتفية؛ نحن، اليد العاملة، بلا نور ولا صوت، يجب أن نسرق نحاس الأبنية أو توتياءها ونفزع المؤن ونقتلع العناصر التي أقيمت؛ في الساعة الخامسة صباحاً نعبئ الغنيمة في سيارة شحن صفراء ترحل بعد ذلك لبيع هذه الأطنان من مواد البناء ثانية على بعد بضعة عشرات من الكيلومترات. أحياناً، حين لا تتوافر ورشات هامة، نسرق يوم الأحد المعامل التي تُصنع تلك المواد أو تخزينها. وفي مرات أخرى، حين يتربص القحط بنا، يرسلنا رئيسنا إلى الريف حيث نفصل، عند حلول الظلام، سطوحات المنازل الصيفية الفخمة والمنعزلة.

منذ أول سرقة، وضعت أخلاقياتي بين قوسين. وقد اعتبرت أن الحاجة تصنع القانون، فلم أفكر بالضحايا مطلقاً ولا بالمؤسسات التي نُهبَتْ ولا بالصناعيين الذين سلبوا، وأقل من ذلك، بأصحاب البيوت

الذين يكتشفون منازلهم بلا سقف، اشتغلت بكد وكسبت مالا قليلاً  
وكرزت أسناني غضباً.

بين الفينة والفينة، حين كنتُ أغتسل بالماء الحار والصابون في  
الحمامات العامة، أعجب من نزوات القدر؛ فخلال عدة ثوانٍ، أدركت  
أنني قد تركت العراق ومظالمه لأجد نفسي في نابولي حيث تستغلني  
المافيا.

- إنني مسرور أنك، في لحظات، تعي، يا ابني، يا لحماً من  
لحمي، ودماً من دمي، أن ضميرك، وإن كان هارباً وحتى خفياً، لا يزال  
موجوداً.

غالباً ما كان والدي يستفيد من تلك اللحظات ساعياً إلى تقديم  
عظاته.

- طاب يومك، يا أبي، هل الأمور على ما يرام في العالم الآخر؟  
- أنت مضحك. أعتقد أن هؤلاء الناس سيحترمون العقد؟ ألن  
يخدعوك؟

- إنني مقتنع أن الناس الأذال يحافظون بدقة فائقة على التزاماتهم  
بمجرد أن يعرضوا عليك صفقة.

- أرى ذلك: فالأشرا ليس لهم إلا كلمة لأن لا شيء لهم غير  
ذلك!

- بالضبط. بما أنهم لا يوقعون على شيء، فكلماتهم تساوي  
المكتوبات.

- كفى، يا ابني، سأتقياً. شرف اللصوص! احترام الوعد! رومنسية الجريمة! توقف، رحمة بي! هؤلاء الأوغاد يستخدمون بؤسك ليملاؤوا جيوبهم، وتود أن أصفّق؟ قطب وجهه وهو يتفحصني.

- هل تتحمل الوضع، يا ابني؟

- أجل.

- أمتأكد؟

- نعم.

- لأنك تعتنني برجلك، ولكن أرأيت يديك؟ محزرتين. ممزقتين.

تكبرانك بعشرين سنة. لم تعد يداك شأن يديّ. أتذكر يديّ، يا ابني؟

- كانتا جميلتين جداً، يا أبي.

- يجب أن أقر أنني لم أتلفهما البتة: أقلب بهما الصفحات،

أداعب أمك، وألاطف بناتي...

- تصفع ابنك.

- آه، مرة واحدة.

- مرتين. لكنني سعيّتُ إلى ذلك...

- لو تعرف كم أحببتك، يا ابني، وتلك الصفعات، لم أسددها إلاّ

حباً بك.

ما جرى بعد ذلك أيد كلامنا، بالنسبة إليّ لأنني رحلت في نهاية

الأمر وبالنسبة إلى أبي لأنهم طلبوا مني أن أعمل ستة أسابيع إضافية

لأدفع أجور نقلي. أخيراً أعلموني أن مهرَبِي ركاب، الأحد التالي، سيقومان برحلة نحو بحر الشمال.

في ذاك الصباح، مثلتُ في الباحة الخلفية لمصنع بسكويت، في جنوب ضاحية نابولي. ثمة ثلاثة عمال أعرفهم لأننا قطعنا معاً كيلومترات من الأسلاك، واحد تركي وواحد أفغاني وواحد ألباني كانوا على الموعد. تبادلنا سلاماً بسيطاً. وصل آخرون، مجهولون، غالييتهم من الزوج، وقد لبسوا ساعات فخمة زائفة، رمز الازدهار الذي سيكونون عليه قريباً؛ كان كل واحد يحمل صرة أو كيساً، لأنه، وفق التعليمات، لا يحق لنا حمل حقيبة. بالرغم من أننا كنا كلنا نجر أجساداً تعباً ونُظهر تقاطيع مشدودة وبالرغم من أن لا أحد يتكلم، كان في عينينا بريق الفرح ذاته ونشارك شعورنا بالخلاص. كان بعضهم يُدخن وهو يتسم نحو السماء وبعضهم يغني وكان زنجيان فتیان يصفقان بأيديهما. حين ظهرت أول شاحنة، لاحظتُ أننا كنا أكثر من ثلاثين شخصاً.

برز ثلاثة أفراد من المافيا طلبوا منا الدخول إلى المبنى والذهاب إلى المراحيض، وهو احتياط ضروري لعدم قطع السفر. أحدد أنهم نصحونا أن نأكل قليلاً ليلة الرحيل، ونفرغ أمعاءنا. نفذنا الأوامر بصبر. ثم جمعونا ثانية في الباحة ورجونا أن نصعد إلى الشاحنة. سأل الألباني باستياء معبراً بإيطالية مفهومة:

- أين الشاحنة الثانية؟

- الجميع في المؤخرة. من ليس راضياً ما عليه إلا العودة إلى

مسكنه.

حدثت مهمة تدمر لكن لم يرغب أحد منا في الاحتجاج أكثر. ما جدوى ذلك؟ فإذا كنا نهرب أصلاً من بلدنا، فمن الآن وصاعداً نهرب من هذا الوضع، وهو التخفي والعبودية وسلطة أفراد المافيا وتلك المعاملة التي تنحدر بنا إلى مصاف البهائم. تسلق كل واحد. من الأفضل التصرف للمرة الأخيرة كالماشية لنهرب من القطيع...

تراصصنا. على كل حال لم يكن هناك إلا حلان: فإما أن نتكدرس أفقياً وكلنا يقين أن الذين في الأسفل سيختنقون، وإما أن نرص صفوفنا وذراع أحدنا في أضلاع الآخر، وكتفا هذا في عظام كتف ذاك. لحسن الحظ، كان كل واحد، احتراماً لنفسه ولرفاقه، قد تنظف للطريق؛ فلم تكن تنبعث من الملابس رائحة التعرق أو الشحم، كما لم يُشم من الجلد القذارة ولا البول، كانت بعض الجلود وحدها تبعث عفونة طعام فيه توابل ووثوم. لم يكن ثمة ما لا يُطاق.

ظننت نفسي وسط كابوس حين قرَّب أفراد المافيا لوحة خشبية تبلغ مترين مكعبين تحوي علباً شرعوا في تكديسها في المؤخرة.

لم يعد هناك مكان لنا.

راح كل واحد بلغته يعبر عن استيائه. بدا التمرد يهدر.

أمسك السائق، فوراً، أول اثنين غير نظاميين وقعت يدها عليهما،  
جرهما بفظاظة وطرحهما أرضاً.

- هذا لا يعجبكما؟ إذاً ستبقيان هنا.

توقف عصياننا مباشرة.

نهض الاثنان المرميان وتمتما أسفهما لما قالاه واستعدا للصعود

ثانية.

لكن أفراد المافيا أمسكوهما، وهم يتابعون تكديس تعبئة علب  
البسكويت التي شأنها شأن جدار من القرميد ستحمينا من تفتيش  
الشرطة.

حين أدرك الزنجيان أنهما سيُقصيان من السفر، راحا يصرخان  
ويتوسلان ويبيكان؛ خلع أحدهما حذاءيه المطاطيين وأخرج من النعل  
أوراقاً نقدية جديدة.

بقي أفراد المافيا لا يلينون.

أما نحن، الجبناء، فلقد سكتنا. أدركنا أن إقصاء هذين الزنجيين  
هو هذا الثمن الذي اشتروا به خنوعنا. اعتبرنا أنفسنا مميزين وقد سُحق  
كل واحد بالآخرين في الشاحنة.

زعق السائق:

- لا تحدثوا أدنى صوت، لا تنادوني، لا تدقوا على الصفيحة،  
سوا مشاكلكم بتكم. إنني أغامر بحياتي كما تغامرون أنتم بحياتكم.  
بل أكثر منكم. بالنسبة إليكم، إذا ساءت الأمور، تضيعون مالكم



وتعودون إلى بلادكم؛ أما أنا، فالسجن! إذا سدوا أفواهكم حتى النهاية. إذا احترمتكم التعليمات، ستجري الأمور بشكل حسن. من فهموا ليترجموا إلى رفاقهم؛ من مصلحتكم أن تتعاضدوا. إذا ولا حركة ولا كلمة. وبولوا في زجاجاتكم المائية حين تفرغونها. لن أراكم بعد الآن شأن علب البسكويت، هل فهمتم؟

صُفقت الأبواب وسُجنا في عتمة تامة.

انطلقت السيارة. سمعنا خلال عدة أمتار صيحات توصل هذين المتروكين، غير المرغوب فيهما. ثم لم نعد نسمع شيئاً. سلك السائق السادي طريقاً محفراً ليروض ركابه. وقد فوجئت أنه، بالرغم من الاهتزاز، لم يكن من الصعب الوقوف في الشاحنة وهي تسير وذلك لالتصاقنا بعضنا ببعض؛ ما كان عسيراً هو التنفس؛ بالرغم من طولي، رحت أمد أنفي على كتف نيجيري قوي.

لم يكن أحد يحتاج. لأننا كنا نُعامل كحيوانات، حرصنا على أن نتصرف بشرف كبشر، دون شكوى، ونحن ندبر أمرنا كي لا نُسحقَ. بمجمل القول، لم أشعر مطلقاً بهذا القدر من الكرامة إلا في هذا الوضع المُذل.

لقد نهبونا إلى أن المسافة ستكون طويلة لكنني أدركت بسرعة أنها ستكون طويلة بشكل لا يُحتمل. حينما لاحظتُ أن أفراد المافيا لا يحافظون إلا على جزء من وعودهم، تساءلت متى يحق لنا استراحة قصيرة.

همست لجاري قائلاً:

- أعتقد أننا سنقف في طريقنا.

- طبعاً.

- آه حقاً؟ إن السائق سيفك جدار علبه ثم سيعيد صفها كي نشط سيقاننا؟ لم ألاحظ هذه الغيرية في طبعه.

صُدمت من تلك الفكرة، لم يجب جاري. لحسن الحظ تحدثنا بالعربية، وبصوت مكتوم؛ لم يُعدِ شكنا الآخرين، الذين كانوا، حتماً، يكررون خشية مماثلة. كيف نعرف ذلك؟ كنا كلنا صامتين.

يا له من سفر غريب... أتذكر تلك الرحلة كسلسلة من مزعجات عذبتني بشكل متتابع. فالحرارة أولاً. والجوع بعد ذلك. ثم الرغبة في التبول؛ وقد قاومتها طويلاً؛ ولكن حان وقت، بعد أن تحملت تشنجات المعدة، ويس البلعوم، وقسوة اللسان، والملوحة الهائلة، تحملت التهاباً في المثانة، حتى حين أفرغتها في زجاجتي، كانت لا تزال تحرقني؛ كنت أنتظر أن تبعث رائحة كريهة لأنني أضعت الغطاء، ولكن حدث أن كل واحد منا قد بال طوال تلك الساعات، فبدأت أعتاد عدم شم الروائح مطلقاً.

غمرتنا الساعات الأخيرة من التنقل في الفوضى والبليلة. لم نعد نعرف إن كان الوقت نهاراً أم ليلاً، كم ساعة مضت على سيرنا. لم أكن أستطيع النوم واقفاً، فرحت أتلو قرآني؛ كان الذين ينامون يتلقون فوراً ضربة تسحق الأجساد عند المنعطفات أو في الشواطئ.

أبطأت الشاحنة مرة جديدة. سمعتهم يتحدثون الإيطالية.  
استنتجت، وأنا منهارٌ، أننا لم نترك بعد شبه الجزيرة الإيطالية.  
أطفأ السائق المحرك. ارتعش بعضهم أملاً.  
أجرى السائق حديثاً مع رجال الجمارك. طلب هؤلاء أن يروا ما  
تحويه الشاحنة. فتح السائق الأبواب نصف فتحة.  
- كما ترون، لا شيء غير علب البسكويت.  
كان يُغلق الأبواب حين أوقفه صوت قائلاً:  
- انتظر، دعني أرى قليلاً.  
وقد أطلق السائق زفرة تململ، فتح أبوابه بشكل أوسع.  
تلقينا هواء الليل النضر. لم يتحرك أحد.  
- اللعنة، تنبعث رائحة كريهة من علب البسكويت!  
أطلق رجل الجمارك صرخة عفوية صادقة.  
رد السائق قائلاً:  
- على كل حال، لن أبيعها لك. بالمقابل أردت أن أقدم لك منها.  
- آه كلاً، تنبعث منها رائحة كريهة. ماذا يوجد غير ذلك في  
شاحتك؟  
- آه، ربما ثمة جيفة في قعر الشاحنة، اضطررت أن أحمل الشاحنة  
بسرعة لأنني كنت في عجلة من أمري. نعم، من الممكن أن هناك جرذاً  
ميتاً في قعر الشاحنة.

- جرد ميت؟ مستعمرة جردان ميتة، تريد أن تقول. ارفع هذه العلب لألقي نظرة.

- اسمع، إنني متأخر. سيقتلني رب عملي إذا لم أسلم البضاعة في الوقت المحدد.

- ارفع تلك العلب.

- كلاً.

- هل ترفض؟

- أجل، سأفقد عملي.

بينما تعارك رجل الجمارك والسائق بذراعيهما، حبسنا أنفاسنا.  
من سيربح؟

فجأة صرخ رجل الجمارك بتعجب:

- كلاً، الرائحة التنتة فظيعة، هذا مستحيل.

بحركة نشطة، حاول أن يحرك بعض العلب؛ حينذاك انهار الجدار  
بكامله ووجدنا أنفاسنا وقد أعمانا مصباحه.

- اللعنة، ما هذا؟

لم يجب السائق لأنه كان قد أطلق ساقيه للريح.

وقد أدرك رجل الجمارك الوضع، أعطى إشارة الإنذار. ركض  
زملاؤه إلى أسفل الشاحنة.

سلطوا مصابيحهم علينا، ونحن بكم ووجلون. أرعبتهم وجوهنا؛

ذهلتُ أنا نفسي من سحنة جيراني، بنظراتهم الزائغة، وشعورهم الشعثة والمنهكين والظمآنين والجائعين.

شخص رجل الجمارك الوضع قائلاً: إنهم مسافرون غير نظاميين. صاح صوت من أعماق موقف السيارات أن السائق قد نجح في الهرب.

- وآسفاه، لكننا نمسك بما هو أساسي.

ما هو مدلول تلك الجملة؟ هل يفضلون أسرنا، نحن المسافرين غير النظاميين، عن أن يقبضوا على عضو من عصابة منظمة تسخر بالقوانين وتبتز الناس غير القانونيين؟ أمن الأفضل إذاً وضع اليد على البؤساء من وضعها على المحتالين الذين يغنون من البؤس؟

ابتدأت بعد ذلك جوقة التعجبات. تعجبوا كيف تبولنا على أجسادنا، وكيف تغطو بعضهم في بناطيلهم: فكأنهم يكتشفون فعاليات الإنسان الحيوية، كما يُظن أنهم لا يخضعون لتلك الفعاليات ويُعتقد كذلك أن روائحنا كانت أكثر تقززاً. أحسست من نظراتهم أنني اخترعت البراز، لا أنني تحملته، كلاً، إنني ابتكرته وإنني مسؤول عنه، والأسوأ من ذلك، إنني مذنب!

حين نقلونا إلى مركز الشرطة، وضعونا في صالات للحمامات الرشاشة، مما أتاح لنا أن نسترجع مظهرنا لاثقاً. حين رأيت سرورهم عندما عدنا، شعرت أنني إذا كنت قد اخترعت البراز، فإنهم قد أتوا

على اختراع النظافة. لا شك أن هذا الجناح للجمارك كان على موعد مع المخترعين!

- يا ابني، لا تتقدمهم، إنهم رجال شجعان يؤدون عملهم.

كان والدي ينتظرنني في الممر حيث كنا نسترد صررنا.

- أرايت تصرفهم، يا أبي؟ لأنهم كانوا يتوقعون إيجاد جردان في

الشاحنة، رأوا فينا حقاً جرداناً. ليسوا متأكدين أننا بشر.

- إنهم خائفون.

- هل يربع رجل لم يعد يملك شيئاً؟ كلاً، يا أبي، إنهم لا يرأفون

بنا ولا يتعاطفون معنا ولا يتخيلون أنفسهم مكاني، فهم يتفحصونني

شأن كائن أدنى منهم. إنني في نظرهم، أنتمي إلى جنس آخر. إنني مسافر

غير نظامي، هذا الذي وجب عليه ألا يوجد، ولا يُسمح له بالوجود.

في الحقيقة، إنهم على صواب: لقد أصبحت أدنى من الإنسان لأن لي

حقوقاً أقل من الآخرين، أليس كذلك؟

- لا تتثر نائرتك يا سعد، إنهم يتصرفون بطريقة أفضل منذ

وصولكم إلى هنا.

- معك حق. إنهم لطيفون. لطيفون شأنهم مع حيوانات.

- هيا، كفى!

- أبي، من هم البرابرة؟ هؤلاء الذين نظنهم أدنى؟ أم هؤلاء الذين

يظنون أنفسهم أعلى من غيرهم؟

في صباح اليوم التالي، في المهجع حيث وضعنا، ترك حارس

- بلا شك خصيصاً لنا - الصحافة الإيطالية مبعثرة. فقراءة العناوين، ثم المقالات، أثار ذلك في غضباً عنيفاً تشنجياً وكاد يخنقني الغيظ الشديد.

كان رجال الجمارك - والصحفيون مجتمعون - يهللون لإيقاف شاحتتنا؛ ويغترون لأنهم انتزعوا من رحلة مُدلة، ثلاثين رجلاً تكوموا وهم واقفون في أقل من ستة أمتار مربعة، وبينهم سبعة قاصرين في السادسة عشرة من عمرهم، إذا أسفوا لأنهم تركوا المهرب يفلت من أيديهم، لكنهم لا يأسفون على شيء يعيننا لأن مصيرنا قد سوي: شأن كلاب تائهة، قرروا إرسالنا إلى ملاجئ - زريبتهم؛ بعض منا يُعادون إلى أصحابهم - أي بلادهم - إذا تعرفوا إلى هويتهم. لم يكن أحد يدرك أن لا مصيبة بالنسبة إلينا أكبر من العودة إلى البلد؛ لا أحد يفهم أنهم جردونا من مدخراتنا، وكذلك مدخرات أسرنا؛ إنهم لا يتصورون أننا ننقل معنا آمال أهلنا، كلاً، شعروا بأنهم قاموا بواجبهم، ولم يشعروا بأنهم أتلّفوا ثلاثين حياة، وخلف تلك الحيوانات الثلاثين، هناك ثلاثون أسرة، أي مئتان أو ثلاثمئة شخص كانوا يعتمدون علينا.

مرحى! فالجلادون يحتفلون بشرب الخمر في مكتب الرئيس!  
أبطال البارحة ابتهجوا لأنهم أدوا عملهم جيداً.  
كنتُ مهاناً إلى أقصى حد.

بعد عدة ساعات، حين جاؤوا لإحضاري ليستمعوا إلى أقوالي،  
لم أهدأ.

ما إن دخلت إلى المكتب، دون أن ألاحظ مع من أتحدث، حتى  
صرخت بالإنكليزية:  
- أريد أن أقدم شكوى.  
- عفواً؟

- أريد أن أقدم شكوى ضد رجال الجمارك الذين أوقفوا  
سفري. أمس مساءً، حرموني من السائق، سُرِقَ مالي، دُمر شغلي  
الذي قمت به طوال أشهر كثيرة، تبذرت جهود ثلاثة أعوام لأصل  
إلى هذا الدرك.

تأملني الرجل ببزته العسكرية مندهشاً، بعين قلقة، وفم وردي  
ومشدود شأن برعم وردة، ببشرة سمراء فاتحة، كان يبدو شاباً جداً بقدر  
ما تسمح وظيفته بعمر فتيٍّ كعمره. سُد قوامه ببزة عسكرية، وبحزام من  
الجلد يشير إلى ضيق ردفه، فكان يشبه مراهقاً متنكراً بملابس عسكرية  
أكثر منه موظفاً لامعاً كان بلا شك. تحدث بصوت رخيم ومتزن وغني  
وبنبرة واضحة، يتناقض مع اندفاع جسمه الفتني.

- آه أجل؟ هل أنت راضٍ على نقلك بطريقة مُذلة، أسوأ من

المواشي؟

كان يتحدث الإنكليزية وهو يلفظ الجيم زاياً وبشكل متقطع شأن  
الإيطاليين، وشأن راقص إنكليزي من وجوه المجتمع، هذا الإنكليزي  
الذي يلبس حزاماً يجعل خصره نحيلاً، يداعب ردفه ويدور على ذاته  
في كل جملة. ودون أن أشتت انتباهي، تابعت هجومه قائلاً:



لم يضعني أحد عنوة في تلك الشاحنة، لقد قبلت ذلك! بالمقابل  
إذا طال أمد هذا التوقيف وإذا انقطع سفري، أصبح حينئذٍ ضحية!  
انفجر ضاحكاً.

كأن دخولي تحول إلى مقدمة مسرحية، رجاني أن أجلس وذهب  
هو ذاته ليجلس خلف حاسوبه كي يبدأ الاستجواب. أوقفته على الفور  
قائلاً:

- إن استجوابك لن يُجدي نفعاً.

- آه، حقاً؟

- منذ عدة سنوات، تعرضتُ لأعداد كبيرة من المقابلات شأن  
تلك التي ستكابدني إياها ولم يجد ذلك نفعاً على الإطلاق. لا بد أنني  
أجيب بطريقة سيئة لأن الباب يُغلق دائماً أمامي.  
- أو تجيب بشكل جيد لأنهم لم يعيدوك إلى بلدك.

ابتسم لي. فخفضت عيني. بدا لي هذا الموظف غير النموذجي  
أشد ذكاءً من هؤلاء الذين التقيتهم في المرات الأخيرة. هل هذا طالع  
حسن أم نذير شؤم؟

- ما اسمك؟

- أوليس.

- عفواً؟

- أوليس. أحياناً أدعى أيضاً «لا أحد». لكن لا أحد يناديني «لا

أحد».

على كل حال، لا أحد يناديني.

فرك ذقنه.

- حسناً، أدرك ذلك. من أين أنت قادم؟

- من إيتاك.

- من العراق؟

- كلاً، من إيتاك. حيث يأتي كل الأشخاص الذين يُدعون أوليس.

- أين يقع هذا البلد؟

- لم يعرف أحد ذلك مطلقاً.

ضحك بعذوبة. حدقت حينذاك إلى عينيه.

- لا تضع وقتك. لن أقول لك اسمي ولا جنسيتي مطلقاً. أستطيع

أن ألوذ بالصمت طوال أشهر، ولقد أثبتُ ذلك. لن تكونَ الراح كما لن

أكونه قط. يبدو أن هذه هي الحرب الحديثة، حرب بلا منتصرين ولا

مقهورين. إنها مجرد الحرب.

- ماذا تقوله أيضاً؟

- لم أعد أتحمل الاستجابات. لا أستطيع الامتناع عن التفكير

في أن المجرمين هم الذين يُستجوبون بتلك القسوة.

- من يُثبت لنا بأنك لست مجرماً؟

- إنني حالة لا ينص عليها القانون، لكنني لست ضد القانون.

- أخشى أن أكون قد أحسنت فهمك تماماً.

رفعت حاجباً، أرسلت لي عينه نظرة تعاطف عميق، ملموسة.  
فجأة، وقد اضطربت، أوقفت مناجاتي.

نهض، وقدم لي سيجارة رفضتها؛ أشعل واحدة له وسحب نفساً  
بمتعة. فكرت بليلي حين رأيته يستمتع بالتدخين، فلاحت على وجهي  
بسمة خفيفة. بعد عدة نفحات، التفت إليّ قائلاً:

- إنني أحب مهنتي، يا سيدي، لأنني أحب محاربة الجريمة.  
لكنني، أمامك، لا يُخيل لي أنني أمارس مهنتي. عدا أنني أضيع وقتي  
وأضيع إيماني... أجل إيماني بواجبي!

انفجرت أساريه، فكاد أن يكون جذاباً.

- إنك لا تحب ذلك، أن أفقد إيماني؟

ارتجفتُ. إلى أين أراد أن يصل؟

- فكر، سيدي، أن الحدود، ما دامت موجودة، يجب احترامها،  
وفرض احترامها على الآخرين. ولكن يحق لنا أن نتساءل لماذا هي  
موجودة. وهل تصلح كحل جيد للمشاكل الإنسانية؟ هل إقامة حدود  
هي الطريقة الوحيدة للناس ليعيشوا معاً؟

دُهِشْتُ من مجرى الحديث بيننا، فأجبت مع ذلك:

- حتى الآن لا يوجد طريقة أخرى.

- وإن كانت هي الطريقة الوحيدة، هل هي الجيدة؟ إن التاريخ  
البشري هو تاريخ حدود تغير مواضعها. ما هو التقدم إن لم يكن ندرة  
الحدود؟ منذ آلاف السنين، كانت تنتصب الحدود على باب كل قرية،

فكانت حينذاك كثيرة جداً؛ ثم توسعت لتطوق قبائل وأعراقاً وشعوباً؛ فراح تندر وصارت مرنة، فحددت بعد ذلك مجموعات كثيرة في فسحة أمة. وبشكل أحدث، تجاوزت الأمم، سواء عن طريق الفيدرالية شأن الولايات المتحدة، أو بالمعاهدات شأن ما شكل أوروبا. فبحسب منطق جيد، يجب الاستمرار في ذلك. مهنتي عبثية، ليس لها مستقبل. ستختفي الحدود، أو ستمتد لتشمل أراضي أوسع.

- وما سيكون حدها؟

- القارة.

- لن يبقى إلا الحدود الطبيعية، حدود البحر وحدود الأرض؟

- أجل.

- لكن الناس يحتاجون مع ذلك ليقولوا «نحن» ليثبتوا وجودهم:

نحن الأميركيين، نحن الأفارقة، نحن الأوروبيين.

تساءل الضابط قائلاً:

- ألا يستطيعون محاولة قول «نحن الناس»؟

- إذن سيكون ذلك ضد الحيوانات.

- في تلك الحالة، لاحتوائهم أيضاً، قد يسعون إلى القول «نحن

الكائنات الحية»؟

- حضرة الضابط، إنك حالم كبير، عليك أن تغير وظيفتك: وزارة

العدل ثلاثمك أكثر من وزارة الدفاع عن الأرض!

بدا قد استيقظ، وبانزعاج، انفجر ضاحكاً بشكل أخرق. وقد  
جلس على الطاولة، انحنى عليّ.  
- في نظري، لست منبوذاً.  
- هذا هراء! إذا قفزت من النافذة، فستطلق النار عليّ.  
تراجع، مدهوشاً.  
- هل فكرت في ذلك؟  
- أنك ستطلق النار عليّ؟  
- كلاً، أن تقفز من النافذة؟  
- أجل.

أدار رأسه نحو الفتحة التي تقع على مترين من مكتبه. راحت  
أصابعه تنقر على الطاولة. ألححت قائلاً:  
- لم تجب عن سؤالي. هل ستطلق النار عليّ؟  
رجع نحوي وقد استدار حاجباه.  
- ما هو رأيك؟  
- تفحصنا بعضنا بعضاً مطولاً. أجبت بحذر:  
- حسب رأيي، كلاً.  
أضاف بالقدر عينه من الحذر:  
- أنت على صواب.  
خفضنا كلانا أجباننا. بعد فترة، تابعت الكلام:  
- خذ إذا احتياطاتك: أغلق النافذة.

حديق إليّ. لحظة. وأطلق من طرف شفّتيه:

- أشعر بالحرارة.

لم أجرؤ تماماً على فهم الرسالة. راح دماغى يرتاع.

- إذا هربتُ، أين سأذهب؟

- لست أدري.

- لو كنتَ مكاني؟

- أنا، أقطع الحدود سيراً على الأقدام، متسلقاً الجبل. لن يكون

هناك رجال جمارك في المراعى الجبلية.

- هل هذا صحيح؟

- أجل. من الغباء أن تسلك الطريق العادية وأن تظهر في مخفر

جمركي. أخيراً، يجب ألا أقول ذلك، لأنني أخرب مهنتي... لكن ابقَ

منطقياً: لا تستفزنا حيث وجدنا، تجنبنا بذهابك حيث لا نكون. أليس

كذلك؟

سجلت بشغف ما اقترحه عليّ.

ابتسمتُ. ابتسم هو أيضاً. ثم رفع عينيه إلى السقف وتنهّد،

بسخط:

- كم الطقس حاراً! هذا لا يُحتمل!

اتجه نحو النافذة، فتحها أوسع مما كانت عليه، ثم ألقى نظرة إلى

الخارج.

تمتم قائلاً:

- حقاً، يا للغرابة: لا أحد هناك!

بكل عفوية، عاد خلف مكتبه واستغرق في قراءة التقرير كأنه

نسيني.

ترددت.

لكي يُشجعني، نظر إلى الثريا وتساءب.

دون أن أنتظر ثانية أخرى، قفزتُ من فوق الدرايزين ووضعت

قدميَّ أسفل الطابق، على الباحة المزفتة.

لمحت باب الخروج في آخر موقف السيارات، فركضت.

حين وصلتُ إلى الشارع، استدرتُ مع ذلك.

لمحتُ خياله في فتحة النافذة: وهو يدخن بهدوء، كان ينتظر

بصبر أن أختفي لينذر الحرس.

حين استيقظت ذاك الصباح، متكوراً في قعر حفرة بين حقلين، وقد تبلل جسمي بالندى، ظهرت لي الأشياء بوضوح بينما كنتُ أهدق إلى السماء. يناضل الإنسان ضد الخوف، ولكن، خلاف ما يُكرر دائماً على مسامعنا، ليس هذا هو الخوف من الموت، فكثير من الناس لا يشعرون بالخوف من الموت، لأن بعضهم ليس لديهم أدنى خيال وبعضهم يظنون أنهم خالدون، ويأمل آخرون لقاءات عجيبة بعد موتهم؛ إن الخوف الأوحده الشامل، الخوف الوحيد، هو الذي يُسيّر كل أفكارنا وهو الخوف من ألا نكون شيئاً. لأن كل فرد قد أحسه ولو لثانية طوال يوم: أن يُدرك الإنسان، أصلاً، أنه لا ينتمي إلى أية هوية من الهويات التي تحدده، ومن الممكن ألا تكون له أية صفة من الصفات التي تميزه وأنه على قيد شعرة لأن يكون قد ولد في مكان آخر وتعلم لغة أخرى وتلقى تعليماً دينياً مختلفاً وتربى في ثقافة أخرى وتعلم في إيديولوجية أخرى مع والدين آخرين وأوصياء آخرين ومثل عليا مختلفة. هذا يثير الدوار!



أنا، المسافر غير النظامي، أذكرهم بذلك. الخواء. كيف شكلتهم الصدفة. كلهم. من أجل ذلك يكرهونني. لأنني أتسكع في مدنهم وأقيم عنوة في أبنيتهم التي لم تكن مهيأة لذلك ولأنني أقبل العمل الذي يرفضونه، أقول للأوروبيين إنني أود أن أكون مكانهم وإن الامتيازات التي منحهم إياها القدر الأعمى، أتمنى أن أحصل عليها؛ أمامي، يدركون أنهم محظوظون وأنهم سحبوا الرقم الرابع وأن شفرة المقصلة القاتلة قد مرت على مستوى الأرداف، وأن مجرد تذكر تلك الهشاشة الأولى المكونة لهم تجردهم وتشلهم. لأن الناس يسعون، لينسوا هذا الخواء، أن يُعطوا لذواتهم التماسك والاعتقاد أنهم يتمتعون لأسباب عميقة، ثابتة، إلى لغة، إلى أمة، إلى منطقة، إلى عرق، إلى أخلاق، إلى تاريخ، إلى إيديولوجية، إلى دين. لكن، بالرغم من تلك التمويلات، في كل مرة يحلل الإنسان نفسه، أو في كل مرة يقترب منه مسافر غير نظامي، تنمحي الأوهام ويرى الخواء: من الممكن ألا يكون هكذا، ألا يكون إيطالياً، ألا يكون مسيحياً، ألا... فالهويات التي يجمعها والتي تعطيه كثافة وثقلاً، يعرف في قرارة ذاته أنه اكتفى بتسلمها ثم بنقلها. إنه ليس إلا الرمل الذي سكب فيه؛ في حد ذاته، هو لا شيء.

وقفتُ فتخلصتُ من سوق العشب الذي التصق بقميصي وقررت  
ألا أنتظر لأنصرف.

تسلقت حاجزاً، فوصلت إلى ساحة يستريح فيها سائقو السيارات،

تقع بين محطة لخدمة السيارات وفندق صغير؛ كنت مقتنعاً أن عليّ أن  
أختفي قبل أن يجدني رجال الشرطة، درست الوضع.

فالرحيل سيراً على الأقدام، حسب اقتراح الضابط يفترض أن  
أحصل على مخطط وأن أمشي أياماً كثيرة: هناك فرص كثيرة للتعرف  
إليّ. أليس ثمة طريقة مختلفة؟

وقد جلست بين الأدغال، على تلة صغيرة من التراب تطل على  
موقف السيارات، أدلك قدمي كي أحسن التفكير.

- أتذكر، يا ابني، حادثة أوليس والخراف؟

- عمت مساءً، يا أبي. إنني سعيد برؤيتك لكن الساعة ليست

ملائمة للأدب.

إن الأدب أكثر فائدة مما تتصوره. كيف كنتُ أغريت أمك لو لم  
أسمعها قصائد الحب؟ لو لم أتعلم في الكتب أن أعبر عن مشاعري؟  
ولو لم يكن لديّ دائماً ألف حكاية أهمسها لها؟

- لا يهمني ذلك! ميزات الأدب في حياة الزوجين هي موضوع

غريب لا يفيدني في شيء اليوم.

- يا ابني، لا تفهم والدك مطلقاً. قد أتيتك بحل وأنا أذكر أسطورة

أوليس والخراف.

- ما هي تلك الأسطورة؟

- كلاً، فات الوقت. أقنعتني أنني أزعجك.

- أبي، كفاك دلالاً! اروي لي القصة.

- لم يكن أوليس الداهية يعرف كيف يخرج من المغارة حيث كان محبوساً مع رفاقه. لأن العملاق (السيكلوب)، الأعمى (\*) كان يتحسس حيوانات قطيعه حين تخرج من عتبة المغارة ليتأكد من أن لا أحد من سجنائه يركب عليها. خطرت لأوليس فكرة ربط كثير من الخراف بعضها ببعض وانزلاق كل يوناني تحت بطونها. كان السيكلوب يتلمس بيده ظهور الحيوانات، وهكذا ترك طاقم سفينة أوليس يهرب.

كانت تحتنا، وقد تعرفنا إليها بسبب الثغاء الضعيف الذي يقطع ضباب الفجر، شاحنة غُطيت جزئياً تحوي قطعاً من النعاج التصقت بها بعض حزم من القش. ترك السائق سيارته ليذهب إلى المراحيض. - شكراً، يا أبي: لقد فهمت!

- آه أخيراً! تنهد وهو يختفي في الغيوم.

نزلت، مسرعاً، نحو الشاحنة، وبدون تردد انزلت تحت القاعدة، ثم زحفت بين العجلات. حين وصلت إلى المركز، تعلقت بالمحور وثبتت قدمي؛ حينذاك استعملت حزامي ليساعدني على تثبيت جذعي ملتصقاً بالسيارة، بالضبط فوق الأرض، دون أن أعتمد على قوة ذراعي وحدها.

حين عاد السائق، تسلق بين الحيوانات.

---

(\*) Le Cyclope ، كان هذا العملاق بعين واحدة فقاها له أوليس، وردت تلك الحادثة في الأوديسة. (الترجمة).

- إذأ، العنزات؟ هل أنتن بخير؟

سمعتنه ينشش فوقي.

بعد حشرجة عميقة، نزل ثانية. انتظرت بقلق لحظة ركوعه ليفاجئني ولكنه، بعد أن دخن سيجارة، سحق عقبها وصعد ثانية إلى كرسي القيادة وانطلق.

شكرت والذي بفكري، لاقتراحه عليّ حيلة أوليس، لأنني، بدون قصته، رضيتُ أن أختبئ بين الماشية.

بقي لي أن أمل من الآن فصاعداً أن يسلك طريق فرنسا وليس جنوب إيطاليا. بما أن موقف السيارات كان يلتقي في الاتجاهين، لم أستطع التأكد من ذلك مسبقاً، وحيث كنتُ، ملتصقاً على اللوح كي لا أقشط ظهري في الطريق، لم أر أية لوحة.

سرنا بعض الوقت، أبطأ وسمعتنه يتناقش مع رجال الجمارك، دون أن أفهم الكلمات بسبب هدير المحرك.

لم أعرف إن كنتُ سأعنتبط: فمن جهة، كان يشير ذلك إلى أنه يقود في الاتجاه الصحيح؛ من جهة أخرى، ربما أشار ذلك إلى نهاية الرحلة. لماذا كان يناقش؟

طلب منه رجال الجمارك التقدم نحو الحافة وإيقاف المحرك.

- ماذا؟ تريد أن ننظر ما عندك، هناك في المؤخرة؟

- إنها مهنتكم، أليس كذلك؟

- أجل، لكننا نحن، رجال الجمارك، الذين نختار أن نوقف تلك السيارة أو تلك.

- فتشوا لأنني على حذر منذ العام الفائت.

- ما الأمر؟ ماذا حدث؟

- ألم يرو لكم زملاؤكم؟ تسرب ثلاثة زنوج بين الحيوانات التي أنقلها. يا للموقف الملتبس! ظنوا أنني كنت متواطئاً معهم! أوقفتُ، استجوابات، تهديدات، إلى آخره! ذهبوا إلى بيتي، استجوبوا أسرتي، دققوا حسابي المصرفي، تأكدوا من أنني مغفل فقير وشريف! آه كلاً، كدت أصاب بانهييار عصبي، شكراً! إذاً الآن، أفتش بنفسي ثم أطلب أن تفتشوا من جديد.

صعد رجلا جمارك الدرايزين وغاصا بين الحيوانات التي غضبت من هذا التدخل. فتشا بسرعة.

- حسناً! ليس هناك مشكلة.

- شكراً، أيها الشباب. إلى اللقاء.

انطلقت الشاحنة من جديد.

تجرات بصعوبة على تصديق اجتيازنا الحدود.

اتخذت الشاحنة مسيرة أكثر سرعة، فكانت أكثر تأثيراً عليّ لاسيما أن الأرض راحت تهرب على بعد عدة ستيترات مني. كنتُ أخشى، في كل لحظة أن تسير الشاحنة فوق صحرة، أو جيفة حيوان، أو شيء ألقى من حمولة يمزق حينذاك ظهري.

تتابعت الأنفاق برائحتها الكريهة والخانقة؛ فبالإضافة إلى التشنجات، شعرت بصعوبة في التنفس.

كم سيستغرق هذا الوضع المزعج من الوقت؟ أحسست أنه يصعب عليّ الاستمرار طويلاً في تلك الوضعية... لاسيما أن السائق قد اختار من الآن فصاعداً مساراً - لا شك أنه طريق خاص للسيارات - يجنبه التوقف والإشارات الضوئية الحمراء.

ما العمل؟

توقف فجأة ودفع رسم المرور ورحل في دروب أكثر تعرجاً تقطعها مفارق طرق. بدأت أسترجع الأمل. نزل الغسق. علّ إحدى الإشارات، في تقاطع، تستغرق وقتاً طويلاً... ما إن سنحت الفرصة حتى فككت رباط حزامي وانفككت من قاعدة الشاحنة.

انطلق من جديد حين كنت سأنتهي من عملي، وقعت على ظهري، لم يتسع لي الوقت لأتدحرج على جنبي. وقد مر فوقي، كشفت لي الشاحنة السماء المرصعة بالنجوم. ابتسمت.

لقد نجوت. إنني حر. كنت في فرنسا. والليل يتلألأ. انزويت في الحفرة ورحت أصرخ فرحاً، دون أن أستطيع التوقف. في هذه القصة، غالباً ما شكوت من سوء حظي، سوء حظ ولادتي، سوء حظ لتاريخ سياسي وعسكري مأسوي، سوء حظ من

الرصااص والقذائف العمياء، بمجمل القول، لقد نذبت حظي مراراً وتكراراً حتى إن من واجبي الآن أن أعلن أن القدر قد ظهر كريماً معي.

بعد يومين من المشي، وقد هدني الجوع، دخلت قرية حدودية كي أرطب وجهي في ينبوعها حين لفتت نظري لوحات غريبة. «فلنناضل لتنظيم وضع من لا يحملون أوراقاً ثبوتية»، «احتلال كنيسة القديس بطرس»، «إضراب عن الطعام لتخفيف القوانين الجائرة».

فوق كنيسة من الحجارة القاتمة، كان متظاهرون بيناطيل من الجينز وقمصان قصيرة يرفعون شعارات، ويهزون لافتات وينادون المارين. بالرغم من رداءة لغتي الفرنسية، فهمت بسرعة أن هؤلاء يناضلون ضد الحكومة ليحصلوا على تنظيم وضع بعض الأجانب الذين التجأوا إلى مؤهف الكنيسة، وقد اختاروا الموت عطشاً وجوعاً. أمام رواق الكنيسة، كان المناضلون يُبعدون قوى النظام التي تريد أن تقصي المضربين ليس عن المكان المقدس وحده ولكن عن فرنسا.

راقبت من يقود الجماعة إلى أن استدلت على شخص يُدعى ماكس، وهو رجل ضخم، كثيف الشعر، ذو لحية، صلب، في الثلاثين من عمره يحمل حلقة من الفضة في أذنه اليمنى.

حين تخلت قوى النظام عن هجومها ورجع رجال الشرطة إلى سياراتهم، اندفعت نحوه وتأبطت ذراعه.

- أتتحدث الإنكليزية؟

- قليلاً.

دون أن أنتظر، بطريقة ملحة، تكاد تكون جنونية، رويتُ له قصتي. أصغى إليّ، وقد اتسعت قزحيتا عينيه اهتماماً. ثم بتعابير تقريبية تتعثر بمفردات فقيرة، نبهني إلى أنه سيهتم بي. بعد أن أعلم بعض رفاقه، اعتذر عن تشويبه لتلك اللغة التي لم يرغب في تعلمها مطلقاً، بالرغم من موسيقى الجاز والسينما، لأن اللغة الإنكليزية بدت له، بسبب السياسة الخارجية لأميركا، لغة المستبد.

في ذلك المساء، نمت في بيته، في السقيفة، فوق أولاده الخمسة. في الأيام التالية، سعت زوجته، أوديل، بحماسة أن تغذيني، لأنني منذ مرحلتي الإيطالية، كنت أكثر هزالاً من المؤلف.

لن أقول شيئاً عن الرابطة التي كان ينتمي ماكس إليها، فهي لا تزال موجودة وتنقذ عشرات الرجال مثلي، وكذلك النساء والأطفال؛ يعتمد نجاحهم على تكتمهم كما يعتمد على شجاعتهم لأنه هو وزملاؤه يتحدون قوانين بلادهم ويدافعون عن فكرة العدالة التي تتجاوز الحق الذي يعتبرونه شيئاً.

أخذتُ تحت أجنحتهم الحامية لي، فأكلت وربحت بعض قطع من الأورو أرسلتها فوراً إلى والدتي.

ذات يوم، أخرجني ماكس من نومي بابتسامة كبيرة.



- سعد، خذ صرتك، سأصحبك إلى الألزاس، عند الدكتور شويلشر، عمدة الموتى.

- عمدة الموتى؟

- إنه واحد من دعائنا في الشمال، وهو عضو مؤسس لرابطتنا. سيسهر عليك.

لم أجرؤ على الإلحاح في السؤال كي لا أبدو أبله. عمدة الموتى؟  
وسيسهر عليّ؟ ماذا يعني ذلك؟ هل يحوي تهديداً ما؟...

من رفق ماكس وارتياحه، استتجت أنني أتوه. نسيت كلماته  
وقررت أن أحافظ على ثقتي به. على كل حال، هل كان لي الخيار؟  
قطعنا فرنسا ونحن نصعد من الشرق.

لا شك أنها كانت أول دولة أوروبية أقطعها، وقد التصق أنفي  
بالزجاج، لم أكن أستطيع أن أصدق أن بلداً يمكن ان يكون بهذه  
الخضرة، ولا أرضاً تزرع زراعات متنوعة، دسمة، غنية، رطبة،  
وافرة، كما لم أستطع تصور مشهد يجمع كل تلك القصور وأجراس  
الكنائس والغابات. بعد عدة ساعات، حسدت القطعان التي تجاوزناها  
والبقرات غير المكتثرات على سجادة العشب الغزير والأحصنة  
البدينة، والخراف السمينة جداً وكلها لا مبالية. وكلب المزرعة في  
تلك المملكة الفخمة بدا لي يُحسد على وضعه.

في الطريق، التقينا بسيارات لم أرَ مثلها قط، فهي حديثة وفسيحة  
وأكثر نظافة من تلك التي في الشرق الأوسط، فهي أكثر جودة وأكبر

سرعة؛ كانت الطرق المعبدة، على عكس ما كان عندنا، لا تتلف أطر الدواليب، لأنها طويلة وملساء وسوية ومنظفة وقد تخلصت من الحجارة والحفر؛ بالإضافة إلى ذلك، كانت هناك عوائق دائمة على جانبي الطريق.

سألت قائلاً:

- هل كل فرنسا هكذا؟

- ما معنى هكذا؟

- فخمة شأن ملكية مستبد؟

استدار ماكس نحوي ونظر إليّ بجدية.

- إنها ملك الشعب.

هزرت رأسي بسرعة، متمنياً أن يحدق بالطريق بدلاً من التحديق إليّ. حين تحول ثانية إلى سائق يقظ، سألته أيضاً قائلاً:

- إذاً، إن شعباً على هذا القدر من السعادة عليه ألا يشكو مطلقاً؟

انفجر ماكس بالضحك.

- إنه يشكو ويتدمر طوال الوقت.

هزرت رأسي، وقد عدلت عن الفهم. كانت قطارات على شكل مغازل تثقب الريف أحياناً بسرعة خارقة. وطائرات تشبك أذيالها القطنية في سماء لا متناهية. وشاحنات عملاقة تتابع، هادئة، متواطة.

- هل الوضع كل يوم هكذا؟

- كيف هكذا؟

- كل هذا القدر من الناس على الطرقات؟

- اليوم، الوضع هادئٌ.

شككت أن ماكس يسخر مني.

أرعى الليل سدوله وبانت بقية الرحلة أكثر روعة. بما أنه قد ترك طريق السيارات العريض، راح ماكس يقطع قرية تلو قرية، وكلها أنيقة، حسنة الترتيب، ذات لافتات تعلن عن أسمائها وتحيي القادمين بساحات صغيرة مزهرة. كنت أود التوقف في كل قرية منها، وأوقف حركة الباعة الذين يسدلون الستارة الحديدية على واجهات براقه، وأن أقفزَ إلى داخل المنازل التي يُضيئها نور ذهبي وأعبر الستائر لأصبح ولد تلك الأسرة، وأخاً لتلك العائلة فأجلسَ في طرف تلك الطاولة المليئة وأحلّ مكان الرجل الذي يُغلق مصاريع نوافذه ليعود إلى كتبه، وألاقي تلك المرأة التي تفكر في مقعدها الأرجواني اللون بالقرب من باقة من الزهور.

توقف ماكس في ثلاث قرى ليسلم إلى أعضاء رابطتهم مستندات سرية.

كان يتركني، كل مرة، في الساحة الرئيسة ويختفي؛ فأستفيد من ذلك لأشم الهواء وأنظر فيما حولي.

في القرية الثالثة، حين كنت أغسل يديّ في نبع من الحجر القشدي اللون، انزلت أبي بالقرب مني وصفرَ إعجاباً:

- حرية، مساواة، أخوة. أرايت، يا ابني؟

- مم؟ عن أي شيء تتحدث؟

- حرية، مساواة، أخوة.

- هل هي أغنية؟

- كلاً، منذ الصباح، اقرأ ذلك في كل مكان، على واجهات المنازل، وعلى زخارف الأبنية وعلى الأنصاب التذكارية وعلى التماثيل. حسناً، ليس هذا إلا شعاراً، موافق، لكن الناس الذين يطالبون به لا يمكن أن يكونوا أشراراً.

- إنهم يبالغون في ذلك. شأن البائع في سوق يصرخ أنه يبيع الأقمشة الأجمل والأرخص. إنه لا يؤكد ذلك إلا لأنه كاذب.

- لا علاقة لدستور الجمهورية بتصرفات السوق، يا ابني، إنك تتوه!

- ألم يرفع الفرنسيون هذا الشعار حين غزوا العالم ليؤسسوا إمبراطوريتهم الاستعمارية؟

- في الجزائر، في المغرب، في السنغال، في آسيا؟ ربما أنت على حق. - إذا «حرية، مساواة، أخوة» تعني بلا شك أننا أحرار في غزوكم، سنكون متساوين وإن كان بعضهم أكثر مساواة من غيرهم، ستكونون إخوة لنا حين يجب علينا أن نذهب معاً إلى «مجزرة الحروب».

- آه، أجدك متشائماً.

- يقبع الكذب في التعبير الثالث، «أخوة». لإقامة أخوة يجب تقرير من يشكل جزءاً منها، ومن ليس منها. فحين تُحدد مجموعة أفراد

متعاضدين سيتساعدون مهما حدث، يجب كذلك تحديد هؤلاء الذين يُقصون ولا ينتمون إلى المجموعة. بمجمل القول، يجب رسم حدود. فبمجرد أن تقول «أخوة» فإنك تناقض «مساواة»، يلغي التعبيران بعضهما بعضاً! نعود دائماً إلى تلك النقطة: الحدود. لا يوجد مجتمع إنساني دون رسم حدود.

تنهد والدي، بانزعاج وختم كلامه قائلاً:

- لم يكن على الإنسان أن يصبح حضرياً، كان عليه أن يبقى بدوياً، وهكذا لما وجدت الحدود.

- كلاً، يا أبي، هناك حروب بين الشعوب البدوية الرحالة بقدر ما هي بين الشعوب الحضرية.

- إذاً من أين تأتي الحروب؟

- يكمن أصل الصراعات في «نحن» لمجموعة ضد أخرى، هذه «نحن» تعبر عن هوية ويرر مهاجمة الهويات الغربية عنه.

- إنك لا تلفظ «نحن» مطلقاً، أنت؟

- بلى، لكنني لا أريد أن أشكل «نحن» مع أي شخص. أنت، يا

أبي، حين تصرخ «نحن»، تفكر بشعب العراق؛ حين أتمتم «نحن»، أفكر بأسرتي. أشعر بأنني مدين كثيراً لأسرتي، وليس للعراق. أريد التعرف إلى ديوني لكنني أحاول ألا أخطئ بالمدين. ماذا يُقدم لي بلدي؟ ماضياً مأسوياً وحاضراً فوضوياً ومستقبلاً غامضاً. شكراً. لقد فهمت، لا أنتظر شيئاً منه، ولا أدين له بشيء. بالمقابل إنني أدين لأهلي.

- إذا لن تعود عراقياً؟

- أحاول ألا أكونه.

- عندك مفهوم ضيق جداً عن جذورك!

- أنت، كان عندك مفهوم في منتهى الفساحة حتى إنك مُت منه.

- بمجمل القول، إنك تحلم بأن تكون بلا وطن؟

- كلاً، لا أحلم بالأأأكون بلا وطن، أحلم أن يكون العالم كله

وطني. أحلم بأن «نحن» التي سألفظها يوماً تصبح جماعة الناس الأذكياء الذين يسعون إلى السلام.

- حكومة عالمية؟

- صه، هذا ماكس!

إثر عودته، دخل ماكس بسيارته في غابة.

هنا، صارغُتُ خوفاً غريزياً. انتصبَت الأشجار عالياً فجعلت

تلك العتمة التي هي بلون الجبر مثيرة للقلق حتى إنني أحسست أنني

صغير كطفل في حكاية. أنارت أضواء السيارة بشكل خاطف الحفر

والأدغال التي تنبثق منها حيوانات بعيون وجلة. فسمعت في الخارج

نعيقاً، وشكوى مؤثرة.

توقف فأزت أطر الدواليب على الحصى.

أطلق زماميره.

بعد عدة ثوان، ظهر منزل أماننا. فصاحب البيت الذي أضاء

المصابيح الخارجية، ارتسم خياله أمام الباب.

صاح رفيقي قائلاً:

- مرحباً، يا شويلشر، هنا ماكس!

فتح المضيف ذراعيه، فتعانق الصديقان.

قدمني ماكس إلى الدكتور شويلشر.

- هذا هو سعد سعد الذي جاء من العراق والذي أعهد به إليك.

- طاب يومك، يا سعد سعد. أسمح لي أن أدعوك سعد؟

- طبعاً.

انفجر الرجلان بالضحك. أما أنا فكنت أعاني البرد.

نظر ماكس إليّ بتعاطف.

- لقد استخدم سعد عينيه كثيراً طوال الرحلة حتى إن عليه أن

يطبقهما. إنه يموت من النعاس.

كان على صواب، كنتُ منهكاً. قادني ماكس إلى غرفتي بينما

وضع الدكتور شويلشر في صينية طعاماً لي.

قال لي وهو يحمله إليّ:

- لا تتردد في تناول طعامك في السرير. ارتح.

تركاني وحدي في الطابق وشرعا في الشراب في المطبخ؛ بالرغم

من أن صوتيهما يصلان إلى مسمعي، لكنهما كانا يتحدثان بسرعة كبيرة

حتى إنني لم أفقه شيئاً؛ في النهاية، ما إن قشطت آخر فتات من صحن

ورفعت إصبعي إلى فمي حتى نمتُ.

لم أتعرف إلى الدكتور شويلشر إلا في اليوم التالي. كان ماكس،  
دون أن يوقظني، قد غادر منذ الفجر.

طلبت من الطبيب أن يسامحني على إرهابي ليلة البارحة. رفع  
كتفيه وسألني:

- أنفضل الشاي على القهوة؟

- نعم، شكراً.

اغتبطت أن مضيفي لم يجبر الشرقي الذي كنته على شرب هذا  
السائل الحامض الذي يعشقه الأوروبيون؛ كنتُ مرغماً على شربه  
خلال رحلتي الإيطالية، لكنني لم أستطع أن أستطيعه قط، كان الأدب  
وحده يمنعني في كل مرة من أن أبصقه.

- أعتقد أنك تحبه حلواً؟

- إنني مندهش من رؤية الأوروبيين يضعون قليلاً من السكر في  
مشروباتهم.

- لحسن الحظ! إنهم يستهلكون قدرًا كبيراً من السكر في  
الكحول وفي الخمر. في الواقع، كيف حالك؟ إن الطبيب هو الذي  
يطرح السؤال.

- إنني لا أطرح على نفسي هذا السؤال مطلقاً.

ابتسم وهو يفكر.

- فلنخرج، هل تريد؟

أعارني شويلشر معطفاً، ووشاحاً، وجزمة واجتزنا الباب.



كانت المناطق المجاورة لا تشبه ما رأيت مطلقاً - أو بالأحرى ما لم أر - الليلة الماضية. فحول المنزل وخلف الجدار الصغير المنخفض الذي يعزله، تمتد إلى ما لا نهاية حقول من القبور.

دخلنا في أقرب فرجة لمكان الصלבان البيض. بدا المشهد أنيقاً ومتناظراً ومرتباً وينبعث منه تناغم قوي. أجل، هذه الصيغة المخصصة لهم تعبر هنا بشكل بليغ «الموتى يرقدون بسلام» ولقد شعرت بذلك بشكل محدد. فالنظام والتناسق يؤكدان على المساواة في الموت. لا يتميز أي رجل في تلك المقبرة العسكرية، ولا يتجاوز أي رأس غيره سواء أكان أقوى أو أغنى أو أعلى مرتبة.

شرح لي شويلشر أن ستة وعشرين مليون قذيفة قد سقطت بين عامي ١٩١٤ و١٩١٨ أثناء الحرب العالمية الأولى. أي ست قذائف في المتر المربع. هذا الطوفان من الحديد والنار قد أحدث سبع مئة ألف ميت. ولا أعد القرى التي هُدمت والتي لم يعد بناؤها ولا العتاد الحربي الذي لم ينفجر والذي لا يزال يلوث التربة. إن غالبية الرجال المدفونين هنا كانوا شباباً، نشيطين، مفعمين بالقوة. لا أستطيع أن أمتنع عن التفكير اليوم من أن العشب بالغ الخضرة لهذا السبب، كأن النبات يستمد حيويته من الأجساد القوية التي توجد تحته.

تأملتُ جيش الصלבان، المصطفة بدقة، واقفة، نظيفة، بهيئة نظامية، وفكرت أن الجنود، وإن كانوا موتى، يقفون إلى الأبد بوضعية الاستعداد.

تابع شويلشر بصوت عميق قائلاً:

- أسكن قرية بروح واحدة، هي روحي، لكنني لا أشعر بأنني وحدي لأنهم جميعاً هنا، حولي، وهم كائنات رشيقة، صاخبة، قوية، شجاعة. اصغ، يا سعد، اصغ جيداً إلى هذا السكون، فتستمد منه قدرة جديدة.

- لماذا وصفك ماكس بأنك «عمدة الموتى»؟.

- هذا ما أنا عليه. هنا، في مقاطعة «شارني - سور - موز» كان هناك، قبل الحرب، حوالي ثلاثة آلاف مقيم، غالبيتهم من الفلاحين، يشغلون تسع قرى. اضطروا إلى الرحيل منذ بدء المعركة، فلم يرجعوا مطلقاً. منذ عام ١٩١٩، منح القانون كل قرية من القرى التسع التي ماتت من أجل فرنسا لجنة بلدية ورئيساً تقارب صلاحياته صلاحيات العمدة. تبع ذلك إقامة كنيسة صغيرة ونصب تذكاري للموتى حيث سُجلت أسماء الأبناء الذين سقطوا دفاعاً عن الوطن. إنني أكرس ذاتي لهؤلاء الموتى.

- هل هم سعداء؟

- إنهم لا يشتكون.

- كيف اختاروك؟

- انتخبْتُ عمدة إثر انتخاب وهمي. لأنه لا يوجد في قريتي أي منتخب حي. في بلديتي، لم يشر سجل الأحوال المدنية الذي أمسكه إلى ولادة طفل منذ مئة عام.

- ماذا يفعل الموتى كي يصوتوا؟

- يعينني رئيس بلدية «لا موز» وقت الانتخابات البلدية.

ثنى الدكتور شويلشر جفنيه الحالمين وهو يتأمل هيكتارات من المساحة التي تشغلها الصلبان فوق آلاف الموتى.

- إنني أحافظ على صباهم. أسعى أن يبقوا موتى شباباً إلى الأبد. تصور أن تتداعى لحدودهم، بل وأن تنهار: سيهانون، ويُنسون، فيجعل إهمالي تضحيتهم لا فائدة منها. أما بقية الوقت، فأعالج الأحياء في المستشفى القريب.

فجأة، نظر إلى وجهي بانتباه ومودة.

- إذأ، يا صديقي الشاب، عليّ أن أصحبك إلى الشمال لتأخذ مركباً في اتجاه إنكلترا؟

- سأكون ممتناً لك من ذلك، يا سيدي.

- سأرتب أموري لاصطحابك قريباً.

- هل أنت متفائل؟

- بالنسبة إليك، نعم. بالنسبة إلى مستقبل العالم، كلاً. تكمن مشكلة الناس في أنهم لا يعرفون التفاهم فيما بينهم إلا إذا تحالفوا ضد آخرين. إنه العدو الذي يوحدهم. يمكن الاعتقاد، ظاهرياً، أن الوثاق الذي يربط أعضاء المجموعة، هو اللغة المشتركة والثقافة المشتركة والتاريخ المشترك، والقيم المتبادلة؛ في الواقع، ليس هناك أي وثاق إيجابي قوي بقدر كافٍ ليجعل الناس متلاحمين؛ فما هو ضروري

لتقريبهم هو عدو مشترك. انظر هنا، حولنا. في القرن التاسع عشر اخترعوا الأمم، فأصبح العدو الأمة الغربية والنتيجة: حرب الأمم. بعد حروب كثيرة وملايين الموتى، قرروا، في القرن العشرين، تصفية الأمم، النتيجة: خلقوا أوروبا. ولكن كي يوجد الاتحاد الأوروبي، وليدركوا أنه قائم، يجب ألا يحق لبعضهم المجيء إليه. هذا ما جرى، فاللعبة في منتهى الغباء وهي على هذا الشكل: يجب أن يكون دائماً ثمة مبعدون.

انتزع بلطف هندبة برية وحملها إلى منخاريه.

- منذ آلاف السنين، لم تكن الأرض مأهولة إلا بالمهاجرين وغداً سيهاجرون بشكل أكبر، منهم المهاجرون السياسيون والمهاجرون الاقتصاديون، والمهاجرون المناخيون. لكن الناس هم فراشات يحسبون أنفسهم أزهاراً: ما إن يقيموا في مكان حتى ينسوا أن لا جذور لهم، فيظنون أجنحتهم تويجات الزهرة ويبتكرون سلالة أخرى تختلف عن سلالة اليرقانة الهائمة التي تصبح الحيوان الطائر.

نفخ بلطف، وقد نشر غبار الطلع في الهواء.

- لماذا تساعدني، يا دكتور شويلشر؟

- إما أن تكون الفلسفة الإنسانية على قدر العالم وإما لا تكون.

فالمؤمن حقاً بالإنسانية لا يتعرف إلى الحدود.

بناءً عليه، أدار كعبيه ورمى لي مجموعة مفاتيحه وأعلن لي أنه

ذاهب ليعمل في المستشفى.

تبعْتُ سيارته بعينيَّ إلى أن اختفت، صغيرة، على قمة الهضبة.  
- كما ترى يا سعد، يا لحمًا من لحمي، ودمًا من دمي، هكذا  
الفرنسيون: يعتقدون أنهم يتحدثون معك لغة عقلانية جداً بينما في  
الواقع تفيض مشاعرهم. على كل حال، أشخاص يهتمون بأمواتهم  
هكذا لا يمكن أن يكونوا غير مكترئين بالأحياء، أليس كذلك؟ يا ابني،  
هذا بلد جميل لأنه قادر على تسمية عمدة ليدير أمور الموتى. ألا تود  
أن تبقى في فرنسا؟ إنني أقدر كثيراً تلك الدرجة من الحضارة، بعيداً عن  
الهمجية. وأتأقلم جيداً هنا؟ ألا تتأقلم أنت هنا؟

- إنكلترا، يا أبي، إنكلترا.

- ولكن لماذا؟

- هناك فرص عمل أكثر.

- لست بحاجة إلى أن تجد فرص عمل كثيرة لكنك تحتاج إلى  
عمل واحد.

- لا مجال للمناقشة. إنكلترا هي حلمي، لا أعرف لماذا. لا شك  
أنها غلطة أغاتا كريستي.

- كان عليَّ أن أضع في القبور روايات سيمنون البوليسية، إذ ألكنت  
توقفت هنا. نتابع، هل أنت متأكد؟  
- أجل.

- حسناً، في نهاية الأمر، ربما لم يكن هذا الرجل إلا استثناءً...

وقفتُ مرة ثانية أمام بحر، بحر الشمال؛ مرة ثانية كان سهلٌ مائع يقف بيني وبين هدفي؛ مرة ثانية فكرت أن المياه المنبسطة، وهي ترفع جدرانها الدفاعية، تؤمن حماية في منتهى الفعالية لأرض تريد أن تنغلق. - أنت على صواب، يا ابني. أقله يمكن تسلق الجدار. أما هذا... فهو عذب، كالح اللون، أقرب إلى السكينة، بلون الأرض الموحلة؛ إن بحر الشمال أقل تأثيراً فيّ من البحر المتوسط. ففي ذاكرتي وأنا تلميذ، كانت المسافة تبدو ضيقة، على الخريطة، تلك التي تفصل بخط أزرق فرنسا عن إنكلترا. وإذا...

- لا تفكر بذلك، يا ابني!

- ولكن...

- أن تقطعه سباحة، يا للجنون! أشير إليك إلى أنه، كل سنة، هذه الواحة الغربية، بحر المانش، بالرغم من مظهره المسالم، يتلعب في أعماقه جثث الطائشين ويهضمها، شأنك شأن هؤلاء الذين يسيئون تقدير المسافة والخطر. فضلاً عن ذلك، لو كان يكفي أن يسبح الإنسان

بذراعيه أو بساقيه كالضفادع ليصل إلى إنكلترا، لكان هذا البلد قد أمّن منذ بضع عشرات من السنين كل أبطال السباحة في المباريات العالمية، وهذا أبعد من أن يحدث. فالإنكليزي لا يحب أن يتحرك في الماء كما لا يحب أن يشربه. إنها جزيرة مدمنين على الكحول تحميها آلاف الكيلومترات من السائل المالح. بمجمل القول، امتنع عن التفكير بذلك.

لم أكن قريباً هكذا من الهدف على الإطلاق ولم أكن في هذا الإحباط قط.

وضعني الدكتور شويشler هناك قبل عدة أيام، فرحت أطوف بين الشاطئ والأرصفة التي تحد مياهها سفن شحن أعلى من البنايات، هناك خيمة من البلاستيك الرطب يقدم فيها المسعفون إلى البائسين مثلي حساءً ساخناً وإسعافات طيبة. فلقاء المتطلعين إلى السفر من أفغانين وباكستانيين وأكراد وأفارقة ليس بينهم شيء مشترك إلا الإعياء ونظرة جامدة وقشور على أجسادهم الهزيلة والجريحة، كل ذلك قد أرغمني على النظر إلى ذاتي بعين أخرى. كنت أرى نفسي نحيلاً، منهكاً، مُنْفِراً.

بسرعة، شرحت لي بولين، بديلة الدكتور شويشler ما كان ينتظرنني: الشرطة التي توسعنا ضرباً أو تنقلنا على بعد خمسين كيلومتراً وتركنا حفاة، وسط حقل؛ غزوات الشرطة في المخيمات المرتجلة؛ اقتحام منازل مالكين يؤون بعضاً منا؛ قرارات الطرد خلال عشرة أيام

لهؤلاء الذين ادعوا الشرعية. كان عليّ أن أجد طريقة للرحيل بسرعة،  
وإلا، أخذوني إلى مركز احتجاز، في مدينة ليون أو في أورليان، أي  
على بعد مئات الكيلومترات في الجنوب؛ حينذاك يجب البداية من  
جديد.

انحنيت والتقطت حصاة. شدتها وفركت استدارتها الملساء  
على راحتي وضغطت حكمتها الألفية على جلدي المتشقق، فأعطاني  
ذلك راحة عذبة، لا أعرف سببها.  
وقد نهضت وقطعت بناظري كله الأفق والشاطئ، ظننت أنني  
جُنْتُ.

- أبي، هل ترى ما أرى؟

- أجل، يا ابني!

- الشيء ذاته؟

- أجل!

- الشخص نفسه؟

- نعم! أراها أيضاً. إذا كنت مجنوناً، يا ولدي، فكلانا مجنون.

كانت ليلى تمشي على الشاطئ، بالقرب من طريق المرور. وقد  
ظهر جسمها بثوب برتقالي اللون يخط أشكالها، كانت تنساب أكثر  
مما تتقدم في زوبعة من الستائر الرقيقة، فستقية اللون، ذهبية، مزركشة،  
تجعلها تشبه جوجو سفينة في مهب الريح.

في تلك اللحظة، فكرت أنني وصلت إلى نهاية سفري. لن أذهب



أبعد من ذلك. ها أنا ميت، لا بد أنني عانيت وعكة على الأحجار.  
توقف قلبي. جلطة دماغية. وهذا شيء مألوف، وعادي بلا شك بالنسبة  
إلى الأطباء لكنه صعقني توأ للمرة الأولى والأخيرة.

- يا ابني، إنني أستشف ما تفكر به، لكنك تخطئ. فأنت لست

بميت.

أرجوك، اقرص نفسك.

قرصت ذاتي بقوة. بالرغم من الجلد المتآلم الذي أحرقني، كنت  
لا أزال أشك فيما أرى.

- يمكن أن نقرص أنفسنا في الحلم، أليس كذلك؟ إذاً لماذا لا

يحدث ذلك في الموت؟

- يا ابني، إنك لست ميتاً!

افترضت حينذاك أنني وصلت إلى حد الواقع، حيث ترقد  
الحدود بين العالم المرئي والعالم غير المرئي. على ذاك الشاطئ من  
بحر الشمال، قطعتُ العتبة التي تفصل الأحياء عن الموتى.

- هل الأمر هكذا؟ هل أنا على وشك ان أدخل عالمك، يا أبي؟

- إلى مملكة الموتى؟

- أجل، ربما وجدتُ الممر السري الذي يقود إليكم؟

- كلاً.

- كيف حدث أنني أراها؟

- هل تراها كما تراني، أنا؟

- كلاً. إنك أقل وضوحاً. أكثر هرباً. ضبابي. إنها تبدو صلبة.

- إذاً، كن منطقياً، يا ابني: إذا كنت تراها كما ترى تلك الحصاة، بكثافة مماثلة، فهذا يعني أنها تتجول في العالم الذي تتجول أنت فيه. يا سعد، إذا كنت تراها فهذا يعني أنها حية. يا لحماً من لحمي ودماً من دمي، أسرع قبل أن تتلاشى. عجل! اندفع!

أطلقت ساقِيّ للريح راكضاً نحو ليلي. كنتُ أتوقع، في كل لحظة، أن يتغير شبحها وقد اقتنعت أنني كنت قد خُدمتُ بتشابه مذهل؛ فالمجهولة التي كنتُ أركض نحوها لن تعود تبدو ليلي لتجسد إنسانة غريبة، وسيكشف لي تفصيل عن التباسي. حين صرت على بعد عدة أمتار منها، فوجئتِ المرأة، فاستدارت نحوي، ووجهها أمام وجهي. هنا أيضاً تعرفت إلى ليلي. تقدمت. خلال عدة ثوانٍ سمحت لي بالاقتراب منها، ما زلتُ أتوقع أن تقاطيعها وعينيها وفمها ستدوب في تقاطيع امرأة أخرى. أخيراً، حين وقفت على بعد عدة سنتيمترات منها، لم أتلَقَ أي تكذيب على الإطلاق.

لم أكن أستطيع تصديق ذلك: كنتُ أجابه قرين ليلي التام، قريناً يطابقها بشكل صارخ يحدق إليّ بفزع، وقد تقطب حاجباه.

خافت المرأة المجهولة من هذا الرجل الذي اندفع نحوها. ثم تمتت المجهولة في نفحة وهي مرتبكة ومرتدة:

- سعد؟...

وعرفتُ حينذاك أن المجهولة هي حقاً ليلي.

تشابكت أذرعنا، وبحث فمانا عن الآخر، ووسط بكاء بدموع حارة، قبلنا بعضنا بعضاً حتى كادت تنقطع أنفاسنا.

بعد عدة ساعات، وقد تلاشى زهول التلاقي، أخبرتني ليلي بما حدث لها. وكذلك بوالديها، فلقد نجت من الانفجار حين ظنها الجميع ميتة: في الواقع، كانت ليلي وأمها وأبوها يزورون عمه لها وقت الاعتداء. قرر أبوها أن يؤكد موتهم وأن يستفيد من ذلك ليهرب إلى الخارج، لا سيما أن ثلاثتهم كانوا سيكون موت الإخوة الأربعة. وقد فكرت ليلي فيّ، في كلينا، وفي مستقبلنا، احتجت ورفضت. إلا أنه في ساعات البلبلة والألم، لم يترك لها أبوها الوقت لتفاوض. في الليلة ذاتها، رحلوا بتكسي إلى سوريا. في الأيام التالية، وصلوا إلى بيروت وضاعفوا مساعيهم.

حينذاك اتصلت ليلي بابن عمها أمين في بغداد ليعلمني أنها على قيد الحياة.

- ألم يلتق بك؟ لم تصلني أية أخبار مطلقاً.

تذكرت أن أمين كان ينتظرنني في شارع ليلاً حين عدتُ وأنا متوتر جداً شأن سمك القرش الذي اشتتم رائحة الدماء، من دورتي التدريبية من عند الإسلاميين... كنت مرتبكاً، وقد أدركتُ فجأة المشهد، ففسرتُ بعدة كلمات إلى ليلي أن أمين قد سعى ما في وسعه ليؤدي مهمته لكن خطابي قد أرعبه، ففضل بلا شك ألا يقول

لي شيئاً، أولاً لأنني لا أستحقه، ثانياً كي لا يُعَرَّض ابنة عمه إلى الخطر.

بينما كان والداها يأملان بالحصول على تأشيرات دخول إلى كندا، فلقد ماتا بحادث سيارة عبثي في الجبل. وجدت ليلي نفسها وحيدة في لبنان حيث تشابكت العلاقات ثنائية بين المجتمعات، وقد عدلت عن العودة إلى العراق حيث اعتُبرت رسمياً ميتة، فقررت أن تجرب حظها في أوروبا.

تساءلت إن لم أكن ميتاً، فقامت برحلتها. في البدء، كانت مسيرتها أبسط بالنسبة إليها. وقد تزودت بمدخرات الأسرة، حطت رحالها في باريس بتأشيرة دخول سياحية وأقامت في فندق متواضع لتعمل كسكرتيرة متعددة اللغات ولتسوي وضعها.

إلا أن المال راح يذوب، أما وظائفها فلقد اقتصرت على خدمات قصيرة بأجور سيئة جداً، واكتشفت أنها لن تنجح في المدة التي حددتها لنفسها. أملت، طويلاً، أن تحصل على أوراق نظامية؛ لكن جرت انتخابات حيث حدد سياسيون من حزب اليمين أن أصل المشاكل الفرنسية هم المهاجرون، وهؤلاء الذين بلا أوراق ثبوتية، والمسافرون غير النظاميين. انطلاقاً من هناك ابتداءً تدهور بطيء أدى إلى أن تشتغل ليلي بالسر وبأجر زهيد تلا ذلك التسول والسكن في غرف خدم إلى سكن مستولى عليه، ومن أكل السندويش إلى الحساء الشعبي الذي يُقدم مجاناً.

- كان الوضع لا يُطاق، يا سعد. كنتُ خائفة طوال الوقت. كان احترام قواعد الحذر البدائية يزعجني دون أن يطمئنني: أن أظهر بمظهر لائق، ألا أكون في شبه عري، ولا محجبة كثيراً قط، كي لا أثير الأنظار المرتابة؛ أن يكون لي دائماً اشتراك في الميتر أو سيارات النقل العامة لأن المخالفة تعرضني إلى تفتيش الشرطة، تجنب شبكة الخطوط السريعة (R.E.R.) وكذلك محطات الاتصالات الكبيرة شأن «شاتليه - لي - هال»، مما يضطرنني كي أذهب عند معلمي أن أقطع مسافات غير معقولة وطويلة جداً. لم أكن في أي مكان في سلام. أين أجلس؟ أين أنام بلا خشية؟ بينما لم ارتكب أية جريمة، كنتُ أترقب الشرطة. اشتغلت باستمرار، يا سعد، اشتغلت كي أبقى حية، اشتغلت كي لا ألفت نظر أحد، وفوق كل شيء، اشتغلت كي لا أمرض.

أخيراً، وقد ازداد حذرهما، وشعرت بأنها مطاردة، قررتِ المجيء إلى هنا، في الشمال، لتهرب إلى إنكلترا.

- لم اعد أعرف أي مسار أتبع، الهرب أو تسوية الوضع، سلكتها كلها لأنني كنتُ أطرده من كل مكان. هنا، أشعر كذلك بعدم الأمان، فعلياً أن أراقب دائماً ما حولي وأن أبقى يقظة ومستنفرة. انظر، هذا هو المكان الوحيد الذي أسكن فيه: أن أكون متنبهة.

- تعالي معي إلى إنكلترا، يا ليلي.

- أينما ذهبت لن أفارقك مطلقاً.

أخذتني إلى السكن الشاغر المحتل حيث تقيم. في الطريق،

رويت بدوري رحلتي الطويلة وقد سكت عن مرحلة صقلية التي تتضمن علاقتي مع فيتوريا لأنني قدرتُ أن لا فائدة من أن أُحدِث عند ليلى غيرة ماضية.

فأبعد من المدينة والقرى، كان السكن، الضائع في الريف الموحد، مؤلفاً من أبنية إدارية قديمة وكذلك مساكن سابقة لعمال تحول استعمالها منذ إفلاس الموقع. احتله المسافرون غير النظاميين وهم يأملون ببعده أن يوفر لهم طمأنينة نسبية.

في بناية ليلى، كانت تسكن كل غرفة أسرة أفريقية من خمسة أشخاص إلى سبعة. كان لليلى غرفة صغيرة جداً، وتلك ميزة حصلت عليها، مقابل ذلك، كانت تنظف المراحيض الطابق، ولم يكن ذلك بعمل سهل لأن المقر لم يعد متصلاً بالمجاري العامة، فكان عليها أن تحمل سطوراً برائحة كريهة إلى قعر حقل. كان هناك مطبخ جماعي ارتجله السكان في الممر بموقدين وبثلاثة أحواض من البلاستيك لأنه لم يكن هناك مطبخ أصلاً في تلك المجموعة من المكاتب. لم يكن هناك حمامات رشاشة على الإطلاق. كانت الامكانية الوحيدة للاغتسال ولجلي الأطباق ولغسل الملابس تقتصر على أنبوب سقاية حوّل عن العداد بالقرب من الطريق، فكان يستخدمه كل فرد تحت السلم المعتم. من وقت إلى آخر، كان من الممكن الاستفادة من بضع دقائق للكهرباء، إذا وجد أفريقي ماهر مطلع يتلاعب بالخطوط.

كان المقر يطن بالأصوات واللغات والروائح الغربية؛ فأوقات

كل واحد تختلف من ساعات النوم وساعات الحديث وساعات الممارسات الجنسية. فإذا اشتكى أحدهم اقتصر الجواب دائماً على هذا الأمر: «من أراد أن يكون في بيته فليعد إلى بلده!»

همست ليلي في أذني وهي تبسّم لي بحنان:  
- بابل، دائماً بابل...

بالرغم من هذا الجو المحيط بنا، فلقد أمضينا ليلة رائعة. أنا وليلي في غرفتها الصغيرة جداً، على سرير من الكرتون، فتصرفنا كما لو كنا متزوجين وتذوقنا أول فترة لنا معاً. لقد أرجع جسدانا ما كنا قد فقدنا، أي صباننا والعذوبة والمتعة والمستقبل. كنا سعيدين كما لم نكن حتى الآن مطلقاً تحت النجوم التي لم تكن كوة النافذة الضيقة ترينا إياها. في الصباح، كانت ليلي ترتعش سعادة بين ذراعيّ.

أما أنا، فأحسست أنني بطل حكاية سيطرتُ أخيراً عليها.

جاءتنا الأيام التالية بطمأنينة عظيمة وبصفاء بالغ. بينما كان لدينا مئة سبب لنحزن - كان المطر يهطل بلا انقطاع، والشرطة تشدد نداءاتها بالقرب من المرفأ، لم يكن لدينا مال ولا طعام والمنزل يعج بالصراصير بين الروائح التنتة والنفايات -، كنا أنا وليلي نعيش أحلى أيام الغرام فوق بحر هادئ.

كانت تذهب صباحاً لتعمل عند مطرزة تُشغلها مقابل بضعة قروش وتعطيها خبز. الليلة الفاتنة، أما أنا فرحت أبحث عن عمل متواضع وأتعقب سبل أخذ مركب إلى إنكلترا.

كنتُ قد روضت بولين، وسيلة الاتصال بشويلشر، وهي امرأة حمراء الشعر، وذات بشرة بيضاء كالحليب، ومزاج حاد وأشدّ تقلباً من ورقة الشجر في مهب الريح والتي كانت في مبنى مسبق الصنع تعطره القهوة المغلية جداً وتساعد بولين الأشخاص الذين بلا أوراق نظامية على تعبئة الأوراق المطبوعة الرسمية. وبحجة أن لديها شهادة ممرضة، كانت تعالج أيضاً، وفق امكانياتها الضعيفة، الأشخاص الأسوأ وضعاً بيننا.

كانت بولين تقدرني، لأنني لم أكن أسبب لها أية مشكلة على وجه التحديد، كما كنت أخفف مشاكلها الأكثر صعوبة، وذلك حين يجب خلع أحذية عالقة بالأرجل منذ أسابيع وحين يجب تنظيف الأجسام حول الجروح وحين لا يريد مسلم خجول أن يتعري أمام امرأة. بالمقابل، كانت بولين تسدي لي النصائح كي أقتات وأتجنب رجال الشرطة وأعد رحيلي المحتمل. كانت ابنة رجل دين بروتستانتي ولم تعد تؤمن بالله لكنها تؤمن بالضيافة. فالظلم يغيظها.

- لا سيما ظلمك، يا سعد، ذلك الذي تعانونه أنتم، بلا أوراق نظامية، لأن لا أحد يريد أن يرى مصيبتكم. فالفقر هو منزل بطبقات. في الأعلى، في الطبقة الرفيعة، هناك العاطل من العمل؛ إنه الفقير الطارئ، العامل الذي حُرّم من وظيفته بسبب الظروف؛ ولكن واضحين، الجميع يحبونه، العاطل عن العمل، فيتعاطفون معه، لأن فقره يزعجنا قليلاً ما دام مؤقتاً. تحته، في الطبقة الأدنى، هناك الفقير المستحق، ذلك الذي



يشتغل لكن أجره لا يكفي ليعيش؛ يقبل الناس هذا الفقير بود، وقد ينصحونه بالأقبال عملاً بأجر منخفض مطلقاً، والكل يصمت لأنه ليس بمعتوه القرية. إنه أبله المجتمع، فهو يقدم لنا المتعة الثابتة بأن يُشعرنا بأننا أذكى منه. وفي الأسفل، في الطبقات المنحطة، هناك الفقراء بسبب عدم تلاؤمهم، والمتسكعون، والشحاذون، هؤلاء الذين يُظهرون عدم مقدرتهم على العمل أو عدم تلاؤمهم مع المجتمع؛ هؤلاء لا يربحوننا لأنهم يقصون أنفسهم من النظام، فيمدونه بالقوة والدعم. هناك في المنزل، الأشخاص الذين يُثيرون الخوف ويعثون القلق هم الفقراء غير النظاميين، هؤلاء الذين بلا أوراق ثبوتية، والمسافرون خلسة شأنك، تحتلون الأقبية والسلالم والباحة، هؤلاء المهاجرون الاقتصاديون الذين يهربون من بلد، حيث، كما يبدو، لا يوجد عمل هناك. من يبرهن على ذلك أولاً، من؟ كيف يتدبرون أمورهم هؤلاء الذين بقوا هناك؟ ألم يأتوا بالأحرى ليسرقونا؟ إنهم مجرمون! وفي أفضل الأحوال، طفيليون! إنهم فاسدون يعيشون بالرغم من كل شيء: عدم الشرعية، الهشاشة، تقلبات الطقس القاسية، الخطر، الجهل باللغة! إنهم ناجون مشبهون... لأن معاصريّ يفضلون التفكير بالفقراء الأغبياء على التفكير بالذين يحسنون تدبير أمورهم، إنهم يفضلون الأغبياء على الشجعان. فالأشخاص الذين على شاكلتك يُزعجون، فيشبحون وجوههم عنهم ويفضلون أن ينسوا أنهم هنا، فلا يبحثون عن حلول لهم. ما داموا يتدبرون أمورهم وحدهم، فلماذا يساعدونهم؟ وإن كانت

حياتهم بالغة القسوة، فهي أفضل من حياتهم هناك، أليس كذلك؟ وإلا لرحلوا إلى بلادهم، أليس كذلك؟ حسناً، فليسكتوا، لا نريد أن نسمعهم ولا أن نراهم وسننسى حضورهم... فليعيشوا بتكتم شخص ميت. هنا، يا عزيزي سعد، يوجهون لك أسوأ الإهانات وهي اللامبالاة. يتصرفون كأنك لست هنا، كأنك لا تعاني البرد، كأن الدماء لا تسيل حين تُجرح. من هنا تبدأ الهمجية، يا سعد: حين لا يعود يتعرف الإنسان إلى ذاته في الآخر، حين يشيرون إلى صنف تحت مصاف الإنسان وحين يصنفون الجنس البشري بطريقة تسلسلية، فيقصون بعضاً من البشرية. أما أنا، فلقد اخترت دائماً الحضارة ضد الهمجية. وما دام هناك «أشخاص يحق لهم أن» و«أشخاص لا يحق لهم أن» فالهمجية قائمة. أعرف أن ما أقوم به من أجلك قد يعرضني لخمس سنوات من السجن. لا يهم! بل لحسن الحظ! أن يزجني الهمجيون في السجن! لن يغلقوا فمي! وسأعاود الكرة حين أخرج! فالحضارة تخون ذاتها حين تشير إلى «الآخرين»، إلى «الأدنى جودة»، إلى «المتطلعين إلى التقدم». ليس هناك حضارة جديرة بهذا الاسم تطلب شهادات ولادة.

وسط خطبها، كانت بولين، الواقعية جداً، تثقب خراجاً متقيحاً أو تنادي عمدة لتصرخ في قصبات صدره بخصوص هؤلاء الذين بلا مأوى. ذات يوم، أرسلت لي غمزة من عينها وانحنيت نحوي وأمرتني أن أتأكد من أن لا أحد قادماً ولا يمكن لأحد أن يسمعنا ودست مغلفاً تحت يدي.

- خذ، يا سعد. بطاقتان للذهاب هذا المساء إلى عرض راقص.

- شكراً.

- هل سبق أن رأيتَ عرضاً راقصاً؟

- لقد رقصت في حفلات الزواج في بلدي. كما رقصت كثيراً في

القاهرة.

- كلاً، أحدثك عن باليه للرقص الحديث، أخرجها أحد مبدعي

الرقص المعاصر؟

- لا أعرف ذلك.

- ستذهب إلى هناك هذا المساء. بعد العرض، تذهب إلى

الكواليس لترى جورج، وهو نفسه برازيلي مهاجر. إنه ينتمي إلى

تنظيمنا. وسيفسر لك كيف، بعد عدة أيام، ما إن ينتهوا من عرضهم

حتى ينقلكما، أنت وليلي، إلى إنكلترا.

- حقاً؟

- حقاً! مع ذلك، كان بودي أن أبقىك بالقرب مني، فأنت تنفني

هنا.

لم أقطع الكيلومترات التي فصلني عن المسكن قط بأسرع مما

فعلت. قصصت كل شيء على ليلي وضحكنا وبكيننا معاً.

ذهبنا، مساءً، إلى المسرح الواسع والحديث حيث يُقدّم العرض.

نادراً ما جعلني شيء بهذا الجمال في منتهى التعاسة. شعرنا بصدمة،

أنا وليلي، من رؤية أناس بالغي الروعة، أحرار، بلا قيود، خفيفي الوزن

كأنهم يطيطون ويحركون هذه الأجساد برشاقة لم يعد يعوقها أي قيد، ما عدا الجاذبية الأرضية. أدركنا أننا لسنا هكذا مطلقاً وأنا لن نكون هكذا بتاتاً وأنا منهكان، مسنّان، متعبان، وأنا نسينا أن باستطاعتنا أن نعيش ونتحرك ونتنفس لمجرد شعورنا بسعادة بسيطة وهي العيش والحركة والتنفس أننا لم نكن نجد ذاكرتنا الهاربة إلا أثناء مطارحتنا الغرام، من خلال بعض الحركات. كنا فاغري فميناً، ودموعنا على شفا عيوننا، شعرنا معاً أننا يائسان ومعزيان.

في الكواليس، استقبلنا جورج، وهو أحد الراقصين، بجسم حيوان كاسر ويشعر أشعث يختلط فيه البني بالأشقر بشكل فوضوي، ثم استحم بالحمام الرشاش وشرح لنا بالتفصيل طريقة العمل في الأيام التالية.

حين عدنا إلى السكن، بعد ساعات كثيرة من المشي، وقد خدرنا التعب والانبهار، تمددنا وقد اختلطت أذرعنا وسيقاننا، ودون أن نستطيع النوم، ابتسمنا للسقف حتى الفجر.

لا شك أنني غفلت في الصباح لأن ليلتي أيقظتني فجأة.

- سعد، لنهرب. أتوسل إليك. لنهرب إلى طرف الحقل، لقد

سمعت سيارة.

- هيا، أتظنين ذلك؟ انتظري حتى أذهب إلى النافذة.

جمعت حوائجها. أدركتُ بعدة ثوان أنها كانت على حق: كانت

سيارات تتابع في الأفق.

- لترحل.

دون أن أنتظر، أمسكت كيسي وسلكتنا الممر ونزلنا السلم بصمت.

سألته:

- هل نطلق الإنذار؟

- أجل. اذهب إلى الأمام. ساهتم بذلك.

انطلقتُ إلى الخارج، تحميني البناية من سيارات الشرطة وشرعتُ أركض عبر الحقول.

لا شك أن ليلي قد اضطرت إلى أن تزعق لتنبه كل واحد لأنه قد حدث هرج ومرج في البناية. في البنائيات الأخرى، الأقرب إلى الطريق، كانت الشرطة قد قفزت. دون أن ألتفت، تابعت ركضي بأقصى سرعة حتى تقطعت أنفاسي كي أبحث عن حماية في الغابات.

كنت أقول في نفسي لاهثاً:

- جبذا أن تلاقيني بسرعة.

لكنني بالرغم من آمالي، فإن جزءاً من ذاتي قد أدرك ما حدث. حين أطلقت ليلي الإنذار، بسبب الضجة التي أحدثتها، قد عجلت في تدخل القوى وأفسلت هربها. مع ذلك، كنت أريد أن أقتنع أنني على خطأ، تكورت في حفرة وقلبي يخفق وانتظرت.

انبعث صراخ وجيحات. قاومتِ الأفريقيات بشجاعة. تلا ذلك

أصوات انفجار. لا بد من أن رجال الشرطة قد ألقوا قنابل غازية. أو  
أحرقوا غرفاً.

ثمة صفق أبواب. صفارات إنذار. انطلاق سيارات. هدير  
محركات يتضخم ثم يتلاشى بعيداً.  
لم ترجع ليلى بتاتاً.  
لقد فهمت.

في حفرتي من العشب والطين، انتظرت حتى الظهر. ثم عدت  
إلى السكن، فكان كما تخيلته، لا يزال الدخان ينبعث منه لأنه تأكسد.  
لم يكن أحد موجوداً فيما حوله.

ذهبت مساءً عند بولين، ليس إلى مقرها المسبق الصنع الذي كان  
مغلقاً، ولكن إلى عنوانها الشخصي. ما إن لمحتني من نافذتها، حتى  
طلبت مني أن آخذ الباب الخلفي، باب الحديقة، بتكتم. بدت منهكة  
ومشغولة.

- سعد، لقد نجوت!

- أخشى أن أكون الوحيد.

- أعرف أن ليلى قد جرى توقيفها.

في المساء، ضاعفت اتصالاتها الهاتفية. ثم أتت، شعشاء الشعر،  
ونظرتها تعباً لتعلمني الحقيقة.

- سيكون تصرفهم مع ليلى أسوأ لأنها حاولت أن تنظم وضعها

الإداري، أما الآخرون فسيرسلون إلى مركز الاحتجاز.

- ماذا؟ ماذا سيفعلون لها؟

-إنهم يتصرفون بسرعة كبيرة مع النساء لأنهم يخافون أن يؤسسن أسرة.

- ماذا سيفعلون لها؟

- كن شجاعاً، يا سعد.

- ماذا؟

- سيعيدونها إلى العراق خلال ثلاثة أيام.

انهرتُ على بلاط المطبخ. هل كان ذلك بسبب الجوع والعطش والانفعال؟ ما أهمية ذلك، لم تعد قواي تتحمل سماع المزيد.

أوتني بولين عندها، وقد خبأتني في السقيفة، حتى اليوم المتفق عليه مع جورج. كانت بولين عنيدة ومتسلطة، دون أن تترك لي أي هامش أتصرف فيه، طلبتُ مني أن أتبع وحدي المخطط السابق المعد لكلينا.

حددت بولين قائلة:

- على كل حال، يقتصر العرض من الآن فصاعداً على شخص واحد. لقد أصبح الوضع في منتهى الخطورة. فالحكومات والدوائر تريد أن تعطي انطباع القوة وتشدد الرقابة.

عشية رحيلي، كي أغتسل من شجوني وخبباتي، شعرت بالحاجة إلى القيام بعملية تنظيف طويلة فطلبت منها الأذن كي أبقى قليلاً في غرفة حمامها. كنتُ أعرف أنني سأستهلك ساعات كثيرة دون أن

أشرب وأكل وأقضي حاجاتي. بعد تأدية صلاتي وحمامي الرشاش، استفاد والدي من ذلك كي يزورني على البلاطات الملونة.

- يا لحماً من لحمي، ودماً من دمي، لقد عدتُ. ظننتُ أنك

قد وصلتَ بطريقة سعيدة إلى نهاية رحلتك وها أنت... آه، لماذا لا تجري الأمور في الحياة على أحسن حال كما يحدث في الكتب؟ عند

هوميروس، مثلاً، ينتهي أوليس بمعاينة بينيلوب و...

- يا أبي، اتركني أنت وهوميروس. دعني وشأني.

- يا ابني، حدثني كيفما تشاء، فإنني لا أستحق أكثر، لكن، من

فضلك، تحدث باحترام عن العباقرة العظماء.

- شيء واحد يبدو لي أكيداً هو أن شاعرك هوميروس كان أعمى!

- آه نعم، لماذا؟

- كان يرتجل حكايات لها معنى لأنه بسبب عينيه المفقوءتين، لم

يكن يرى العالم كما هو، ولكن كما يروى له.

- هذه هي المرة الأولى التي لست متأكداً فيها بمتابعتك، يا ابني.

- كما ترى، يا أبي، تحدثني عن الكتب التي تحبها، تلك الروايات

ذات النهايات السعيدة أو حل عقدة عادل، أستنتج أن الكتاب هم

دجالون. يسعون إلى أن يسوّقوا لنا العالم على غير ما هو عليه، أي

منتظماً، عادلاً، أخلاقياً. إنه غش واحتيال! يجب أن تُمنع كتبهم عن

الأولاد، أن تُحظّر قراءتها، إنهم يجعلون الحياة أكثر تعاسة وعدمية

لأنهم كانوا قد أقنعونا أنها يمكن أن تكون جميلة. فسببهم، كل مرة



نسقط فيها من درجة أو نتخط في البراز، بكلمة أخرى، في أغلب الأحيان، نشعر بأننا مذنبون. نلوم أنفسنا على إخفاقنا لأنه كان علينا أن ننجح. هذا خطر!

- أنت لا تفهم شيئاً، يا سعد. فالكتاب لا يرسمون العالم كما هو، ولكن يرسمون عالماً كما يمكن للناس أن يصنعوه.

- إن بطلك أوليس الذي يستعيد بينيلوب وبطلتك بينيلوب التي ما زالت تحب أوليس، هذا وهم وخيال.

- آه نعم؟ وحببتك ليلي حية، هل هذا وهم؟

- كلاً، لكننا مفترقان.

- ليس هناك حكاية جيدة بدون فراق.

- أريد أن أعيش حياتي، لا أن أعيش حكاية.

- اعتمد على الحياة لتغني حكاياتك.

- يا أبي، دعني وشأني! كفى فلسفة!

- إن لم يكن المرء بحاج دائماً إلى أبيه، فإنه بحاجة دائماً إلى

الفلسفة.

- حسناً، لقد فهمت ما تسميه بالفلسفة: إنها الوسيلة التي تجعلنا

نتحمل الفظاعة.

- هل تعرف منهجاً أفضل؟

قطعت بولين خدالنا إذ ذكرتني بحلول ساعة ذهابنا إلى المرفأ.

صحبتني إلى هناك بسيارتها ثم أخذتني إلى المقهى حيث  
ينتظرني جورج.

في لحظة افتراقنا، قبلتني بولين ودست ورقة بين أصابعي.  
- هيا يا سعد، خذ هذا العنوان. أرسلته لي ليلي توأم من بغداد حيث  
وجدت حاسوباً. في هذه الرسالة الإلكترونية، تعطيك هذا الاتصال،  
وهو ابن عم لها كانت تأمل لقاءه في لندن. إنها تطلب منك أن تتابع  
سفرك وتضيف أنها ستلحق بك. فمن خلال رابطتنا، إذا أردت، يمكنك  
أن تبقى على اتصال بها.

ها قد تم الأمر. في غرفة بثلاثة أسرة، حيث يتناوب ستة رجال لينام كل واحد بدوره، أسكن في «سوهو»، في لندن، في إنكلترا. عندي سقف. يقع على علو عشرين سنتراً من وجهي، بالضبط خلف ورق الجدران الذي ينفك لصاقه، فهذه الغرفة الخشبية تحت سقف مائل ترغمني على مراقبة حركاتي حين أتمدّد على فراشي، فأعيش مقوس الظهر كي لا أغامر بالوقوف وسط الغرفة.

حين أشرب كأس شاي بارد بمذاق أقحوان عتيق، أنظر إلى النهار ييزغ من الكوة. ولا يرغب النهار في الشروق، شأني في النهوض، فهو تعب، منهك، مصاب بالتهاب المفاصل، كتيب؛ إنه يتساءل أمن المجدي نفعاً أن يضيء السطوح الرطبة والسوداء واللامعة بالتلوث الدهني؛ فهو يعرف أنه حين يضيء بخشونة، يزيل عن «سوهو» الجاذبية الليلية التي تسبغها عليا أضواء النيون القرمزية اللون واللافتات الأنيقة والستائر البنفسجية اللون لمتاجر الخلاعيات؛ فيكشف عن القذارة وعن السناج وعن الشقوق التي تُظهر تعب الجدران، إنه سيوظف روائح

صناديق القمامة وسيثير روائح التقيؤ أمام الإعلانات وسينشط عطر الزفت الحاد وسينشر على الشوارع النفس التتن الذي تبعته الأقبية بمجرد أن يفتح بائعو عصير الليمون أبوابهم الأرضية الصغيرة ليسلموا هكتارات لترات البيرة.

انزلقت خارج فراشي، بدون صوت كي لا أزعج الأفغانيين وأحرص على أن أمكث أقل وقت ممكن على البساط المنحوت بدوائره المشبوهة ولبستُ بعض الثياب ثم، وقد قطعت الباب، تعلقت بدرابزين الدرج المتأرجح كي أنزل السلم والذي تنن درجاته تحت خطواتي. كي أخرج، يجب أن أخلع زراً يخور شأن كرسي كهربي ويسدد بمصراعه ضربات كثيرة في الأكتاف.

في الخارج، وصلت إلى شارع ضيق جداً حتى إن مصارعاً ضخماً الجسم لا يستطيع المرور فيه. فلندن التي رسخت فيّ تربيكتي. لم تصف لي أغاتا كريستي هذا النوع من الأماكن؛ لاشك أن ديكنز قد تطرق إلى هذا الوصف، لكنني لم أقرأ ديكنز لأن صدام حسين لم يمنعه.

وصلت إلى علامة حجرية حيث كنتُ أحب الجلوس حين أستيقظ، وأنا أكل كعكة من الحبوب، وهي وجبتي الأساسية. حولي، كانت عاهرات من كل الأعمار ومن كل الأجناس، وقد خربت زيتتهن، يغادرن مكان عملهن ليغصن داخل درج الميترو. شرع المتسكعون الفقراء في نومهم النهاري ووصل شبان يابانيون بتمام البهاء، بناطيلهم المكوية على الشنايا، وبأيديهم الدليل السياحي، ليزوروا العاصمة البريطانية.

في تلك الساعة لم تفتح المطاعم أبوابها بعد؛ شأن امرأة فوجئت وهي تتبرج، تقدم في واجهاتها الحزينة صحون اليخنة التي ابتكرها الناس على سطح الكوكب، وفن تحضير البقايا، أي طبخ النفايات من اللحم المأخوذ من عند اليونانيين، وأرزاً بالكاري من عند الهنود، وأطباقاً مختلطة من عند الأتراك وقد ظهرت على واجهات تلك المطاعم صورها الملونة العتيقة والذي طغى من الآن فصاعداً اللون الأخضر على بقية الألوان الكالحة، شأن عفونة على طبق حُفظ طويلاً في الثلاجة. كان الصينيون وحدهم يقدمون أطعمة ببعض النشاط، لكن يبدو كل شيء زائفاً، انطلاقاً من صغار الخنازير القرمزية التي تفيض على طاولات العرض وحتى الصحون التي هي من مادة الصمغ في المدخل. هناك المعكرونة العريضة اللماعة وكذلك قرنيط الشتاء اللماع وفتائر فيتنامية لماعة محشوة بالأرز وبط لماع وكذلك فتائر مقلية من الموز.

- إذاً، يا ابني، هذه هي الجنة؟

جابهني والدي، وقد جلس على التبع. ابتسمت له.

- ما رأيك في ذلك؟

- أنا؟ أتريد رأي أبيك؟ حقاً؟

- أجل.

- يُخيل لي أنك لم تترك البلد، يا ابني، على كل حال لم تغادر

بابل. هنا بابل. بابل اللغات، بابل المطابخ، بابل الأجناس، ولكي نبقى

في بلدنا، يمكن أن نشير إلى سدوم وعمورة. ألم تلاحظ أن في هذا الحي، حيث تُمثل كل التقاليد والأعراف الأكثر تنوعاً، ولها تعرفتها الخاصة يقوم اللوطيون بتسيير آليات العمل أما الذكور العاديون فهم فقراء بائسون يسيرون بمحاذاة الجدران.

- إلى أين تريد أن تصل؟

- إن ابن عم ليلى، هذا الذي يساعدك هنا، منظم مخزن الخلاعات، لا يعرفك إلا إلى غرباء!

- طبعاً، لست بحالة وحيدة. يوجد كثير من المهاجرين في إنكلترا.

- هذا يعني أنك لم تلتق بالسكان الإنكليز، لكنك تعرفت على

المهاجرين إلى إنكلترا!

كان شرطي يطوف بالقرب منا، بارد الطبع، ووجهه منقط ببقع حبوب، وهو يتمختر بطريقة يريد أن يطمئن كل فرد، وهو يعرض كأشياء اصطناعية قبعته ومسدسه على رديه البارزين.

ألقى عليه والدي نظرة مريبة: ففي نظره، يجب على ممثل قانون حقيقي أن يظهر مثيراً للخشية أكثر من هذا الرجل.

- ماذا تنوي أن تفعل، يا سعد؟

- أن أستمر في العيش أولاً. وأن أنصرف للبناء بعد ذلك. لقد وعدني ابن العم بعمل متواضع غير نظامي، بالقرب من المحطة. مقابل مئتي أورو، يستطيع أن يؤمن لي بطاقة إقامة زائفة؛ يمكن بعد ذلك

الحصول على عمل رسمي. حين سأرى ذلك بوضوح أكبر، سأنتهي دراستي للقانون وسأتزوج ليلي.

رفع والدي كتفيه، يائساً من سعة المهمة. شعرت بالرغبة في تهدئته وفي فهمي.

- إنك تفكر، يا أبي، على الطريقة القديمة. تفكر على طريقة هوميروس. فمنذ ثلاثة آلاف سنة، كان هناك رجل، يُدعى أوليس، حلم بالعودة إلى بلده بعد حرب أبعدته عنه. أما أنا، فحلمت أن أترك بلدي الذي دمرته الحرب. بالرغم من أنني سافرت وصادفت آلاف العوائق والصعوبات خلال تلك الرحلة الطويلة، فلقد أصبحت على عكس أوليس. إنه عاد، إنني أرحل. لي الذهاب، وله العودة. إنه يلاقي المكان الذي أحبه؛ أما أنا، فأبتعد عن الفوضى التي أمقتها. كان يعرف أين مكانه، أما أنا فأبحث عن المكان الذي يلائمني. كان كل شيء محلولاً بالنسبة إليه، بسبب أصله، فلم يكن عليه إلا أن يعود إلى الوراثة، ثم يموت سعيداً، وهو ملك شرعي. أما أنا، فسأبني بيتي بعيداً عن بلدي، في الخارج، في مكان مختلف. كانت رحلته الطويلة المعروفة بالأوديسة تشكل دورة حنين، أما سفري فهو رحيل ينفخه المستقبل. كان أوليس على موعد مع ما كان يعرفه. أما أنا فعلى موعد مع ما أجهله.

- إنك تطارد حلماً، يا ابني، ولكن في انتظار ذلك، ليست حياتك

بحلم.

ابتسمت. فألح قائلاً:

- إذا كان دافع السفر هو عدم الرضى، فهل ستكون راضياً؟ هل ستوقف يوماً.

إن هدف السفر، يا أباي، هو أن يحط المرء حقايبه ويعلن: ها هنا. إذاً ها أنا أعلن لك هذا: أتوقف، هذا هو المكان الذي أنشده. وقد جلست على النبع، خلعت حذاءي المطاطيين لأبلل قدمي في الماء.

أثناء ذلك، كان أباي يتفحص مظهر ملابس ثلاثة مخنثين متنكرين بملابس نساء، بسيقانهم الطويلة جداً والمشدودة بكعوب عالية براقه. - انظر، هل رأيت، يا أباي؟ عندي ثؤلولة جديدة تحت رجلي. - مم؟

- كيف تقول في لغتك الرفيعة «عندي ثؤلولة جديدة تحت رجلي؟»

- «إن قلق الحاج قد حفر علامته تحت الراحة التي تجابه الدروب».

هل أنت متأكد من أنه قلق جديد؟

- آه كلاً، لقد أصبت! إنها القديمة، أقدم واحدة، تلك التي لا أتخلص منها. كثيراً ما حككت، حفرت... - إنها صامدة ما دمت لم تكتشف اسمها. - لقد سميتها «الغضب» و«الانتقام».



- يا لها من أخطاء. ابحث جيداً. ابحث بشكل أفضل. أوجد ما يلتصق بجلدك، ما لا يتركك مطلقاً، يا ابني، ما هو في داخلك لن يتخلى عنه.

نظرت إلى الثؤلولة الوحيدة، تلك التي قاومت كل شيء، وأنا أنفخ عليها، لفظت أخيراً اسمها الحقيقي، وهو ما كان اسمي ويحددني، سميتها: «سعد».\*

---

(\* ) كنا قد أشرنا في بداية الرواية إلى أن المؤلف يعني بالأمل كلمة سعد وهو الاسم الذي يحمله البطل. (الترجمة).



## العراق في عهد صدام حسين

- ١٧ تموز ١٩٦٨: إثر «الثورة البيضاء»، قام حزب البعث بانقلاب ووصل إلى السلطة. أصبح حسن البكر رئيس جمهورية العراق.
- ١٩٧١: انتُخب صَدَّام حسين نائباً لرئيس الجمهورية بعد أن أبعاد منافسيه.
- ١٩٧٩: خلف صَدَّام حسين حسن البكر الذي استقال «لأسباب صحية»، فأصبح وهو في الثانية والأربعين، رئيساً لجمهورية العراق.
- ٢٢ أيلول ١٩٨٠: شن صَدَّام حسين حرباً على إيران التي يحكمها المولى (شيوخ الشيعة). دامت تلك الحرب القاتلة حتى عام ١٩٨٨ وانتهت بانتصار إيران.
- ١٩٨٨، عملية «الأنفال»: وهي إبادة جماعية نُظِّمت ضد قسم من السكان العراقيين، الأكراد.
- ٢ آب ١٩٩٠: اجتاح العراق الكويت. أحدث رد الفعل

الدولي حرباً ثانية في الخليج. توقف القتال في ٢٨ شباط ١٩٩١.

• ٢٠٠٣/١٩٩١: تعرض العراق لحظر دولي سبب نتائج كارثية. يتحدثون عن أكثر من مليون ميت بالرغم من برنامج الأمم المتحدة الذي نادى «البترول مقابل الغذاء».

• ٢٠ آذار ٢٠٠٣: بعد اعتداءات ١١ أيلول ٢٠٠١ وفي إطار مكافحة الإرهاب، تم اجتياح العراق من قبل الولايات المتحدة مع بعض الحلفاء بدون قرار موافقة من الأمم المتحدة.

• ٩ نيسان ٢٠٠٣: سقوط بغداد.

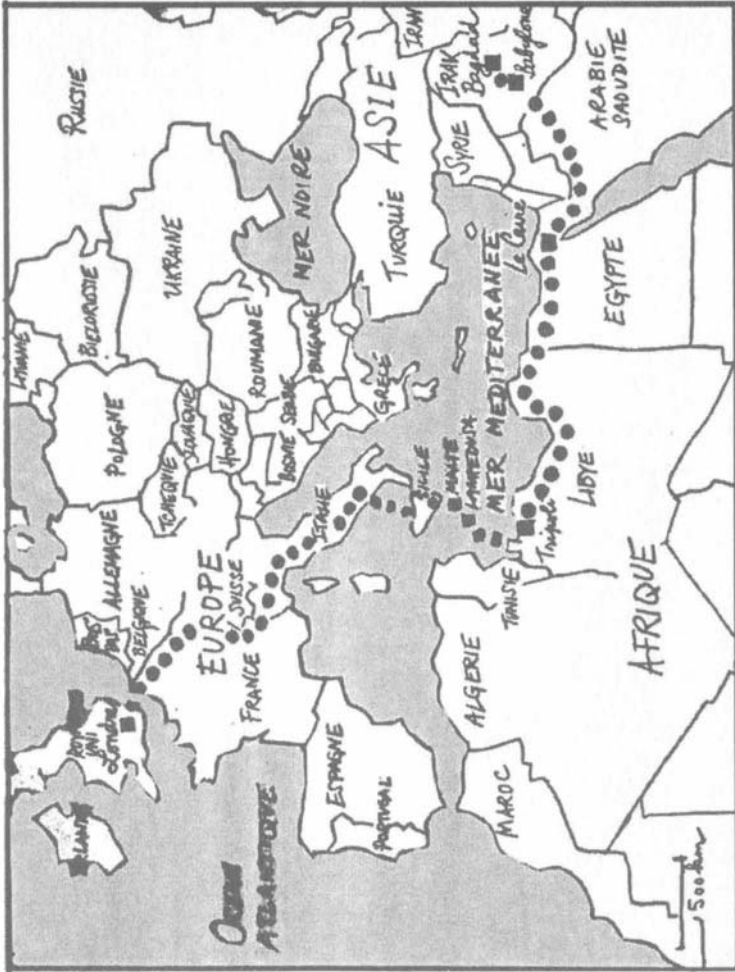
• أول أيار ٢٠٠٣: انتهت رسمياً الحرب الثالثة للخليج، وهي حرب سريعة جداً.

• ٢٨ حزيران ٢٠٠٤: عم السلام في المناطق الرئيسية للبلد وسُلمت السلطة إلى حكومة مؤقتة، لكن العراق بقي يجابه عنفاً متعدد الأشكال من عصابات وحركات لا يمكن السيطرة عليها.

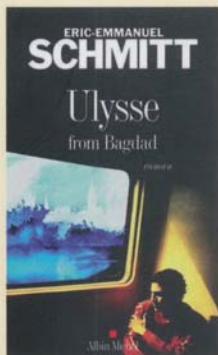
• ٣٠ كانون الأول ٢٠٠٦: إثر دعوى ومحاكمة، سُنق صدّام حسين.

بينما تزايدت الاعتداءات وحروب الشوارع، سحب غالبية أعضاء الائتلاف قطعاتهم. تم دعم الجيش الأميركي في عام ٢٠٠٧.

(خريطة رحلة سعد)



Le voyage de Saad



يريد سعد أن يترك بغداد والفوضى التي تعم فيها ليهاجر إلى أوروبا، إلى الحرية، إلى المستقبل. ولكن كيف سيقطع الحدود بدون دينار في جيبه؟ فشأنه شأن أوليس بطل أوديسة هوميروس يجابه العواصف، ينجو بعد أن غرق مركبه، يفلت من مهربي الأفيون، يصم أذنيه عن غناء الحوريات، وعليه أن يتعد عن إغراءات الغرام. تبدو لنا الرحلة تارة عبثية، مضحكة وطوراً مأسوية. تبدأ رحلة سعد التي لا عودة منها...

إن الكاتب إريك إيمانويل شميت يمزج بمهارة السياسة بسحر الشرق، فيروي قصة أليمة لبلد، ويبعث بفرح الأشباح ويجعلها تتحدث، تختلط المأساة بروعة الخيال ونزواته.

بعد دراسة موسيقية في كونسرفتوار مدينة ليون تابع إريك إيمانويل شميت الدراسة في معهد المعلمين العالي، ١٩٨٠ - ١٩٨٥.

تخرج أستاذاً في الفلسفة عام ١٩٨٣ وناقش أطروحته، عام ١٩٨٦، بعنوان ديدرو والميتافيزيقا (وصدرت عام ١٩٩٧ في كتاب بعنوان ديدرو أو فلسفة الإغواء، عن دار ألبان ميشال).



ISBN 978-614-432-458-5



9 786144 324585

Avec le soutien du

